الدكتور رزق رزق

لبنان وبلاد السوفيات

١٩١٧ - ١٩٨٧



الدكتور رزق رزق

لبنان وبلاد السوفيات

١٩١٧ - ١٩٨٧



١٩٨٧

★ لبنان وبلاد السوفيات
★ تأليف: دكتور رزق رزق
★ الناشر: دار الفارابي ـ تلفون: ٣١٧٢٠٥ ـ ص.ب: ١١/٣١٨١
بيروت ـ لبنان.
★ التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية. ش.م.ل.

★ الطبعة الأولى ١٩٨٧

اهداء

إلى والدي جرجس نقولا رزق

وإلى الذكرى العطرة لابن الجنوب اللبناني

الشهيد أسعد موسى أبو نقولا.

ر.ر.

مقدمة

هذا الكتاب، الذي يصدر في الذكرى السنوية السبعين لانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا، والذكرى الرابعة والأربعين لاستقلال لبنان، غايته الأساسية تتحدد في اجلاء صورة شاملة موضوعية لصلات شعبنا اللبناني مع الشعب السوفياتي منذ الأيام الأولى لانتصار ثورة اكتوبر، وعلاقات لبنان مع الاتحاد السوفياتي منذ قيامها بصورة رسمية في العام ١٩٤٤، بعد عام واحد من انجاز لبنان لاستقلاله السياسي، وكذلك في عرض وتحليل مواقف بلاد السوفيات من قضايا شعبنا بدءاً بموقفها من نظام الانتداب، مروراً بالاستقلال وجلاء القوات الأجنبية الفرنسية والانكليزية عن لبنان، وصولاً إلى الموقف السوفياتي من الحرب في لبنان وأحداثها، ثم الاجتياح الاسرائيلي وآثاره ومخلفاته وانعكاساته والموقف من وحدة لبنان وسيادته واستقلاله في مواجهة مشاريع تقسيمه وتفتيته.

أما لماذا هذا الكتاب، وفي هذا الوقت بالذات؟ فللأسباب والدوافع الآتية:

في المكتبة اللبنانية والعربية العديد من الكتب والمؤلفات عن سياسة الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط، ومعظمها غربية، أميركية وفرنسية وبريطانية بصورة خاصة، وقد ترجم العديد منها إلى اللغة العربية، وهي إن تطرقت إلى سياسة الاتحاد السوفياتي ومواقفه تجاه لبنان فليس إلا لماماً، وتتركز غايتها الأساسية في محاولة إثبات «الجوهر التوسعي»

و « الأطماع الاستعمارية » للدولة السوفياتية في المنطقة، والتي ورثتها عن اطماع روسيا القيصرية وأحلام التوسع والسيطرة عندها، متجاهلة كل الأسس والأهداف التي تقوم عليها وتسعى من أجلها السياسة الخارجية للدولة السوفياتية. وهذا الكتاب لا يتناول السياسة السوفياتية في الشرق الأوسط بل إنه مكرس لجانب محدد منها وهو المتعلق بلبنان، في سياق عرض تحليلي تاريخي توثيقي يقدم صورة حية موضوعية للصلات والعلاقات والمواقف المتبادلة بين إحدى أكبر دول العالم من جهة وإحدى أصغر دولة من جهة ثانية. وفيه عبر ودروس من تجارب الأمس ووقائع اليوم تدحض كل الصياغات اللاعلمية. وهي في آن نموذج مصغر وحسب يعكس حقيقة السياسة السوفياتية في الشرق الأوسط عامة، وتجاه كل دولة وشعب من شعوبه بصورة خاصة. ولم يكن اختيار لبنان كميدان لهذا البحث، لكونه وطني الأم وحسب، وإنما أيضاً لأن لبنان بات خلال العقدين الأخيرين محطة محورية لمفاصل الصراع المحتدم في المنطقة بعوامله المتداخلة الإقليمية والدولية، وعلى نتائج هذا الصراع فوق ساحة لبنان يتوقف ليس فقط مصير هذا البلد وإنما أيضاً وإلى حد بعيد مصير المنطقة برمتها. ومن هنا تأتي الأهمية الخاصة لدراسة العلاقات السوفياتية ـ اللبنانية في هذا الوقت بالذات، لما لهذه العلاقات من تأثير في معطيات واقع ومستقبل الصراع في المنطقة.

ولبنان الذي اكتنز العديد من التجارب والعبر خاصة خلال السنوات العشر الأخيرة في ميدان علاقاته الخارجية الإقليمية والدولية، لا يمكنه إلا أن يخرج بمحصلة من تلك التجارب تشكل قاعدة علاقاته الخارجية المستقبلية. ذلك أن اللاتوازن الذي طبع علاقات لبنان الدولية وسياسته الخارجية في السنوات الفائته، والرجحان المميّز في كفة علاقاته مع الغرب

عامة والولايات المتحدة الأميركية بصورة خاصة، عادا على لبنان واللبنانيين العديد من الآلآم والمآسي التي لم يكن الاجتياح الاسرائيلي بآثاره المدمّرة إلا واحداً من أبرز عيناتها.

ومن هنا فإن البحث في تاريخ العلاقات اللبنانية ـ السوفياتية ودراستها من جوانبها كافة يشكلان المدخل العلمي الطبيعي لتطوير تلك العلاقات المستقبلي الذي لا بد وأن يسعى لبنان إليه، ليس فقط لتحقيق توازن في علاقاته الدولية إنطلاقاً من موقعه كوطن حر سيد مستقل، وإنما أيضاً لتكريس طابع اللاإنحياز في سياسته الخارجية بصورة عملية وواقعية. هذه السياسة التي يستحيل بلوغها بمعزل عن العلاقات المتكافئة مع بلاد السوفيات، ويستحيل بالتالي ضمان المستقبل الآمن والسعيد للبنان وشعبه بعيداً عن سياسة اللاإنحياز التي تحقق التوازن الفعلي في علاقات لبنان الخارجية.

ولما كانت المؤلفات اللبنانية في تاريخ العلاقات اللبنانية ـ السوفياتية معدومة باستثناء بعض الأبحاث والأعمال غير الشاملة والمجتزأة، فقد انكببت على وضع هذا الكتاب الذي آمل أن يسد ثغرة في المكتبة اللبنانية لجهة دراسة العلاقات اللبنانية ـ السوفياتية منذ انتصار ثورة اكتوبر في العام ١٩١٧، ثم قيام دولة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، وصولاً إلى العام الحالي ١٩٨٧ عام الذكرى السبعين لثورة اكتوبر والذكرى الرابعة والأربعين لاستقلال لبنان. وبين الحدثين علاقة وثيقة ولا شك وإن بدت غير مباشرة. فلولا انتصار اكتوبر، وقيام الدولة السوفياتية، وانهيار النظام الاستعماري في العالم، وسقوط الاتفاقات والمعاهدات السرية التي كشفتها سلطة اكتوبر السوفياتية، ولو لم تصمد بلاد السوفيات في حربها الوطنية العظمى، وتهزم النازية الفاشية في الحرب

العالمية الثانية، لولا ذلك لكانت حتماً صورة العالم السياسية مختلفة تماماً عما هي عليه اليوم، ولكان حتماً واقع لبنان ككيان سياسي قائم بحد ذاته مختلفاً تماماً عما هو عليه اليوم. ولربما كان لبنان ككيان جيوسياسي قد ذاب في زحمة الاطماع والمخططات الامبراطورية الاستعمارية، أو في عهدة السيطرة النازية الفاشية. كل هذه الامكانيات والاحتمالات بددها انتصار ثورة اكتوبر وقيام الدولة السوفياتية الذي كرّس واقعاً سياسياً جديداً في حياة العالم. وفي أحضان هذا الواقع ولد لبنان الكبير، ثم قامت الجمهورية اللبنانية التي سارعت بلاد السوفيات إلى الاعتراف بها ودعم استقلالها وكيانها الدولي، وأصرّت على جلاء الجيوش الأجنبية الفرنسية والبريطانية عنها ثم الأميركية فالاسرائيلية... جلاءً كاملاً غير مشروط، تكريساً لسيادتها واستقلالها وصوناً لعزتها وكرامتها.

واليوم إذ تهدد المخاطر وحدة لبنان، وتهدد أسس استقلاله وأركان بنيته وتركيبته، ألا يجدر بنا نحن اللبنانيين أن نتطلع بأنظارنا من جديد نحو البلاد الصديقة التي آزرتنا منذ البداية، لتوثيق علاقات وطننا معها وتطويرها؟ وإذا شئنا ذلك، وهذا ما تقتضيه مصلحة لبنان وشعبه، ألا ينبغي علينا التعمق في دراسة تاريخ علاقاتنا مع بلاد السوفيات بصورة موضوعية شاملة؟

إن في هذا بالذات يكمن هدف هذا الكتاب وتتحدد غايته الأساسية. آملاً أن أكون قد أوفيت البحث حقه من الموضوعية والعمق والشمول.

المؤلف

آواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧

الفصل الأول

١ ـ أمل جديد للجنس البشري

عندما قال أديب لبنان ومفكره الكبير جبران خليل جبران في الأيام الأولى لانتصار ثورة أكتوبر في روسيا عام ١٩١٧ « إنها أمل جديد للجنس البشري »، لم يكن يطلق العنان لعاطفة جياشة بقدر ما كان يستبصر بعين العبقري الثاقبة مدى الأهمية البعيدة لتلك الثورة. وعندما كتب الصحافي والمؤرخ الأميركي الشهير جون ريد في وصفه لأيام ثورة أكتوبر، « إنها الأيام العشرة التي هزت العالم »، لم يكن يعبر عن تعاطف أصيل مع الثورة ورجالها وحسب بل كان يقدّر وبدقة متناهية التأثير الهائل الذي ستحدثه الثورة المذكورة في مجرى التاريخ العالمي بأسره. وأكدت الأيام والسنوات صدق توقعات جبران وريد وسواهما من مفكري العالم ومثقفيه وكادحيه وكل أبناء الإنسانية المعذبة الذين كانت روسيا في أكتوبر ١٩١٧، محطاً لتطلعاتهم ومعقداً لآمالهم وأحلامهم بكسر طوق السيطرة الطبقية الاستعبادية ولو في بلد واحد من بلدان العالم. وانتصرت ثورة أكتوبر، فكانت الزلزال الذي دمر إحدى أضخم وأعتى قلاع السيطرة الأمبراطورية في العالم، وحمل إلى السلطة هناك ولأول مرة في التاريخ طبقات الشعب المسحوقة، يقودها تحالف العمال والفلاحين. فكانت صفحة جديدة في التاريخ الإنساني دشنت بداية عصر انهيار الاستعمار والتسلط على الشعوب من قبل دول المتروبول التي كانت حتى العام ١٩١٤ قد اقتسمت العالم فيما بينها، بحيث سيطرت كل من بريطانيا وروسيا وفرنسا، والمانيا والولايات المتحدة الاميركية واليابان[1]، على مستعمرات بلغت مساحتها ٦٥ مليون كلم مربع فيما لم تكن مساحة هذه

الدول المستعمَرة مجتمعة تزيد عن ١٦,٥ مليون كلم مربع. وسيطرت بلجيكا وهولندا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا وغيرهما من دول المتروبول الأخرى على مستعمرات بلغت مساحتها ٩,٩ مليون كلم مربع [٢]. وقد تمت عملية الاقتسام هذه نتيجة سلسلة من النزاعات والصراعات والحروب، امتدت لعشرات ومئات السنين في سياق التسابق الاستعماري للسيطرة على الأسواق ومصادر المواد الخام ونقاط التمركز الاستراتيجية وطرق المواصلات البرية والبحرية المحورية. ولم يكن ممكناً في نطاق التطور الاقتصادي الرأسمالي لدول المتروبول أن تتوقف الصراعات والحروب، بل إن مقتضيات ذلك التطور بمنحاه الاحتكاري قضت بحتمية استمرار الصراع وتجدده لإعادة اقتسام العالم والتوسع في الاستعمار على حساب الشعوب، وفي مصلحة الاحتكارات الصناعية والرأسمال الكبير في دول المتروبول.

وهذا ما حصل في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التي قال لينين: إنها حرب امبريالية من جانب الطرفين، حرب غزو ونهب ولصوصية من أجل تقاسم العالم، من أجل اقتسام المستعمرات واعادة اقتسام و « مناطق نفوذ » الرأسمال المالي [٣]...

وعلى قاعدة هذه الرؤية وهذا التوجه الاقتصادي - السياسي، كان من المحتم أن يرفع البلاشفة منذ اللحظة الأولى لانتصار ثورتهم في روسيا واستلامهم زمام السلطة فيها، شعار معاداة الحرب الإمبريالية وإخراج روسيا من ساحاتها انطلاقاً من التباين في الأساس الاقتصادي للنظام الاشتراكي الذي قامت ثورة أكتوبر في روسيا من أجل بنائه، والأساس الاقتصادي للأنظمة الرأسمالية ومجتمعاتها، والتباين بالتالي في السياسة الخارجية لكل من النظامين والمجتمعين.

إلى ذلك فإن الخروج من الحرب كان أمراً في غاية الأهمية للحفاظ على السلطة الجديدة الفتية للعمال والفلاحين، وتمكينها من التقاط الأنفاس وبناء قدراتها الذاتية. فاستمرار الحرب يهدد وجود الثورة وسلطتها بالذات ويفتح الطريق واسعاً أمام إمكانية تحقيق رغبات أعدائها في الخارج والداخل على حد سواء، هذه الرغبات التي اختزلها تشرشل وزير تموين بريطانيا آنذاك بقوله « لنخنق الشيوعية في مهدها » [٤].

لذلك كان من طبيعة الأمور ومقتضياتها المنطقية أن يأتي في رأس قائمة مهام الثورة في الأيام الأولى لانتصارها، مهمة الدخول في حالة السلام، بسبب الأوضاع الاقتصادية والعسكرية المتردية والمنهارة التي كانت روسيا قد بلغتها آنذاك، وبسبب التناقض الصارخ بين طبيعة الحرب وأهدافها من جهة وطبيعة الثورة في روسيا وأهدافها من جهة ثانية. وكانت مسألة الخروج من الحرب تعبيراً عملياً عن جوهر الثورة ومضمون سياستها الداخلية والخارجية. وهذا ما تُرجم في أول مرسوم للسلطة الثورية، مرسوم السلام الذي صاغه قائد الثورة فلاديمير إيليتش لينين وأقره مؤتمر السوفياتات (المجالس الشعبية) الثاني لعموم روسيا في اليوم الثاني لانتصار الثورة، في ٨ تشرين الثاني - (نوفمبر) ١٩١٧. فجاء مرسوم السلام ليعلن للعالم بأسره طبيعة جمهورية روسيا السوفياتية، الدولة الاشتراكية الأولى وأهدافها، في شكل نداء توجهت به الحكومة الثورية ليس فقط إلى حكومات الدول المتحاربة بل أيضاً إلى شعوبها وشعوب العالم قاطبة.

شعب لبنان ككل الشعوب التي أكتوت بنار حرب الضواري، تطلع بلهفة وأمل إلى بصيص السلام الذي لاح من روسيا، آملاً أن يحمل معه يوم الخلاص من الظلم والمجاعة اللذين عانى منها آنذاك. فلبنان الذي

كان ومنذ العام ١٨٦١ يعيش في ظل عهد « المتصرفية » (على أساس نظام « **البروتوكول** » الذي وضعته لجنة دولية مؤلفة من مندوبين عن كل من فرنسا وإنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا ووزير خارجية الدولة العثمانية فؤاد باشا، إثر حوادث الاقتتال الطائفي في العام ١٨٦٠) في حال من الهدوء والاستقرار والأمن المستتب بكفالة وضمانة ست دول أوروبية كبرى، تبدلت أحواله تماماً بعد اندلاع نار الحرب العالمية الأولى في ٣٠ تموز (يوليو) ١٩١٤، وعرف حالة من الظلم والهوان والبؤس والمجاعة والموت.

فقبل أن تدخل طلائع الجيش التركي إلى لبنان لتتمركز فيه بعد أن أعلنت الدولة العثمانية في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٤ دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا، كانت السلطات العثمانية قد قضت على نظام « البروتوكول » بالغائها في التاسع من شهر أيلول (سبتمبر) الامتيازات الأجنبية في جبل لبنان[٥] وتعيينها جمال باشا (السفاح) قائداً للجيش العثماني في المنطقة العربية، في نطاق حملة الجهاد المقدس التي أعلنها السلطان محمد رشاد ضد أعداء الإسلام محاربي دولة الخلافة.

أنشأ جمال باشا في عالية (جبل لبنان) مجلساً عرفياً وحل في آذار (مارس) ١٩١٥ المجلس الإداري اللبناني المنشأ وفقاً لنص **بروتوكول** ١٨٦٤، ونفى رئيسه حبيب باشا السعد وبعض أعضائه الآخرين، وعدداً من أعيان لبنان وأدبائه وزعمائه الروحيين إلى الأناضول وغيرها. وساق الآلاف من اللبنانيين في حملات التجنيد الإجباري « سفربرلك » حيث قضى المئات منهم، وأعدم العشرات من أبناء لبنان المشكوك بولائهم.

هذه كانت تباشير بداية الحرب في لبنان. ولم تمضِ سنتان على حال

الظلم والقهر هذه حتى كان ضيق العيش قد بلغ أشده على اللبنانيين، بعد انسداد أبواب البحر وتوقف الأعمال واكتساح الجراد لكل ما على أرض لبنان من أخضر ويابسٍ ناهيك عن مصادرة المحاصيل وتجنيد الفلاحين والحرفيين. فحلت المجاعة وانتشرت الأمراض والأوبئة. ومات أكثر من ١٠٠ ألف لبناني جوعاً وقهراً ومرضاً وغدا لبنان الأخضر خراباً يباباً. وصرخ جبران خليل جبران: مات أهلي في لبنان.

« في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأب أبناءه والأم أطفالها وكلنا جائعون لاغبون متضورون. أما الموت فلا يجوع ولا يعطش فهو يلتهم أرواحنا وأجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشبع ولا يرتوي »[٦].

ومن وسط حال البؤس والمجاعة والموت والدمار هذه، تطلع اللبنانيون بلهف وشوق إلى يوم يرتفع فيه عنهم سيف الظلم وكأس الموت، يوم تحل فيه نهاية حرب الضواري الظالمين. وبلغهم نداء السلام الآتي من بلاد البلاشفة وانتظروا بشغف شديد يوماً يحل فيه السلام ويخرجون معه من نفق الظلم والمجاعة وحصار الموت... وفيما بدأت عملية تقهقر الجيش التركي وانسحابه من لبنان، لتحل محله جيوش الحلفاء الإنكليز والفرنسيين والمتطوعين العرب في جيش الحسين أمير مكة تدخل في مرحلة التحقق العملي، سمع اللبنانيون كما سواهم من شعوب الشرق نداءً جديداً جاءهم من بلاد السوفيات وثورة أكتوبر:

« أسقطوا هؤلاء الضواري، مستعبدي بلدانكم. والآن حيث تدوس الحرب والتخريب دعائم العالم القديم، ويلتهب العالم كله غضباً ضد المستعمرين المغتصبين وتتحول كل شرارة غضب إلى لهيب ثورة، ويهب حتى مسلمو الهند

المستعبدون والمعذبون تحت نير الأجانب إلى الثورة ضد مستعبديهم، لا يمكنكم أن تسكتوا. فلا تضيعوا الوقت وتخلصوا من مغتصبي أراضيكم المزمنين! لا تسمحوا لهم بنهب أوطانكم! عليكم أن تكونوا أنتم أنفسكم أصحاب بلدانكم! عليكم أن تنظّموا حياتكم وفق مشيئتكم! ولكم الحق في ذلك لأن مصيركم في أيديكم...» (٧).

هذا النداء الذي توالت اصداؤه في أرجاء الشرق عامة، تناقلته الأيدي في لبنان واعتبره الناس رسالة إلى كل الوطنيين، ودعوة صريحة إلى النضال ضد المستعبدين القدامى والمستعمرين الجدد... وقبل أن تصل حرب الضواري إلى نهايتها، كانت حكومة البلاشفة قد شرعت ابتداء من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ وحتى شباط (فبراير) ١٩١٨، في نشر سبعة أعداد من مجموعة الوثائق السرية المستقاة من أرشيف وزارة الخارجية السابقة، ضمت ما يربو على مئة معاهدة وغيرها من الوثائق السرية التي كانت معقودة بين روسيا القيصرية وغيرها من الدول الاستعمارية والتي تقتسم بموجبها أراضي الغير فيما بينها. وكانت الأراضي الداخلة في بنية الأمبراطورية العثمانية الآيلة إلى المغيب، (وضمنها لبنان) الغنية بالخامات والمهمة من الناحية الاستراتيجية، هي اللقمة السائغة الأكثر إثارة لشهوات المستعمرين. وكانت لندن تعقد الأمل على حيازة وادي الرافدين وعلى تثبيت أقدامها في فلسطين والجزيرة العربية. بينما كانت فرنسا تصبو إلى السيطرة على لبنان وسوريا وجنوب تركيا ـ قيليقية ـ وقد سارعت الحكومة الفرنسية بعد دخول قواتها إلى لبنان، إلى تعيين مندوبها السامي فيه. وفي الجهة الاستعمارية المقابلة كانت المانيا وحليفاتها تجاهر علناً بأنها لن تسمح باستبعادها عن عملية اقتسام العالم، واستمرت أكثر من عام مفاوضات بين برلين وفيينا وروما حول مسألة اقتسام

ممتلكات الأمبراطورية العثمانية.

لقد كشفت الحكومة السوفياتية في روسيا أمام شعوب العالم عامة والشرق خاصة، اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية التي عقدت في شهر آذار (مارس) ١٩١٦ بين باريس ولندن، والتي خططت بموجبها بريطانيا وفرنسا لاقتسام الشطر الآسيوي من أراضي الأمبراطورية العثمانية فيما بينهما على النحو الآتي:

المنطقة الزرقاء: تضم كلاً من غرب سوريا ولبنان وقيليقية وجزءاً من جنوب شرق الأناضول، وتسيطر عليها فرنسا.

المنطقة الحمراء: تضم جنوب ووسط العراق وميناءي حيفا وعكا وتسيطر عليها بريطانيا.

المنطقة البنية: الجزء المتبقي من فلسطين تقرر وضعه تحت إشراف دولي.

المنطقة أ: شرق سوريا وولاية الموصل، مجالاً للنفوذ الفرنسي.

المنطقة ب: الأراضي الواقعة وراء نهر الأردن والشطر الشمالي من ولاية بغداد، مجالاً للنفوذ البريطاني.

وقد أنضمت إليها روسيا القيصرية في الشهر التالي بشخص وزير خارجيتها رازانوف وحصلت بموجب الاتفاق الثلاثي على جزء من كردستان الرازح تحت الاحتلال العثماني.

وبإقدام الحكومة الثورية في روسيا على نشر هذه المعاهدة السرية الخطيرة لاقتسام المنطقة وإعلانها تخليها عن سياسة روسيا القيصرية الإمبريالية وعن المستعمرات الموعودة بها في كردستان، كُشف القناع عن حقيقة كل الوعود التي كانت كل من بريطانيا وفرنسا قد قطعتها للعرب

(رسائل حسين ـ ماكماهون)، والتي حملت تعهداً بإعطاء العرب استقلالهم وحق تقرير المصير... وتأكدت من جديد صحة كلام لينين حول طبيعة الحرب القائمة على القرصنة والنهب واهدافها، وخاصة بعدما نشرت الصحافة العربية في كل من بيروت والقاهرة الوثائق السرية التي كشفت عنها السلطة السوفياتية، فكان ذلك بمثابة النور الذي أضاء الطريق أمام الشعوب العربية وخاصة في سوريا ولبنان للنهوض في وجه نوايا المستعمرين ومخططاتهم التي تكشفت أكثر فأكثر بقرار المفوض السامي الفرنسي غورو اعتقال مجلس إدارة جبل لبنان ثم إصداره الأوامر إلى القوات الفرنسية بالزحف نحو دمشق وإنهاء الحكم العربي فيها وتقسيم سوريا إلى خمس دويلات.

وأمام ممارسات المستعمرين وتنكرهم للوعود والمبادىء التي سبق لهم أن أعلنوها، إنكشفت حقيقة ما كانوا قد أعلنوه من شعارات حول الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير. وتأكد في لبنان ودنيا العرب الفرق الجوهري الكبير بين سياسة الغرب الاستعماري وتوجهاته وسياسة السلطة السوفياتية الفتية في روسيا وتوجهاتها، واستعادت الذاكرة نداء لينين إلى شعوب الشرق في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ والذي جاء فيه:

«يا مسلمي الشرق من فرس وأتراك وعرب وهنود، وجميع من كانت أرواحهم وأملاكهم وحريتهم وأوطانهم خلال مئات السنين مادة للتجارة يمارسها وحوش أوروبا الجشعون وجميع من يريد تقسيمهم المغتصبون الذين بدأوا هذه الحرب.

إن الاستعباد لا ينتظركم من جانب روسيا وحكومتها

الثورية بل من جانب ضواري الاستعمار الأوروبي الذين حولوا أوطانكم إلى مستعمرات ينهبونها»[٨].

وها هم «الحلفاء» الذين حلوا في لبنان بعد الأتراك، ينفذون مخططاتهم في السيطرة والهيمنة والتجزئة. ويكرسونها رسمياً في معاهدة صلح سيفر عام ١٩٢٠ ومعاهدات فرساي. ثم بإعلان مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٣ وضع لبنان وسوريا تحت سلطة الانتداب الفرنسي وفلسطين والعراق تحت سلطة الانتداب الإنكليزي.

الحكومة السوفياتية أدانت كل هذه المعاهدات ونظام الانتداب الاستعماري. وجاء في المذكرة التي قدمها ممثل روسيا السوفياتية الاتحادية في لندن ل. ب. كراسين إلى كيرزن في ١٨ أيار (مايو) عام ١٩٢٣: «تخضع فلسطين وسوريا (إقرأ لبنان أيضاً ـ المؤلف) الآن لما يسمى الانتداب. إن الحكومة الروسية لا تعترف بهذا الشكل الجديد من الوضع الدولي»[٩]. وفي مذكرتها المؤرخة في ١٨ أيار (مايو) عام ١٩٢٣ والمرسلة إلى حكومات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أعلنت الحكومة السوفياتية عدم اعترافها «بنظام الانتداب» الذي يقضي بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين تحت الانتداب الإنكليزي[١٠]. وبعد انضمام الاتحاد السوفياتي إلى عضوية عصبة الأمم في العام ١٩٣٤، أعلن المندوب السوفياتي لدى مجلس العصبة أن نظام الانتداب غير مقبول بالنسبة للاتحاد السوفياتي، وأنه لا يتحمل أية تعهدات نابعة منه[١١]، وكشف الاتحاد السوفياتي الجوهر التوسعي لنظام الانتداب الذي كرّس في الواقع تحت ستار عصبة الأمم. وفي ٨ أيار (مايو) ١٩٢٧، في مؤتمر جنيف الاقتصادي، طلب الوفد السوفياتي تصفية نظام الانتداب وسحب القوات الأجنبية من الأراضي المحتلة،

والاعتراف بحق الشعوب في تقرير المصير [١٢]. وفي مؤتمر سان فرانسيسكو الذي عقد في حزيران (يونيو) ١٩٤٥ أدخل في النص النهائي لميثاق الأمم المتحدة بناء على مبادرة الوفد السوفياتي، بند يلغي نظام الانتداب الذي أقامته عصبة الأمم، وكان هذا يعني بالنسبة للبنان، الاعتراف الدولي بسيادته.

وتأكد اللبنانيون وسواهم من العرب مدى الفرق الجوهري بين السياسة السوفياتية وسياسة الدول الاستعمارية، وترسخت أكثر فأكثر تأثيرات ثورة أكتوبر وصدق توجهاتها. فبعد أن فضحت كل المعاهدات والاتفاقات السرية ها هي تعلن رفضها لنظام الانتداب والوضع الدولي الذي نشأ عنه. وها هي تناضل بثبات دفاعاً عن مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بعيداً عن سلطة المستعمرين ووصايتهم وسيطرتهم.

وضعت «لجنة توحيد العرب»، في أواخر العام ١٩٢٠، تقريراً جاء فيه: «يعتبر العرب حكومة لينين وأصدقاءه والثورة العظيمة التي قاموا بها لتحرير الشرق من نير الطغاة، قوة عظيمة قادرة على منحهم السعادة والرفاهية. إن سعادة العالم كله وأمنه يتوقفان على تحالف العرب والبلاشفة». وخُتم التقرير بالعبارات الآتية:

«عاش لينين ورفاقه والحكم السوفياتي، عاش تحالف جميع المسلمين والبلاشفة» [١٣].

هكذا تدرج شعبنا في تفهمه وتأييده لثورة أكتوبر، من مجرد العطف المكتوم إلى التأييد المعلن بملء الأفواه، وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى أن كلمة «بولشفيك» كانت في بداية الأمر من الكلمات «الخطيرة» التي تثير الرعب في نفوس الإقطاعيين وسيوف السلطان، والناس يخشون

حتى مجرد النطق بها خوفاً من غضب السلطان وعيونه. فكيف انتشرت الكلمة «الخطيرة» في لبنان، وكيف تداولها الناس وبأي حيلة ودهاء؟

عمر فاخوري أديب لبنان، سجل للأجيال من بعده حكاية ظهور كلمة «البولشفية» في لبنان في السطور الآتية:

«قص علي زريق السماك حكاية خلاصتها أن البحر في الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى) كان مقفلاً لا يأتي منه شيء. لكن نمي إلى الصيادين وحدهم، أن قوماً يدعون بالبلشفيك، ثاروا على السلطان وأخلّوا بالنظام... ولم يكن يجرؤ مخلوق عندئذ على ذكر اسمهم... لكن في تلك المدة ظهر عند هذا الساحل صنف من السمك لا نعرفه لا عهد لنا به من قبل... سمك غريب وقد سميناه بالبلشفيك، كي نفشي السر» [١٤].

أجل، لقد كان صيادو السمك هم أول من حمل اسم «البلشفيك» ونطق به في لبنان، إنها عفوية التعاطف الطبقي بين الكادحين على اختلاف جنسياتهم. وانتشر أسم «البلشفيك» وثورتهم حتى غدا على كل شفة ولسان بفضل الكتاب الطليعيين: جبران ونعيمة، والريحاني وسواهم الذين رأوا عظمة ثورة أكتوبر ليس فقط في كونها محاولة للقضاء على البؤس وإزالته، وإنما في كون عظمتها متأتية من أنها أشعرت الإنسان البائس ببؤسه وعبوديته، وأشعرته بأن بؤسه ما هو إلا نتيجة استغلال الآخرين له واستعبادهم إياه، فحولت تمرداته العفوية والطفولية عبر التاريخ إلى حركة منظمة هادفة تسعى عبر الثورة إلى الاشتراكية التي هي تجسيد لحلم يمتزج في لحم ودم الروسي والصيني والفرنسي والعربي الذين يقاتلون ضد الظلم والاستعباد والقهر والاستغلال...

جبران خليل جبران، الأديب والمفكر اللبناني الكبير الذي صاول الإقطاعية اللبنانية وحدد مكانها وطابعها الحقيقيين في تاريخ لبنان، وفضح تحكمها مع حلفائها السياسيين بأقدار الشعب اللبناني، راى في انتصار ثورة أكتوبر أملاً جديداً للجنس البشري، إنطلاقاً من رؤيته لقروح العبودية وبلائها وظلمها. وكتب جبران من مقر إقامته في نيويورك معقباً على انتصار ثورة أكتوبر، كتب يقول:

« إن أبواب السماء مفتوحة الآن، وليست على الأرض قوة تستطيع أن تسدها. إن روح الأمس قد أنقضت، وصوت الأمس لم يعد أكثر من صدى... إن هذا كله مدهش جداً يا ماري. وأنا سعيد لأنك ولأني أنا هنا نرى هذا يتبدل »...

« إن نسيم الربيع في الهواء الآن، وجميع القياصرة وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف ».

وفي ١٨ آذار (مارس) ١٩١٧ كتب جبران مستشرفاً آفاق المستقبل في ضوء انتصار أكتوبر متنبئاً بانبثاق فجر جديد فوق عالم جديد. كتب يقول:

« إن الحرب العظمى قد بدأت الآن تكشف عن مغزاها الحقيقي. وما التبدل في روسيا إلا البداية، وستحذو حذوها بلدان أخرى. وإني أعتقد أنه في غضون وقت قصير، خمس وعشرين سنة مثلاً، سيخلق وعي الشعوب حكومات تعمل من أجل الشعوب. إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبار فتي ».

ويطلق جبران أخصب بنات أفكاره إلى أقصى حدود الاستبشار والتعويل على ثورة أكتوبر فيقول: « إن يسوع المسيح لو عاش في أيامنا

هذه لوجب أن يكون بولشفيكيا أو اشتراكياً »[١٥].

أمين الريحاني، فيلسوف الفريكة، الأديب والمفكر اللبناني الكبير لم يكن استقباله لانتصار ثورة أكتوبر مختلفاً في فرحة واستبشاره عن فرح زميله ورفيقه جبران واستبشاره. فكتب قائلاً:

« أشرقت شمس الديمقراطية في روسيا وستنير الشرق أجمع... الأمم تتمخض بالثورات، وغداً يتحقق أجمل أحلام الإنسان. فهلا نهضنا مثل سائر الشعوب! هل ساعدنا طاقتنا في تحقيق هذا الحلم الجميل؟ »[١٦].

هكذا يطرح الريحاني رأيه بكل شمولية وعمق مستحثاً شعبه للنهوض وأخذ مكانته في نطاق الثورات التي منها تتمخض الأمم وعبرها تتحقق أجمل آمال الإنسان. وتطلعات الريحاني هذه سيأتي عليها بإسهاب وتدقيق في بحث خاص وضعه بالإنكليزية « البلشفية » وأصدره في كتاب بعث بنسخة منه إلى الكاتبة اللبنانية مي زيادة التي ردت في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٠ برسالة ذيلتها بتوقيع « إيزيس » قالت فيها:

« كتاب البلشفية الذي أتحفتني به جاء في حينه وأعجبت به إعجابي بجميع مظاهر فكرك »[١٧].

وها هو أديب لبنان ميخائيل نعيمة وقد كان آنذاك أحد جنود الجبهة الغربية في الحرب، ها هو من موقعه في إحدى القرى الفرنسية وفي ليلة راس السنة للعام ١٩١٩، أي بعد عام ونيف من انتصار ثورة أكتوبر، يكتب في مذكراته الملحوظة الآتية:

« يبدو لي أن الحرب التي شهدنا نهايتها منذ أمد قريب لن تكون غير التوطئة لحرب جديدة. بل إن هذه الحرب قد

ابتدأت. إنها حرب العبد ضد سيده، وحرب المظلوم ضد ظالمه. فأسياد العالم اليوم لن يلقوا سلاحهم ما دام في العالم محرومون يطالبون بحقوقهم بلسان «البروليتاريا»... فكري وقلبي يدفعانني بالتدريج إلى «اليسارية» المتطرفة. ولكنني لا أبوح بذلك لأحد. الجندي الأميركي لا تشغله على الإطلاق مشكلات الانسانية الكبرى. حياتي في الجيش تحترق احتراق الشمعة...»[١٨].

هذه الكلمات التي سجلها ميخائيل نعيمة عندما كان جندياً في المعسكر الغربي، سيرددها ميخائيل نعيمة الكاتب والمفكر اللبناني الإنساني النزعة بوضوح أكبر وجلاء أوضح في تحديده لمفهوم الحرية ومصدر الحرب الذي يكمن في الجشع والنفاق والخداع والتهافت على استعباد أكبر عدد من الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها. وسنجد في كتابات نعيمة اللاحقة، كما في كتابات جبران والريحاني وسواهما من عباقرة الأدب والفكر في لبنان الكثير الكثير من نفحات أكتوبر والنهر التحرري الذي أطلقه في العالم. فهذا النهر على حد تعبير نعيمة «لم يعد منقطعاً عن المسير ولم يعد منثنياً عن الخرير، إنه الحياة تدب في الإنسانية المتجددة»[١٩].

ولا يختلف عن ذلك موقف الأدباء والمفكرين اللبنانيين الذين كانوا يقيمون في مصر، أمثال فرح أنطون ونقولا حداد وفؤاد الشمالي ورفيق جبور وسواهم. ففي مؤلفاتهم وكتاباتهم في مجلات «المقتطف» و«الهلال» و«الزهور» وغيرها ظهرت واضحة ملامح طبيعة حركة العصر الجديد الذي دشنته ثورة أكتوبر. وهكذا فإن أقلام كبار أدباء لبنان وكتابه ومفكريه كانت أول من حمل إشعاعات أكتوبر واستبشر بنورها الذي سينير الشرق بأسره. ولم يقتصر الأمر على مجرد استشراف ملامح العصر الجديد من خلال نور أكتوبر وإشعاعاته، بل إن إبداع نخبة

أدباء لبنان وطليعتهم واكب النضال اللاحق لبلاد السوفيات وثورتهم سواء في كفاحها ضد الثورة المضادة في الداخل أم ضد التدخل العسكري من الخارج، وبعد ذلك واكب عملية بناء المجتمع الجديد لا سيما بعد قيام دولة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية في العام ١٩٢٢. فشكل كل ذلك الأرض الخصبة التي نمت في أحضانها صداقة شعبنا لبلاد السوفيات التي انتظمت لاحقاً في «جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي» وجمعية «التعاون الثقافي بين لبنان والاتحاد السوفياتي» فضلاً عن العلاقات الدبلوماسية الكاملة التي أقيمت بين البلدين في العام ١٩٤٤. أما كيف نمت وتطورت علاقة شعبنا ووطننا مع بلاد السوفيات فهذا ما سنرى تفاصيله في الأقسام والفصول اللاحقة.

هوامش

(١) تسلسل أسماء الدول المذكورة ورد تبعاً لمساحة مستعمراتها من الأكبر حتى الاصغر.

(٢) ف ـ لينين «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» ص.١٠٩ ـ دار التقدم ـ موسكو.

(٣) لينين: الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية. مرجع سابق. ص ١٠٨.

(٤) ونستون تشرشل كان في العام ١٩١٧ وزيراً للتموين في بريطانيا، ثم أصبح في العام التالي وزير الحرب والطيران، وهو الذي نظم حرب التدخل ضد السلطة السوفياتية الفتية، وقد أجبره فشل تلك الحرب على ترك الوزارة والحكم عام ١٩٢١ واستقال من حزب الأحرار الذي كان أحد أركانه وانضم إلى حزب المحافظين وبقي بعيداً عن الحكم ثلاث سنوات.

(٥) وفقاً لنص نظام البروتوكول كان لبنان يقتصر على جبل لبنان المؤلف من الأقضية السبعة الآتية: جزين ـ الشوف ـ المناصف ـ المتن ـ كسروان ـ الكورة ـ زحلة. ولم تدخل في نطاقه مدن الساحل: بيروت ـ طرابلس ـ صيدا ـ صور. ولا أقضية الداخل: راشيا ـ وادي التيم ـ حاصبيا ـ مرجعيون.

(٦) جبران خليل جبران: المؤلفات الكاملة. ص ٤١٧. دار صادر بيروت.

(٧) من نداء الحكومة السوفياتية إلى جميع المسلمين الكادحين في روسيا والشرق الصادر بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧.

(٨) من نداء الحكومة السوفياتية إلى جميع المسلمين في روسيا والشرق - مرجع سابق.

(٩) مجلة «المدار» السوفياتية. عدد ٢ شباط (فبراير) ١٩٨١.

(١٠) من أرشيف الخارجية السوفياتية لسنة ١٩٢٣.

(١١) من أرشيف الخارجية السوفياتية لسنة ١٩٣٤.

(١٢) جريدة «البرافدا» ١٠ أيار (مايو) ١٩٢٧.

(١٣) مجلة «المدار» السوفياتية - ٢ شباط (فبراير) ١٩٨١.

(١٤) عمر فاخوري: الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية - مقال في مجلة «الطريق» اللبنانية. نيسان - أيار ١٩٥٩.

(١٥) كل أقوال جبران الواردة أعلاه لم تؤخذ من مصادرها الأصلية بل من كتاب «الرفاق» لمجموعة مؤلفين لبنانيين. ص. ١٦ - ١٧ - ١٨. بيروت دار الفارابي (١٩٨٤).

(١٦) رسائل أمين الريحاني. ص ١٦٨ - منشورات دار الريحاني - بيروت.

(١٧) الريحاني ومعاصروه: رسائل الأدباء إليه. ص ١٦٨ - منشورات دار الريحاني - بيروت.

(١٨) ميخائيل نعيمة: سبعون - حكاية عمر - جزء ٢ - ص ١٢٧ - دار صادر - بيروت ١٩٦٠.

(١٩) كتاب الرفاق - مرجع سابق - ص ٢١.

٢ - علاقات كنسية روسية - لبنانية قديمة ومعاصرة

في سياق عرض الصلات غير الحكومية وغير الرسمية بين لبنان وبلاد السوفيات لا بدّ من التطرق إلى جانب هام يتمثل في العلاقات بين الكنيسة الإنطاكية (وكنيسة لبنان الأرثوذكسية إحداها) والكنيسة الروسية. فالعلاقات بين الكنيستين عريقة وقديمة جداً. ومن الأهمية بمكان أن نخصص هذا القسم لتبيان تاريخ تلك العلاقات وطبيعتها ومكوناتها قبل انتصار ثورة أكتوبر وبعدها. ولا بد في بداية الأمر من العودة إلى وقائع التاريخ القديم حيث اعتبرت المجامع المسكونية أن الكنائس المستقلة هي الآتية تحديداً: رومية القديمة، القسطنطينية، رومية الجديدة، الإسكندرية، إنطاكية، القدس. وعندما سقطت رومية القديمة من الكنيسة الجامعة تأسست في الشرق كنيسة أرثوذكسية مستقلة جديدة هي الكنيسة الروسية التي أصبحت بعد سقوط القسطنطينية حامية الأرثوذكسية والمدافعة عنها. ولقد زرع الأرثوذكسية في روسيا الرعاة الشرقيون أصحاب التقوى والصلاح، وأعظمهم القديس ميخائيل، أول متروبوليت على كييف. ويقول المؤرخ بلاطونوف إننا مدينون جميعا للقديس ميخائيل أول من أوجد المسيحية بيننا وأول من بنى ديراً على أرضنا. والقديس ميخائيل هو من سوريا وتلميذ للبطريرك الإنطاكي يوحنا. فالعلاقة إذن بين الشرق والكنيسة الروسية تعود إلى ظهور الكنيسة في روسيا. وبعد سقوط القسطنطينية تعلقت أنظار الأرثوذكس بموسكو وكانوا ينظرون إليها وكأنها رومية ثالثة. وأول من زار روسيا من البطاركة الشرقيين كان البطريرك يواكيم ضو في العام ١٥٨٥، وقد سعى

هناك لجمع ما يفي ديون البطريركية (٨٠٠٠ غرش ذهبي) وإلى تأسيس السلطة البطريركية الروسية. وقد نجح البطريرك يواكيم بعد عودته من روسيا في إقناع البطريرك القسطنطيني آرميا بالموافقة على تأسيس بطريركية في موسكو. وفي العام ١٥٨٨ سافر البطريرك آرميا إلى موسكو وأعلن هناك: «لقد أخبرنا أخونا البطريرك الانطاكي يواكيم عن مطلبكم الصالح ونحن جميعاً قررنا أنه من الحسن ولمجد المملكة الروسية أن تكون البطريركية»[١]. وفي العام التالي (١٥٨٩) انتخب المجمع المقدس الروسي أول بطريرك على الكنيسة الروسية البطريرك أيوب الذي كان متروبوليت موسكو وكل روسيا. وبعد تأسيس الكرسي البطريركي في روسيا توثقت علاقات الكنيستين الإنطاكية والروسية. وقدمت الكنيسة الروسية المساعدات للكنائس الأرثوذكسية في الشرق خاصة عندما كان الأتراك يفرضون الضرائب الباهظة على الأساقفة والرهبان والأديرة والمؤمنين. وتواصلت زيارات البطاركة الإنطاكيين إلى روسيا فزارها في العام ١٦٥٢ البطريرك مكاريوس وعاد منها بما يكفي ويزيد لسد الديون المتراكمة على البطريركية. ودخلت الكنيستين مرحلة جديدة في مطلع القرن الثامن عشر بعد وفاة البطريرك الروسي أدريانوس وقرار بطرس الأكبر بأن يكون للكنيسة الروسية «سلطة مجمعية عليا». وتأسس هذا المجمع وبدأ ممارسة مسؤولياته في مطلع العام ١٧٢١. وقد كتب جميع البطاركة الشرقيين مهنئين المجمع. ومما جاء في رسالة البطريرك الإنطاكي اثناسيوس: «إن المجمع المقدس للكنيسة الروسية هو بالنسبة لنا الأخ بالمسيح وله السلطة والفعالية كما هي للكراسي الأربعة الرسولية»[٢]. وبعد تأسيس المجمع المقدس الروسي توطدت العلاقات الأخوية الودية بينه وبين الكرسي الإنطاكي، الذي نظر إلى الكنيسة الروسية باعتبارها الشقيقة الكبرى التي تقدم له يد العون والمساعدة. ونتيجة هذه العلاقات

الوطيدة تأسس الأمطوش الإنطاكي في موسكو سنة ١٨٤٨. وأول من ترأس الأمطوش مطران بعلبك المتروبوليت نيوفيطوس الحلبي الذي توفي في موسكو ودفن فيها عام ١٨٥٣. وبقي الأمطوش في عهدة الكرسي البطريركي الإنطاكي حتى العام ١٩٢٠. حيث تسلمته الكنيسة الروسية حتى العام ١٩٤٨ عندما جرت إعادته الى الكنيسة الإنطاكية نتيجة مباحثات اجراها البطريرك الإنطاكي الكسندروس الثالث طحان مع بطريرك موسكو المنتخب لتوه الكسي[٣]. وقد تعاقب على رئاسة الأمطوش بعد إعادة تسلمه معتمدون بطريركيون للكرسي الإنطاكي كان أولهم الأسقف باسيليوس سماحه. وأخيرهم وليس آخرهم (الرئيس الحالي للأمطوش) الأرشمندريت نيفن صيقلي. وقد أتيحت لي خلال زيارة لموسكو زيارة الأمطوش والتعرف على معالمه خاصة الكنيستان العائدتان له. الأولى على أسم رئيس الملائكة غفرئيل ويعود تاريخها إلى عهد بطرس الأكبر وتقع وسط مدينة موسكو وهي على درجة من الروعة والجمال حملت الروس على تسميتها «لؤلؤة موسكو». والكنيسة الثانية التابعة للأمطوش الإنطاكي هي كنيسة القديس الشهيد تيودوروس قائد الجيش.

لقد لعب الأمطوش الإنطاكي في موسكو على امتداد تاريخه دوراً أساسياً في تعزيز العلاقة بين الكنيستين الروسية والإنطاكية، وكان من الطبيعي جداً أن تتأثر هذه العلاقة بحدث قيام ثورة أكتوبر وسقوط الحكم القيصري والحكومة البورجوازية المؤقتة. فالكنيسة الروسية كانت في عهد القياصرة جزءاً من مؤسسات الدولة وأحد عناصر الإقطاع المهيمنة في روسيا. ولقد تبدل الوضع بصورة جذرية مع قيام ثورة أكتوبر والتغييرات الجذرية التي طرأت على وضع الكنيسة الروسية الحقوقي والإجتماعي.

فمن الأعمال الأولى للسلطة الشعبية في روسيا التي انبثقت عن ثورة أكتوبر بعد مرسومي السلام والأرض وتنظيم وبناء إدارة الدولة وجهازها الجديد وتشكيل الجيش الأحمر وتأميم البنوك والمؤسسات الصناعية الكبرى ومصادرة أراضي الإقطاعيين، كان الغاء امتيازات الكنيسة وفصلها عن الدولة، وفصل المدرسة عن الكنيسة وإعلان حرية المعتقدات التامة. « يحق لكل مواطن أن يدين بأي دين أولا يدين بأي دين ». فكان من الطبيعي جداً أن ينعكس هذا التبدل في أوضاع الكنيسة الروسية على علاقاتها الخارجية. فهل انحلت علاقاتها مع الكنيسة الإنطاكية وهل منعت السلطة الثورية في روسيا الكنيسة الروسية من متابعة علاقاتها التاريخية الروحية والثقافية مع الكنائس الأرثوذكسية عامة والكنيسة الإنطاكية بصورة خاصة؟ وكيف استقبلت الكنيسة الإنطاكية المرسوم السوفياتي الذي ألغى امتيازات الكنيسة الروسية وفصلها عن الدولة؟

لقد علق الأرشمندريت جورج خضر (مطران جبل لبنان حالياً) على ذلك بقوله:

« أما في بيزنطية وفي روسيا بعد بطرس الأكبر فكانت تجربة انصياع الكنيسة للدولة، بيد أنه لم تكن هناك نظرية تدعم الانصياع. واليوم زالت دار النصرانية ولعل للعناية شأناً في ذلك لتعود المسيحية إلى ما كانت عليه قبل قسطنطين معتقة من كل نير يفرض عليها ومن كل نير تفرضه، وفصلت الكنيسة عن الدولة فانطلقت بذلك إلى حيويتها وحيثما استبقيت في ظل حماية الدولة كما هي الحال عندنا اختلط في ذهنها الإيمان والمصلحة، العابر والسرمدي، وفقدت إدراكها »(٤).

وقال بطريرك موسكو وكل روسيا بعد انتصار ثورة أكتوبر: « لقد

حان الوقت ليفهم المؤمن النظرية المسيحية بأن مصير الشعوب هو من الله واقتبال كل ما جرى لأنه تعبير من إرادته تعالى. والحكم السوفياتي هو حكم العمال والفلاحين لهذا فهو حكم دائم وغير متزعزع »(٥).

« وبعدما تحررت الكنيسة الروسية من الهيمنة والامتيازات، امتلكت استقلالها الروحي والحقيقي. « فهي ككل جماعة بشرية تنظيم منظور، ولكنها من حيث رسالتها وأسلوب عملها، ليست ولا تريد أن تكون دولة في دولة كالكنيسة الكاثوليكية، ولا منظمة موازية للدولة كما كان الحال في بيزنطية القديمة، ولا مؤسسة من مؤسسات الدولة كما كانت في روسيا القيصرية. إن جميع هذه الأساليب للعلاقة مع الدولة بعيدة عن الكنيسة الأرثوذكسية التي توحد الأحياء في الأرض مع الأحياء في ملكوت السماوات، والتي هي عبارة عن عائلة موحدة لأبينا الذي في السماء.

ولما كانت الأرثوذكسية الروسية عائلة مسيحية تربط أعضاءها وشائج المحبة المتبادلة لا يمكن أن تثير في الدولة السوفياتية أي ريبة سياسية كما أنها لا تخشى هي نفسها أي تضييق لحريتها الروحية »(٦).

وحول نفس الموضوع رأى الأرشمندريت جورج خضر في سعي الأرثوذكسية للتحرر من السياسة، سعياً لنيل استقلالها الروحي. ذلك أن ربط الكنيسة بعجلة كيان زمني يجعلها متغنية بامجاد مفقودة، متحسرة على إكرام لم يُسد لها، متململة من أن السوى أهملها. ولا يهمل المرء إلا على الصليب (٧).

والكنيسة الروسية التي هي بابنائها من لحم شعبها ودمه، وقفت مناصرة لإرادة الشعب التي هي من إرادة الله في تحطيم الحكم الظالم وبناء مجتمع

العدل والمساواة. ووقفت مع شعبها في سني الحرب الوطنية العظمى واستعادت سلطتها البطريركية وانتخب المتروبوليت سيرجيوس بطريركاً على موسكو وكل روسيا. وتواصلت العلاقات الروحية بينها وبين الكنيسة الإنطاكية. وقام البطريرك الإنطاكي غريغوريوس حداد بزيارة لروسيا في العام ١٩٢٧ قال بصددها: «لقد أسعدنا الحظ وسافرنا السفرة الوحيدة خارج وطننا سوريا إلى روسيا المحبوبة جداً، حيث أقمنا علاقات شخصية مع الكنيسة الروسية الأرثوذكسية العزيزة جداً على قلبنا، والتي لها علاقات مع كنيستنا منذ أقدم العصور، علاقات الإيمان والسلام والمحبة الأخوية» [٨]. وتعتبر رسائل البطريرك الإنطاكي غريغوريوس حداد المحفوظة لدى البطريركية الروسية ينبوعاً لا ينضب للروح العربية الحقيقية والمحبة وعرفان الجميل، وتعتبر مرجعاً ثميناً في تاريخ العلاقات بين الكنيستين.

ولقد تجلت العلاقات التاريخية بين الكنيستين الإنطاكية والروسية باسمى معانيها خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، حيث وقفت الكنيسة الإنطاكية إلى جانب نضال شعب شقيقتها الكبرى عملاً بقول بولس الرسول: «إحملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح». وقد أقام جميع البطاركة الشرقيين والكنائس الأرثوذكسية في سوريا ولبنان الصلوات مبتهلين إلى الله أن ينصر أشقاءهم في روسيا على النازية والفاشية، وأرسل بطاركة الشرق رسائل الدعم والتأييد إلى شعب روسيا المكافح وقادته السياسيين والعسكريين والروحيين. ومما جاء في رسالة البطريرك خريستوفوروس بطريرك وبابا الإسكندرية:

«إنَ الكنيسة الرسولية الأرثوذكسية في الإسكندرية تفتخر بالانتصارات المتواصلة للجيش السوفياتي الذي سيحطم تحطيماً كاملاً قوى

جهنم الهائلة. قلبياً أهنئكم والكنيسة الأرثوذكسية الروسية وإننا نبارك جهادها الذي سيتكلل بالنصر النهائي».

وتقديراً لدور وجهود الكنيسة لبت الحكومة السوفياتية في العام ١٩٤٣ طلب الكنيسة واستجابت لرغبتها في الدعوة إلى مجمع لانتخاب بطريرك لها. وانعقد المجمع لاحقاً وانتخب المتروبوليت سرجيوس بطريركاً لموسكو وكل روسيا، الذي توفي قبل انتهاء الحرب، فانعقد المجمع ثانية وانتخب متروبوليت لينينغراد الكسي سيمنسكي قائمقاماً بطريركياً. وبعد إحراز النصر على المانيا وتحرير شعوب أوروبا من نير الفاشية أنعقد المجمع الروسي المسكوني وأقر قانون إدارة الكنيسة الروسية الأرثوذكسية وحيّا المجمع الحكومة السوفياتية بإعلانه الآتي:

«بانتصار النظام الاشتراكي الجديد، بانتصار النظام العادل الذي لا يعرف العالم نظيراً له، فصلت الكنيسة في بلادنا الكبرى عن الدولة بمشيئة الشعب، وهي تتمتع بالحرية الكاملة في حياتها الداخلية. وقامت بين الكنيسة والدولة علاقات مرضية جداً وذلك بفضل عدم تدخل الكنيسة في حياة الدولة السياسية. ومن الجهة الأخرى عدم تدخل الدولة في نشاط الكنيسة الداخلي» [٩].

وبعد إحراز الجيش السوفياتي نصره التام على جحافل النازية في أيار (مايو) ١٩٤٥ عمت الفرحة الكبرى كل أرجاء المعمورة، وابتهلت بهذا النصر المجيد كنائس موسكو وسوريا ولبنان وسائر المشرق وأقيمت صلوات الشكر، ووصل الكسي بطريرك موسكو وكل روسيا في زيارة إلى سوريا ولبنان والقدس والإسكندرية، وكان موضع حفاوة رسمية وشعبية وكنسية كبرى تعبيراً عن مدى تقدير ومحبة شعبنا للشعب

السوفياتي العظيم الذي ضحى بدماء عشرين مليون شهيد من أبنائه البواسل على مذبح إنقاذ البشرية وخلاصها من ديكتاتورية النازية السوداء. وقد منحت الحكومة اللبنانية برئاسة عبد الحميد كرامي وسام الأرز الوطني إلى البطريرك الكسي وهو أرفع وسام وطني لبناني. وفي خطبة له في كنيسة القيامة بمدينة القدس قال بطريرك موسكو وكل روسيا:

«إن الله استجاب للصلوات التي أقيمت هنا على هذا القبر المقدس في بداية الحرب من اجل روسيا والكنيسة الروسية من قبل الأخوة البطاركة الكسندروس الإنطاكي وتيموثيوس الأورشليمي. وأنا واثق بأن النصر الذي أعطاه الله لشعبنا هو ثمرة هذه الصلوات، واليوم ونحن في هذا المكان المقدس صلينا سوية، بطاركة إنطاكية والقدس وروسيا. وأنا مؤمن بأن هذه الصلوات ستعطي بركات جديدة وسعادة كبيرة لكنائسنا وشعوبنا»[١٠].

وفي السنة ذاتها (١٩٤٥) زار البطريرك الإنطاكي الكسندروس الثالث طحان روسيا واغتنم فرصة وجوده هناك ليقدم مذكرة للبطريرك الكسي ليقدمها بدوره إلى وزراء خارجية دول الحلفاء المجتمعين في موسكو. وتطالب المذكرة بإعادة مركز البطريركية (إنطاكية) ولواء إسكندرون إلى سوريا. وقد لعب البطريرك الكسندروس دوراً كبيراً في رفع مستوى العلاقات الروحية والثقافية بين كنائس إنطاكية وسائر المشرق الأرثوذكسية والكنيسة الروسية إلى أعلى قممها انطلاقاً من تاريخها العريق وأهدافها السامية. فخلال وجوده في موسكو لحضور حفل رسم الكسي بطريركاً على موسكو وكل روسيا، جرت محادثات بينهما تم بنتيجتها اعادة تسليم الأمطوش الإنطاكي في موسكو إلى الكرسي

الإنطاكي في تموز (يوليو) ١٩٤٨، كما أسلفنا. وتولى رئاسة الأمطوش بعد إعادته للكرسي الإنطاكي الأسقف باسيليوس سماحة الذي انتدب معتمداً بطريركياً في موسكو. وقد لعب الأسقف سماحة الذي أصبح بعد ذلك رئيساً للكهنة ومطراناً على حوران وجبل العرب وتوابعها، دوراً كبيراً في تعزيز العلاقة بين الكنيستين الروسية والإنطاكية خلال وجوده في موسكو، وعزز مكانة الأمطوش الإنطاكي المادية والمعنوية. فنال تقدير الأوساط الدينية والوطنية والرسمية واحترامها. وارسل له المجمع الأرثوذكسي المنعقد في دمشق كتاب شكر وتقدير على جهوده المباركة في حقلي الدين والوطن، ووزاره رئيس مجلس الوزراء السوري السيد سعيد الغزي وعلق على صدره وسام الاستحقاق السوري في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٥. ووجهت له وزارة الخارجية اللبنانية كتاب شكر وتقدير بعد إقامته في الأمطوش الإنطاكي بموسكو قداساً احتفالياً للبنان ولرئيسه آنذاك الشيخ بشارة الخوري. كما منحه رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر وساماً وطنياً رفيعاً قلده أياه سفير الجمهورية العربية المتحدة في موسكو محمد القوني تقديراً لدوره في تدعيم علاقات الصداقة والمحبة بين الشعوب العربية والشعب السوفياتي.

وعلى قاعدة علاقات الأخوة بين الكنيستين قام العديد من مطارنة لبنان وسوريا بزيارة موسكو ومنهم المطران نيفن سابا والمطران إيليا الصليبي والمطران بولس الخوري ومطارنة حمص وحماه وحوران وغيرهم. وجمعت وشائج محبة قوية بين البطريرك الإنطاكي الكسندروس ورجال الكنيسة الروسية، وتشهد موجودات المتحف في الدار البطريركية بدمشق على مدى قوة العلاقة المذكورة. وكانت آخر زيارة له إلى موسكو قبل وفاته للمشاركة في احتفالات الكنيسة الروسية بمناسبة مرور اربعين سنة

على إرجاع السلطة البطريركية في الكنيسة الروسية. فكانت له كلمة أخيرة في موسكو وهي كلمة للتاريخ قال فيها:

« لا شك بأن الذين يهتمون لهذا الاحتفال وهذه المناسبة السعيدة وهذا الحدث العظيم، ويعرفون أن من بين المشتركين بهذا العيد بطريرك إنطاكية وسائر المشرق، الذي أتم عامه التسعين، سيدهشون ويتعجبون متسائلين كيف يمكن لهذا الشيخ وهو في هذه السن الطاعنة أن يقوم بهذه الرحلة البعيدة الشاقة؟ ولكن عجب هذا المتسائل يزول متى تصفح تاريخ العلاقات الأخوية بين الكنيستين الإنطاكية والروسية. عندها يرى مشاركتي رغم سني امراً طبيعياً جداً، إذ لا يمكن أن توجد صعوبة ما أو قوة ما يمكنها أن تقف في طريق علاقاتنا الأخوية التي أصبحت مثالاً لبقية الكنائس الأرثوذكسية المستقلة.

نعم إن سني حياتي التي أحملها على كتفي لكثيرة وثقيلة وطأتها، وإن جسدي لضعيف ولكن محبتي للكنيسة الروسية وللشعب الروسي كانت وستبقى قوية وشابة وإن العناية الإلهية شاءت أن يكون تأسيس السلطة البطريركية في الكنيسة الروسية وأن يكون تجديدها مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة الإنطاكية.

إنني أنتهز هذه الفرصة السعيدة لأقدم لكم أيها الأخ الكلي الغبطة وللمجمع المقدس والإكليروس والشعب تمنياتنا القلبية سائلاً الله أن يشدد ويقوي الكنيسة الروسية العزيزة على قلوبنا ويحفظ الشعب الروسي الحامل المسيح، كما أهديكم بركة الكرسي الانطاكي الرسولي »[١١].

لقد ظلت موسكو بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية في الشرق (لبنان وسوريا خاصة) قلب الأرثوذكسية ونجمها المعين أنطلاقاً من العلاقات

التاريخية الروحية. وقد صرح البطريرك الإنطاكي تيودوسيوس السادس أثناء زيارته لموسكو بمناسبة اليوبيل الأسقفي للبطريرك الكسي، صرح بقوله: « إن الكنيسة الإنطاكية للروم الأرثوذكس مدينة باستقلالها وتخلصها من التسلط اليوناني للكنيسة الروسية الأرثوذكسية »[١٢].

غير أن قوة العلاقة بين الأرثوذكس في لبنان وسوريا والكنيسة الروسية لم ترق للولايات المتحدة الأميركية فراحت في سياق حربها الباردة ضد الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي تسعى جاهدة لتخريب هذه العلاقة القائمة على جوهر العقيدة الأرثوذكسية. وقد أعلن البطريرك الإنطاكي الكسندروس أثناء زيارته لموسكو عام ١٩٥١، « إن ممثلي أميركا وإنكلترا في سوريا ولبنان يسعيان باستمرار، ويضغطان لقطع علاقات المحبة الأخوية بين كنيسة إنطاكية والكنيسة الروسية وذلك باسم الأهداف المعادية للاتحاد السوفياتي »[١٣].

إن الولايات المتحدة الأميركية التي خرجت لتتزعم العالم الرأسمالي بعد الحرب العالمية الثانية، وأنهيار الأمبراطوريات الأستعمارية، ساءها أن ترى النهوض الجبار لحركات التحرر الوطني والشعوب المضطهدة والفقيرة، استناداً إلى الترابط الوثيق بين نتائج الحرب ومعطياتها، خاصة لجهة ظهور أسرة الدول الاشتراكية وتعزز مكانة النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي في أعين شعوب العالم الرانية إلى التحرر والانعتاق وبناء حياتها الجديدة وانعكاس ذلك في تقدمها، لذلك كان من صلب اهتمامات السياسة الأميركية في المنطقة عزل شعوبها عن الاتحاد السوفياتي والتشويش على أي علاقة معه، حتى ولو كانت علاقة كنائسية روحية. فتحت ستار « محاربة الشيوعية » أباحت واشنطن لنفسها كل الأساليب، بما في ذلك التدخل والضغط لدى اختيار رجال الكنيسة الأرثوذكسية، للإتيان بمن

هم على ولاء لها وتحركهم نزعة العداء للشيوعية والاتحاد السوفياتي، تحت راية مكافحة الإلحاد والإيديولوجية المادية التي يقوم عليها النظام الاشتراكي. وفي سبيل غايتهم هذه أطلقوا نعت «الأحمر» على كل بطريرك أو مطران أو كاهن أو شماس أرثوذكسي لا يتبع لهم ويوالي سياستهم، محاولين فصل الكنيسة الأرثوذكسية عن شقيقتها الكبرى الكنيسة الروسية، لإضعاف الكنيسة الإنطاكية وجرها لترتمي في أحضان مبشري الغرب وللسير بالتالي في ركاب سياسته. ففي العام ١٩٢٤ كانت قد وقعت بين أميركا وفرنسا (وكانت لفرنسا آنذاك السيطرة الانتدابية على سوريا ولبنان) معاهدة «العمل التبشيري المشترك». حررت سوريا نفسها بعد نيلها استقلالها السياسي من هذه المعاهدة مما أثار حنق وغضب الأميركيين، الذين كانت سياستهم قد تعرت تماماً، سواء عبر المبشرين أم بواسطة التدخل الفظ، أم بشراء بعض النفوس الضعيفة بالمال والمراكز. وانكشف دور وكالة المخابرات المركزية الأميركية في هذا الميدان. وأدرك رجال الكنيسة الأرثوذكسية أهداف التملق الأميركي لديهم، وكشفوا مخططاته ومآربه التي لا يهمها الدين إلا بقدر ما يخدم المصالح والمطامح الاستعمارية، مستذكرين كلام فيلسوف الفريكة أمين الريحاني: «إن أميركا التي تعبد الحديد والذهب والبترول قد غطت نصف الأرض بالمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني»

وفيما المساعي الأميركية على أشدها لفصم عرى العلاقة التاريخية بين كنائس لبنان وسوريا والكنيسة الروسية، تواصلت متعمقة تلك العلاقة تعززها الزيارات المتبادلة بين رجال الكنيستين. فقام مطران بيروت إيليا الصليبي بزيارة لموسكو كان من نتيجتها حصول الكنيسة الأرثوذكسية في بيروت على مساعدات قيّمة من الكنيسة الروسية لبناء مستشفى القديس

جاورجيوس في بيروت وتجهيزه. وهو يعتبر اليوم من أضخم المستشفيات العاملة في منطقة الشرق الأوسط. ولقد تشرفت في شتاء العام ١٩٨٦ خلال زيارة لي لمدينة كييف بمقابلة مطرانها فيلاريت الذي حدثني مطولاً عن العلاقات بين الكنيسة الروسية والكنيسة الأرثوذكسية في لبنان، وعن المساعدات التي قدمتها الكنيسة الروسية إلى مستشفى القديس جاورجيوس ليكون صرحاً طبياً مفتوحة أبوابه لمعالجة الفقراء والمحتاجين من ابناء الشعب اللبناني من مختلف الطوائف[١٤]. ويذكر المطران باسيليوس سماحة في كتابه «عشر سنوات من العلاقات الروحية بين الكنيستين الإنطاكية والروسية» بصورة تفصيلية جردة عن المساعدات المادية التي قدمتها الكنيسة الروسية للكنائس الأرثوذكسية في سوريا ولبنان، خلال فترة عمله كمعتمد بطريركي إنطاكي في موسكو (١٩٤٨ - ١٩٥٥). ولا تقتصر مساعدات الكنيسة الروسية للكنيسة الأرثوذكسية في لبنان وسوريا على التقديمات المادية وحسب بل إنها تشمل أيضاً الحقل الثقافي. فمن المدرسة اليونانية - السلافية في موسكو التي أنشئت في العام ١٦٧٩ لتخريج رعاة خدمة الكنائس الشرقية، ومن الأكاديميات اللاهوتية في كل من موسكو وكييف ولينينغراد وكازان تخرج أعلام عظام من رجال الكنيسة الأرثوذكسية في لبنان وسوريا، ومنهم من أصبح مطراناً وبطريركاً. وفي العام ١٨٩٥ تأسست الجمعية الفلسطينية بسعي الكنيسة والشعب في روسيا، وأخذت على عاتقها التعليم المجاني لأبناء كل الطوائف، وبدأت أعمالها في فلسطين ثم اتسعت لتشمل سوريا ولبنان وسواهما من الديار التابعة للكرسي الإنطاكي. وقد بلغ عدد المدارس التي أنشأتها تلك الجمعية بعد مرور حوالي ٢٥ سنة على تأسيسها مئة مدرسة ومدرسة مجانية توزع الكتب والأدوات المدرسية على تلامذتها مجاناً. وقد عرفت تلك المدارس باسم المدارس الروسية المجانية.

وبالإضافة إلى ذلك قدمت الكنيسة الروسية المساعدة للكراسي البطريركية الشرقية لتأسيس مدارسها اللاهوتية، وترجمة الكتب الدينية. وقد ازدهرت العلاقات الثقافية بين الكنيستين الروسية والإنطاكية، بصورة خاصة، في عهد البطريرك الإنطاكي الكسندروس الثالث، وهو خريج أكاديمية كييف اللاهوتية، وأرسل في عهده وابتداء من العام ١٩٥٣ دفعة جديدة من طلاب اللاهوت للدراسة في الأكاديميات الروسية، وهي المتفوقة في رأيه في تدريس اللاهوت الأرثوذكسي الصافي، وفي عهد البطريرك الكسندروس منحت أكاديمية موسكو اللاهوتية الدرجات العلمية لكل من البطريرك الكسندروس الثالث (دكتوراه في اللاهوت) والبطريرك تيودوسيوس السادس (عضو شرف للأكاديمي) ومطران حمص الكسندروس جحا (دكتوراه في اللاهوت) ومطران حماه أغناطيوس حريكة (عضو شرف للأكاديمي) ومطران عكار أبيفانيوس زائد (بروفيسور في اللاهوت) ومطران بيروت إيليا الصليبي (عضو شرف للأكاديمي). كما تخرج من أكاديمية موسكو اللاهوتية العديد من رجال الدين الأرثوذكس البارزين في لبنان وسوريا، بينهم مطران حوران وجبل العرب باسيليوس سماحة والعشرات غيره من كبار رجال الإكليروس الأرثوذكسي الإنطاكي.

وفي عهد البطريرك الكسندروس قام العديد من مطارنة لبنان وسوريا، متتبعين خطى البطريرك بزيارة موسكو وإقامة العلاقات الوطيدة الشخصية والروحية مع رجال الكنيسة الروسية، بغية رفع شأن الأرثوذكسية في الشرق، والإطلاع عن كثب على أوضاع الكنيسة الروسية. فعاد هؤلاء المطارنة من موسكو يدلون بالتصريحات والخطب والأحاديث عن الكنيسة الروسية العظيمة، والتفاف أرثوذكس الشرق من

حولها باعتبارها قلب الأرثوذكسية ورسولة السلام والمحبة وابنة البلاد التي ارتفع شعار العدل والمساواة في سمائها وهذا هو جوهر المسيحية الحقة ومطلبها الأول.

ففي العام ١٩٤٧ توجه المطران إيليا كرم متروبوليت جبل لبنان للروم الأرثوذكس إلى موسكو لحضور تتويج «سيدة قازان» التي استعيدت بعد نهاية الحرب مع أيقونات وتحف أخرى كان الألمان قد سلبوها من المناطق الروسية التي احتلوها لبعض الوقت، وأقيم احتفال عالمي مهيب بمناسبة استعادة أيقونة «سيدة قازان» وتتويجها، حضره عدد كبير من المطارنة ورجال الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق، وبينهم مطران جبل لبنان إيليا كرم. وقد أبدع المطران ابيفانيوس زايد مطران عكار للروم الأرثوذكس في تأملاته وكتاباته عن روسيا وبلاد السوفيات بعد كل رحلة كان يقوم بها إلى الاتحاد السوفياتي. وتجدر الإشارة إلى أن المطران زايد ومعه ميخائيل نعيمة، وغيرهما من عظماء بلدنا، كانا قد درسا في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر.

أما المطران نيفن سابا، الشاعر والأديب، فقد زار الاتحاد السوفياتي مرات عديدة. وقد صادف في إحدى زياراته أن كان منتقلاً من موسكو إلى ضاحية زاغورسك حيث الدير الأرثوذكسي التاريخي، وأعظم كلية للاهوت الأرثوذكسي في العالم، أن استمع إلى نبأ انطلاق السوفياتية فالنتينا تيرشكوفا أول رائدة فضاء في العالم في رحلة إلى الفضاء الخارجي، فتدفقت في وجدانه مشاعر التأثر والحب والاعتزاز والشموخ، فكتب قصيدته الرائعة عن رائدة الفضاء وبلاد السوفيات، فتداخلت في أبيات قصيدته معاني رحلته إلى رهبة الدير ومعاني رحلة فالنتينا إلى رحاب الفضاء الخارجي...

وتطورت لاحقاً عاماً بعد عام العلاقات الكنسية الروسية ـ اللبنانية، وفي العام ١٩٨٧ تجاوزت الحدود الأرثوذكسية لتشمل الطائفة المارونية. ففي ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) من العام المذكور وصل إلى موسكو بدعوة من البطريرك بيمن، بطريرك موسكو وكل روسيا، البطريرك الماروني مار نصر الله بطرس صفير في أول زيارة لبطريرك ماروني إلى الاتحاد السوفياتي. وقد اعتبرت هذه الزيارة بداية صفحة جديدة في تاريخ العلاقات الكنسية المارونية ـ الروسية. ومما لا شك فيه أن هذه الزيارة جاءت في نطاق الثمرات الأولى لسياسة الانفتاح وإعادة البناء التي صاغ برنامجها المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي في شباط (فبراير) ١٩٨٦.

سوء الأحوال الجوية والضباب الكثيف الذي لف موسكو لم يحل دون زيارة البطريرك صفير، الذي حطت طائرته في لينينغراد بدل موسكو، ثم انتقل بالقطار مسافة ٩٠٠ كلم ووصل موسكو صباح ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ومعه المطرانان المارونيان يوسف الخوري ورولان أبو جودة والأبان ميشال الحايك ويواكيم مبارك. في موسكو كان ينتظر البطريرك صفير والوفد المرافق له حشد من كبار رجال الكنيسة الروسية، يتقدمهم ممثل البطريرك بيمن المتروبوليت سيرغي الذي اعتبر أن زيارة البطريرك صفير تكتسب أهمية خاصة لأنها الأولى «لممثلي كنيستكم المكرمة لكنيستنا».

ظهر اليوم الأول من زيارة البطريرك صفير لموسكو استقبله في مقر بطريركية موسكو، البطريرك بيمن بطريرك موسكو وكل روسيا الذي رحب بالبطريرك الماروني صفير قائلاً: «إنني مسرور بزيارة البطريرك

الماروني في هذا الوقت حيث تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بمرور ألف عام على قيامها». وأكد التقاليد العريقة المشتركة بين الكنيستين، «وإن اختلفت شكلاً بعض الشيء». وقال: «نسأل الله سبحانه تعالى أن يعزز جهودكم يا صاحب الغبطة، من أجل ترسيخ مهمتكم السامية وهي خدمة قضية ربنا وتمجيده ولما فيه خير الشعب اللبناني لسنوات طويلة بنعمة سيدنا يسوع المسيح والآب والإبن والروح القدس». وأضاف البطريرك بيمن قائلاً: «إن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وجميع المواطنين في الاتحاد السوفياتي يتعاطفون بعمق مع شعوب البلاد العربية التي تعرضت لمحن كثيرة. ونحن نشارك تلك الشعوب سعيها إلى إقامة السلام العادل في الشرق الأوسط في أسرع وقت. ونعتقد أن هذه القضية تتطلب الإسراع في عقد المؤتمر الدولي من أجل إيجاد حل سلمي لقضايا الشرق الأوسط والنزاعات القائمة في هذه المنطقة. وقد طرحت بلادنا فكرة هذا المؤتمر قبل مدة طويلة، ونحن على يقين أن السعي والطموح إلى السلام وإلى تعزيز السيادة الوطنية وتعزيز وحدة أراضي لبنان، سوف يجمعان بين جميع المواطنين في بلدكم، وبين أبناء جميع الأديان على أساس السعي المشترك والبنّاء إلى ازدهاره وإلى المحبة المتبادلة»[١٦].

وقال البطريرك الماروني صفير في حفل استقباله في مقر بطريركية موسكو: «يشرفنا والوفد المرافق أن نزور هذه الدار العامرة وأن نلتقي صاحب القداسة البطريرك بيمن، وهو اللقاء الأول الذي يتم على هذه الأرض الخيرة بين بطريرك موسكو وروسيا والبطريرك الماروني، آملين في أن يكون فاتحة عهد من التعاون لخير الجميع مع الدعاء للكنيسة الأرثوذكسية الروسية ورأسها ومطارنتها وكهنتها وشعبها بالتقدم والازدهار والعمل على نشر رسالة المسيح الذي نجتمع باسمه اليوم».

وأضاف البطريرك صفير قوله: « إننا نأمل ونحن قادمون من لبنان عبر روما، أن نلقى لديكم ولدى المسؤولين من المساعدة ما يمكننا من إخراج وطننا المعذب المكتوي بنار الحروب، حروب الآخرين على أرضه، من محنته التي تشد الخناق عليه منذ ثلاث عشرة سنة »[١٧].

وفي حفل تكريم أقامه السفير اللبناني في موسكو محمود حمود على شرف البطريرك الزائر، وحضره عدد من المسؤولين في الخارجية السوفياتية وبعض رجال السلك الدبلوماسي العربي في موسكو قال البطريرك صفير: « لعلكم تتساءلون ما الذي حملنا إلى المجيء إلى حيث نحن... وما أظن أن قضية لبنان لغريبة عنكم وعن كل بلد من بلدانكم وهو الأخ الأصغر والأغر بين الإخوة أحق بالعطف والمحبة...

إن جنوب لبنان معركة متواصلة السعير، وعاصمته عاصمتان مزقتها المدافع والمتفجرات، وشماله حزين وجبله مهجر أصبح أخضره يابساً والكثير من قراه خراباً ».

وختم كلمته معرباً عن « أمله في أن يكون الاتحاد السوفياتي، البلد العظيم وعلى رأسه سيادة الأمين العام ميخائيل غورباتشوف من أكبر المساعدين للبنان على النهوض من كبوته، ونأمل أيضاً أن تضموا أصواتكم إلى صوتنا ليبقى لبنان »[١٨].

لقد حدد البطريرك الماروني منذ اليوم الأول لوصوله موسكو، وأمام رؤساء كنيستها أولاً، ثم أمام بعض المسؤولين السوفيات ورجال السلك الدبلوماسي العربي الغاية من زيارته للاتحاد السوفياتي في هدفين أساسيين الأول: هو فتح فصل جديد في تاريخ الكنيستين المارونية والروسية والتعاون بينهما، والثاني: هو طلب المساعدة في انتشال لبنان من لهيب

الحرب التي تلتهم أرضه منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة.

وطبيعي جداً أن يطلب البطريرك صفير المساعدة من الاتحاد السوفياتي لما له من نفوذ في العالم وفي الأمم المتحدة، وانطلاقاً من فهم جوهر السياسة الخارجية السوفياتية التي اتسمت دائماً، منذ اللحظة الأولى لقيام السلطة السوفياتية، بالسعي الدائم إلى منع الحروب وسيادة السلام في كل بقعة من بقاع العالم، ومساندة الشعوب التي تناضل في سبيل تحررها الكامل السياسي والاقتصادي والثقافي وتقدمها الاجتماعي. فانطلاقاً من هذا الفهم لسياسة الاتحاد السوفياتي والذي عززته وقائع الدعم المادي والمعنوي السوفياتي لنضال الشعوب العربية التحرري، وثبات الدعم السوفياتي لاستقلال لبنان وسيادته ووحدة أراضيه في وجه العدوان الإسرائيلي ومشاريع التقسيم والتوطين وغير ذلك من المشاريع والمخططات المشبوهة... إنطلاقاً من كل ذلك كان من الطبيعي والمنطقي أن يتوجه البطريرك صفير، وهو الحريص على مصلحة لبنان وشعبه، إلى موسكو لطلب مساعدتها في انتشال لبنان من لهيب الحرب. ولقد تأكد البطريرك صفير في العاصمة السوفياتية من جديد من ثبات وصدق الموقف السوفياتي حيال لبنان، من خلال ما سمعه من المسؤولين السوفيات ورجال الكنيسة الروسية، فقد تحدث المتروبوليت فيلاريت مسؤول العلاقات الخارجية في الكنيسة الروسية خلال اجتماع عمل عقده مع البطريرك صفير عن « ضرورة تحقيق السلام في لبنان الذي تؤلم أحداثه القلوب. وأبدى سروره لمصادفة هذا اليوم ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) عيد تأسيس الأمم المتحدة، وأكد دعم بلاده للبنان وتلا القرار رقم ٤٢٥، ورأى أن الحل الوحيد للبنان يمر في مؤتمر دولي واسع، إذ أن قضيته تجاوزت الحدود وأخذت طابعاً دولياً »[١٩].

والبطريرك صفير يعلم ككل اللبنانيين من الذي يعرقل ويمنع تنفيذ القرارات الدولية المتعلقة بأزمة الشرق الأوسط ولبنان. فلو أن الولايات المتحدة الأميركية التزمت فعلاً بهذه القرارات وتوقفت عن عرقلة عمل منظمة الأمم المتحدة، لكان لبنان قد نجا من الكثير من المصاعب والآلام التي عانى منها ولا يزال بسبب عدم تنفيذ تلك القرارات. وفيما مسؤولية الولايات المتحدة الأميركية واضحة تماماً عن مجمل ما أصاب لبنان خلال السنوات الأخيرة، سواء بمنعها تنفيذ القرارات الدولية أو بدعمها الكلي لإسرائيل في سياستها العدوانية، فإن بعض الأوساط في لبنان تتجاهل كل ذلك وتتساءل عن «الفائدة من وراء ارتماء الموارنة ممثلين ببطريركهم في أحضان موسكو؟ وكيف ستكون ردة الفعل الأميركية على هذه الزيارة، خصوصاً وأن البطريرك صفير زار العاصمة السوفياتية، قبل أن يزور العاصمة الأميركية؟!»[٢٠].

غير أن البطريرك صفير والبطريركية المارونية كانت لهما وجهة نظر مختلفة تماماً ولم تُجْدِ في التأثير فيها كل المحاولات المكشوفة والمبطنة للتشويش على الزيارة، وهذا ما تأكد في تقرير للبطريركية المارونية كشف عشية وصول البطريرك صفير إلى موسكو أن للزيارة أسباباً تتعلق بموقف صفير وطروحاته التي تختصر إرادة التوحيد على أسس العدالة والسيادة المطلقة، وأخرى تتعلق بقيادة الكرملين ولا سيما بسياسة الانفتاح الجديدة. ويمكن للاتحاد السوفياتي القيام بدور مؤثر وفاعل في رفع يد التدخل والسيطرة والاستغلال الخارجي لتمكين اللبنانيين من التلاقي وإحلال شروط سلامهم المنشود، خصوصاً وأن كل اللبنانيين متفقون ضمناً على ضرورة الخروج من دائرة لعبة الموت المستمرة على أرضهم[٢١].

ماذا قال المسؤولون الرسميون السوفيات للبطريرك صفير بصدد

الأزمة اللبنانية وما هي محصلة الزيارة في هذا الصدد؟

نقل حبيب شلوق من موسكو أن بعض كبار المسؤولين في الخارجية السوفياتية أكدوا خلال استقبالهم البطريرك صفير، الاهتمام القوي بانسحاب كل القوى الأجنبية ولا سيما الإسرائيلية من لبنان لإحلال السلام في هذا البلد المعذب، وكذلك أكدوا دعمهم لعقد مؤتمر دولي بمشاركة الأطراف المعنية، يحضره ممثلون للدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن ووصفوه بأنه الإطار الصالح لحل كل قضايا الشرق الأوسط، ومنها قضية لبنان والقضية الفلسطينية. وأكدوا مجدداً إصرارهم على وحدة لبنان وسيادته واستقلاله وشددوا على مدى الخطورة التي قد تنجم عن تفتت لبنان وتقسيمه دويلات، لأن لبنان كان دائماً نموذجاً للوحدة بين الدول المتعددة الطوائف. واعتبروا أن المهمة تكون أكثر سهولة إذا وُجِدَ أساس للتفاهم بين القوى السياسية والدينية في لبنان، مشيرين إلى أن موضوع لبنان سيكون مدار بحث في كل الاتصالات مع المعنيين بلبنان ومع الفلسطينيين[٢٢].

كما نقل شلوق عن السيد تاراسيفيتش، نائب رئيس الدولة السوفياتية (رئيس مجلس السوفيات الأعلى) الذي استقبل البطريرك صفير في الكرملين[٢٣]. تأكيده له المشاركة التامة للاتحاد السوفياتي في قلق اللبنانيين من الأوضاع الحالية، وتأييده وحدة لبنان وحل مشاكله الداخلية بنفسه، وأشار إلى أن الاتحاد السوفياتي كان وما زال يدعو إلى اللجوء إلى الوسائل السلمية لحل القضية اللبنانية لما فيه مصلحة كل الطوائف، بحيث يعود لبنان إلى ما كان عليه قبل فترة قريبة نموذج عيش وتعايش بين الموارنة والأرثوذكس والسنة والشيعة والدروز وغيرهم. وأعرب عن يقينه بأن

لبنان سيصبح من جديد دولة ذات سيادة موحدة الأراضي ويعود العدل والتعايش إلى الشعب ويعود لبنان إلى ما كان عليه[٢٤]» .

وفي البيان المشترك الذي أجمل حصيلة زيارة البطريرك صفير إلى الاتحاد السوفياتي عبرت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية باسم رعيتها وجميع المواطنين السوفيات عن تألمها لمعاناة الشعب اللبناني وشعوب البلدان العربية الأخرى التي تعاني محناً قاسية، مؤكدة وقوفها إلى جانب وحدة لبنان واستقلاله وسيادته ضمن حدوده المعترف بها. وأعربت عن أملها القوي في أن يتحقق مسعى اللبنانيين إلى السلام في أسرع ما يمكن ورغبتهم في العيش المشترك. ووافق البطريركان بيمن وصفير على مؤتمر السلام الدولي لحل قضية الشرق الأوسط وعبّرا عن قناعتهما بضرورة عقد هذا المؤتمر بأسرع ما يمكن باشتراك كافة الأطراف المعنية بما فيها لبنان[٢٥] .

عقد البطريرك الماروني صفير في ختام زيارته لموسكو مؤتمراً صحافياً أعرب خلاله عن شكره العميق للمسؤولين الكنسيين والمدنيين وقال: «عرفنا ما معنى المحبة والسماح والأخوّة بين أبناء الكنيسة». وحيا الموقف السوفياتي البناء والثابت من تسوية النزاعات الإقليمية قائلاً: «إنني والشعب اللبناني نعرب عن امتناننا الكبير للاتحاد السوفياتي على الجهود التي يبذلها لجهة حل القضية اللبنانية». وقدّر البطريرك صفير تقديراً عالياً تأكيد المسؤولين السوفيات على «أن الاتحاد السوفياتي سيظل يعمل بشتى السبل للمساعدة على حل القضية اللبنانية بأسرع ما يمكن، سواء على صعيد الندوات والمؤتمرات الدولية أو على صعيد اللقاءات والاتصالات الثنائية»[٢٦] .

وهكذا، سجلت الزيارة الأولى للبطريرك الإنطاكي الماروني إلى

موسكو نجاحاً أكيداً لجهة توطيد وتعزيز علاقات الصداقة والتعاون بين لبنان والاتحاد السوفياتي، ولجهة فتح صفحة جديدة من العلاقات بين الكنيستين الروسية والمارونية تضاف إلى سجل العلاقات التاريخية القديمة والمعاصرة بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والكنيسة الأرذوكسية في لبنان. وقد عقد اللبنانيون الأمل الكبير على زيارة البطريرك صفير للاتحاد السوفياتي، متطلعين إلى نتائج عملية تلي الزيارة وتظهر عملياً في خطوات جادة نحو إنقاذ لبنان من أزمته السياسية ـ الاقتصادية ـ الاجتماعية القاتلة وانتشاله منها. وقد انعكس ذلك بصورة خاصة من خلال المتابعة اليومية المثابرة للصحافة اللبنانية على اختلاف اتجاهاتها وكذلك وسائل الإعلام الأخرى لخطى تلك الزيارة منذ اليوم الأول ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٧ وحتى يومها الأخير في ٢٧ منه.

ومن جهة ثانية تجدر الملاحظة أن البطريرك صفير وصل إلى الاتحاد السوفياتي قادماً من روما، أي أن زيارته حظيت بمباركة مسبقة من قبل بابا روما. فالكنيسة المارونية من الكنائس التي تعترف ببابا روما رئيساً لها، وبالتالي فإن البطريرك صفير لم يقم بأول زيارة له إلى الاتحاد السوفياتي دون التشاور المسبق بشأنها مع البابا، وهذا ما أضفى على زيارة البطريرك صفير إلى موسكو أهمية إضافية، لما ستمثله من تطور في مستوى العلاقات بين البابا والكنيسة الكاثوليكية في العالم من جهة، وبين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وبطريركها من جهة ثانية، ولا تخفى أهمية مثل هذه العلاقة في حركة النضال العالمي من أجل نزع السلاح النووي والسلام الدولي، سيما وأن الكنيسة الروسية قامت في الماضي وتتأهب في المرحلة الراهنة للقيام بدور هام على هذا الصعيد في إطار احتفالاتها التي ستقام في صيف العام ١٩٨٨ بمناسبة الذكرى السنوية الألف لاعتناق

المسيحية في روسيا، وقد أعلنت الكنيسة الروسية أنها ستنظم بالمناسبة مؤتمراً عالمياً لرجال الدين في موسكو بموضوع « رجال الدين في النضال من أجل السلام ». ومما لا شك فيه أن مشاركة بابا روما في هذا المؤتمر بالإضافة إلى رؤساء الكنائس العالمية الآخرين ستكون حدثاً ذا أهمية تاريخية خاصة. وفي هذا المجال كتبت مجلة « نوفيل اوبزرفاتور » وكان ذلك قبل قيام البطريرك الماروني صفير بزيارته إلى موسكو بأيام، كتبت تقول: « إن فكرة قيام البابا بزيارة إلى الاتحاد السوفياتي لم تعد من باب الخيال ». واعتبرت المجلة أن زيارة الأم تيريزا إلى الاتحاد السوفياتي تشكل دليلاً على تحسن العلاقات بين موسكو والفاتيكان، وعلى احتمال مشاركة بابا روما في العيد الألفي للكنيسة الروسية في موسكو في الخامس من شهر حزيران (يونيو) ١٩٨٨ [٢٧].

هوامش

(١) المطران باسيليوس سماحة: عشر سنوات من العلاقات الروحية بين الكنيستين الإنطاكية والروسية. بيروت ١٩٦٨. والعرض أعلاه لتاريخ الكنيسة الروسية وعلاقاتها مع الكنيسة الإنطاكية مستقى من مضمون هذا الكتاب ص. ٣٥ - ٤٢.

(٢) رسائل البطاركة الشرقيين. ص ٢٧٥

(٣) الأرشمندريت روفائيل هواويني. الأمطوش الإنطاكي في موسكو ص. ١ - ٢

(٤) الأرشمندريت جورج خضر: المسيحية والإسلام في لبنان. ص. ٦٥ - ٦٦

(٥) الحقيقة الدينية ص. ٤٢ - ٤٤

(٦) الكنيسة الأرثوذكسية الروسية (١٩٥٩) ص. ٢٠

(٧) الأرشمندريت جورج خضر: المسيحية والإسلام في لبنان. ص. ٦٦

(٨) المطران باسيليوس سماحة: مرجع سابق. ص. ٦٥

(٩) الكنيسة الأرثوذكسية الروسية (١٩٥٩) ص. ١٨

(١٠) الحقيقة الدينية. ص. ٢٦٨

(١١) المطران باسيليوس سماحة: مرجع سابق ص. ٨٧ - ٨٨

(١٢) مجلة الحركة: عدد ٣٢ - ٣٣ ص. ١٤ - ١٩٦٣

(١٣) مجلة الحركة: أيلول ١٩٥١

(١٤) المقابلة التي أجراها المؤلف مع المطران فيلاريت نشرت في جريدة « الأنوار » اللبنانية - شباط ١٩٨٧.

(١٥) جريدة « النهار » اللبنانية. ١٩٨٧/١٠/٢٢

(١٦) جريدة « النهار » اللبنانية - ١٩٨٧/١٠/٢٢

(١٧) جريدة « النهار » اللبنانية -١٩٨٧/١٠/٢٢

(١٨) جريدة « النهار » اللبنانية ١٩٨٧/١٠/٢٥

(١٩) جريدة « الأحرار » اللبنانية ١٩٨٧/١٠/١٤.

(٢٠) نص التقرير المذكور المنسوب إلى البطريركية المارونية نشر في جريدة « السفير » اللبنانية وبعض الصحف المحلية الأخرى بتاريخ ١٩٨٧/١٠/١٨ نقلاً عن إذاعة لبنان الحر الموحد، التي يملكها الرئيس الأسبق سليمان فرنجية.

(٢١) جريدة « النهار » اللبنانية ١٩٨٧/١٠/٢٧

(٢٢) تجدر الإشارة إلى أن البطريرك صفير واحد من رجال الدين القلائل الذين استقبلوا في الكرملين خلال السنوات الأربعين الأخيرة، وذلك تدليلاً على الأهمية السياسية التي أعطتها موسكو لزيارته. وقبل ذلك في العام ١٩٦٧ استقبل مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد في الكرملين أيضاً خلال زيارته الأولى للاتحاد السوفياتي.

(٢٣) رسالة حبيب شلوق من موسكو إلى جريدة « النهار » - ١٩٨٧/١٠/٢٨

(٢٤) جريدة « النداء » اللبنانية ١٩٨٧/١٠/٢٨

(٢٥) جريدة « النهار » ١٩٨٧/١٠/٢٨

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) مجلة « نوفيل اوبزرفاتور » ١٩٨٧/١٠/١٧

٣ ـ «بلاشفة» في لبنان

أول أيار ـ (مايو) العام ١٩٠٧. بيروت، محلة الروشة: نفر من « الشبيبة الحرة » يتقدمهم خيرالله خيرالله، احتفلوا بعيد العمال العالمي، علّقوا على صدورهم خلال الاحتفال شارات حمراء حريرية. فكانوا الكوكبة الأولى التي أقامت للعمال عيداً ولأول مرة في التاريخ فوق رقعة من الأرض العربية على شاطىء المتوسط في الطرف الغربي من مدينة بيروت. وبعد ثماني عشرة سنة وفي الأول من أيار ـ (مايو) ١٩٢٥ وفي احتفال عمالي أقامه « حزب الشعب اللبناني » في إحدى قاعات بيروت السينمائية آنذاك « كريستال »، احتفالاً بعيد العمال العالمي في ظل الرايات الحمراء وتحت شعار « يا عمال العالم اتحدوا! يا عمال لبنان اتحدوا! » سلم خيرالله خيرالله إلى يوسف ابراهيم يزبك أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني الشارة الحريرية الحمراء التي احتفظ بها من الاحتفال الأول في العام ١٩٠٧.

فما هي حكاية « حزب الشعب اللبناني » و « الحزب الشيوعي اللبناني » والصلة بينهما وكيف كانت تأثيرات ثورة أكتوبر عليهما، وعلاقاتهما مع بلاد السوفيات وحزب البلاشفة؟.

إنها حكاية البذور الأولى للعلاقات الحزبية والسياسية بين لبنان وبلاد السوفيات، متجسدة في العلاقة بين الحزبين التي تطورت ونمت لتمتد إلى مساحة أوسع وأشمل وأكثر انفتاحاً من مساحة العلاقة الحزبية، إلى علاقات صداقة بين شعبين تبلورت أولاً في أطر شعبية ثم غدت رسمية،

واتسعت ميادينها أكثر ورحُبت آفاقها، مبتدئة ببذور العلاقة الحزبية بين حزب حاكم في روسيا قاد أول ثورة عمالية ـ فلاحية، وأخذ على عاتقه مهمة بناء أول مجتمع اشتراكي في العالم، وحزب لبناني ناشىء بُعَيد انتصار ثورة أكتوبر أعلن منذ لحظات قيامه الأولى هويته الأممية وأخوته الفكرية والإيديولوجية لحزب البلاشفة في روسيا. فأطلق على رواده الأوائل تسمية « البولشفيك »، فكانوا « البلاشفة » الأول في لبنان. وإذا كانت كلمة « بولشفيك » الروسية في معناها الحرفي تعني الأكثرية، فهي في معناها السياسي الذي تعارف الناس عليه عندنا تعني شيوعياً. ولذا لم يكن هناك أي فرق في المعنى والمدلول بين القول هذا رجل شيوعي أو بولشفيكي. غير أن كلمة بولشفيكي كانت الأكثر استعمالاً بين عامة الناس لما ارتبط في أذهانهم عندنا في لبنان من أخبار انتصار ثورة أكتوبر في روسيا التي أجمعت وسائل الاعلام العالمية آنذاك على تسميتها باسم الثورة البولشفية.

وبانتصار ثورة أكتوبر لم تعد الاشتراكية مجرد حلم لكبار المفكرين والأدباء والمصلحين، بل باتت جوهراً وهدفاً لسلطة شعبية أُعلنت لأول مرة في بلاد واسعة تمتد فوق مساحة شاسعة من قارتي آسيا وأوروبا. وأصبح للاشتراكية قوة المثال الحسي الذي تراقب تجربته ملايين البشر في سائر أرجاء المعمورة. ولبنان الذي كان بعض مفكريه وكتابه قد حملوا إرهاصات الاشتراكية منذ منتصف القرن التاسع عشر، لا بد وأن يكون من المعاقل الهامة التي وجد فوقها من يستنير بفكر ثورة أكتوبر ونداءاتها إلى شعوب الشرق المقهورة المسحوقة للتمرد على القيود، وإلى عمال العالم وكادحيه لكسر نير الاستغلال وبناء العالم الجديد، عالم العدالة والمساواة. وانطلقت الدعوة الأولى للاشتراكية في لبنان في صحيفة « الصحافي التائه » التي أصدرها في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢ إسكندر الرياشي في مدينة

زحلة ووصفها بأنها جريدة البؤساء والعمال. يوسف ابراهيم يزبك هو الذي دعا للاشتراكية وكتب عنها في « الصحافي التائه » بتوقيع « الشبح الباكي »، وبتاريخ زمني يعتمد منطلقاً له تاريخ تأسيس الأممية الثالثة (الأنترناشيونال الثالث). فأرخ مقاله الأول على هذا النحو: « ٧ تشرين الأول (أكتوبر)، السنة الثالثة للانترناشيونال » (١).

في هذه الأثناء، وفي ١٥ - ١٦ شباط (فبراير) عام ١٩٢٢ كانت شلة من العمال اللبنانيين العاملين في معامل الدخان والسجائر في مدينة الاسكندرية (مصر)، وفي مقدمهم فؤاد الشمالي (*)، يعقدون اجتماعاً في أحد الأحياء الشعبية، تناقشوا خلاله في أوضاعهم وأوضاع لبنان وخلصوا إلى قرار بتأسيس « حزب العمال اللبناني » ووضعوا الخطوط العريضة لبرنامجه وانتخبوا فؤاد الشمالي أميناً للحزب. وبعد عام وشهرين تحول هذا الحزب إلى « الحزب الاشتراكي السوري اللبناني » في ٢٦ نيسان (إبريل) ١٩٢٣. ويقول فؤاد الشمالي عن هذا الحزب إنه يرمي إلى: « تحرير سوريا ولبنان سياسياً واقتصادياً. مبادؤه الأساسية مستخلصة من الأممية الثالثة. ونحن لسان حال الطبقة العاملة المغلوبة على أمرها. نعمل لتحسين حال العمال قدر المستطاع في الحاضر، ونرمي إلى تسليم مقاليد الأحكام وزمام الأمور إلى طبقة العمال والفلاحين في أول فرصة تمكننا من ذلك الأمر الجوهري الذي ترتكز عليه مبادؤنا » (٢).

وبعد هذا الاعلان الصريح عن مبادىء الحزب وأهدافه وهويته الشيوعية وانتسابه إلى الأممية الثالثة، استدعت ادارة الضبط بالاسكندرية فؤاد الشمالي وأنذرته بوجوب الكف عن الدعوة للاشتراكية الأممية (٣) وفي صيف العام ١٩٢٣ كتبت الصحف المصرية أن الحكومة المصرية اعتقلت

عدداً من عمال التبغ في الاسكندرية، بينهم عامل لبناني اسمه فؤاد الشمالي بسبب تحريضهم على الاضراب، وبناءً على اقتراح مدير بوليس الاسكندرية أمر وزير الداخلية المصري بابعاد العامل فؤاد الشمالي إلى وطنه لبنان لأنه « غير مرغوب ببقائه نظراً إلى أفكاره وميوله البولشفيكية » (٤). وغادر الشمالي الاسكندرية في ١٨ آب (أغسطس) ١٩٢٣ ووصل بيروت في ٢٢ منه. وفي ميناء بيروت كان يوسف ابراهيم يزبك (*) هو أول من استقبل فؤاد الشمالي المبعد من الاسكندرية. وجرى التعارف بينهما بعدما أبلغ يزبك إلى الشمالي أنه قرأ عنه في الصحف المصرية، وأنه يميل إلى المبدأ الشيوعي ويود أن يتخذه رفيقاً مخلصاً وصديقاً ودوداً. وقويت العلاقة بين الرجلين وتعددت اللقاءات بينهما على طريق الهدف الواحد.

تابع يوسف ابراهيم يزبك كتاباته في « الصحافي التائه »، وتلقى رسائل عديدة تطالبه بايجاد الحزب الثوري، ليأخذ على عاتقه مهام النضال لتحقيق مطالب الشعب ومهام تحرير لبنان وإقامة الدولة المستقلة.

فؤاد الشمالي الذي وصل لتوه إلى بيروت أين سيستقر؟ لقد جاء حاملاً معه تجربة نضالية غنية، وهو عامل دخان وفي لبنان معامل الدخان هي الأكثر. وتتركز المعامل الكبرى في بيروت وبعض مراكز الجبل الأساسية، بكفيا، حمانا وزحلة.

استقر الشمالي في بكفيا حيث التجمع الكبير لعمال الدخان وتابع نشاطه النقابي والسياسي، فأثمر نشاطه أولاً عن تأسيس « النقابة العامة لعمال

الدخان في لبنان» وأصبح أميناً عاماً لها في العام ١٩٢٤. والثمرة الثانية في السنة نفسها كانت تأسيس حزب سياسي قاعدته هي عمال الدخان بصورة أساسية، هو «حزب الشعب اللبناني»، فؤاد شمالي أمينه العام. وهكذا بعد حزب العمال اللبناني والحزب الاشتراكي السوري اللبناني، كان حزب الشعب اللبناني. ودائماً تتولى مجموعات من عمال الدخان إعلان الحزب وتسميته. غير أن فؤاد الشمالي المؤسس والأمين العام في نفسه طموح حمله معه من مصر يتمثل في العمل لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. وهذا ما راح يسعى إليه وسط بعض رفاقه من عمال الدخان في بكفيا. كانت الغاية تحويل حزب الشعب اللبناني إلى الحزب الشيوعي اللبناني. وهذا أمر يستلزم الاتصال بالأممية الثالثة وأخذ موافقة الانتساب إليها. ولهذه الغاية اجتمع يوم ٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٤ في منزل الشمالي في المحيدثة (بكفيا) عشرة عمال عقدوا الاجتماع الشيوعي الأول، واتفقوا على تكليف الشمالي بالكتابة إلى أحد فروع الكومنترن للحصول على نسخة من القانون العام للأحزاب الشيوعية. وكتب الشمالي إلى الحزب الشيوعي المصري، ولكن جواباً لم يصله لأن أكثرية أعضاء اللجنة المركزية للحزب المصري كانوا قد أصبحوا في السجون.

في هذه الأثناء وفيما كان الشيوعيون العشرة في بكفيا يعقدون اجتماعهم الأول، كان بعض المثقفين يلتفون في بيروت والحدث حول يوسف ابراهيم يزبك ويعرفون باسم «البولشفيك»... ويواصل يوسف يزبك كتاباته في «الصحافي التائه» باسم «الشبح الباكي» حول الاشتراكية في مبادئها وأهدافها ووضع العمال في لبنان، إلى أن كان مقاله «مات لينين» الذي كتبه في اليوم الثاني لاعلان موسكو نبأ وفاة لينين. ثم ترجم مقالين

عن مجلة «الأولوستراسيون» نشرهما في جريدة «المعرض» البيروتية. المقال الأول عن عمل لينين بوصفه أعجوبة تدهش العقول وتخيف بنتائجها القلوب. والمقال الثاني يصف مأتم قائد ثورة أكتوبر والتفاف الشعب حول لينين القائد. ويقول يزبك: «**وذالك المقالان دفعا بي بعد** زمان إلى الاهتمام بمعرفة حياة الانسان الجبار الذي سمته صحافة أوروبا بـ«إله روسيا» وإلى تفهم بعض مبادئه تفهماً صحيحاً، وبدأت صلتي بالفكر الماركسي الحقيقي وبدأت أقرأ لينين. وإذا لم أستطع الجزم استطعت الترجيح أني أول مثقف عربي اقتنى مؤلفات لينين، ولا يزال بعضها عندي ولا أزال أعتبرها أقدس ما في مكتبتي. فهي إلى كونها كتب لينين العظيم، من أقدم ما اقتنيته من كتب في مطلع شبابي، إنها رفيقة عمري والمصغية إلى هواجسي وهمومي وما لا أستطيع البوح به»(٥).

وكتابات يزبك في «الصحافي التائه» ومجلة «المعرض» هي شكل اطلالة «بولشفيك» لبنان الاعلامي الوحيد ووسيلتهم الوحيدة لنقل أرائهم إلى الناس في لبنان وخارجه. فالمقالة التي كتبها يزبك في مجلة «المعرض» في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤ عن الكاتب الفرنسي العالمي أناتول فرانس(٦) شكلت الدافع الذي حدا بالأممية الثالثة (الكومنترن) لايفاد مندوب إلى لبنان والاطلاع على حقيقة أوضاع «البولشفيك» فيه...

«مات أناتول فرانس، مات صديق العمال والفلاحين، مات صديق المضطهدين والفقراء، مات صديق الحرية ورسولها. فمن شعب لبنان، من أدباء لبنان سلام عليك! سلام عليك!».

كلمات الرثاء هذه التي كتبها يوسف ابراهيم يزبك في مجلة « المعرض »، دفعت بالأممية الثالثة لايفاد الصحافي البولوني جوزيف برغر إلى لبنان. ووصل برغر إلى بيروت وزار يوسف ابراهيم يزبك في مقر عمله في دائرة مراقبة المرفأ والمهاجرة في بيروت. قدم نفسه إلى يزبك كصحافي بولوني أتى إلى لبنان ليكتب سلسلة مقالات عنه. وبعدما اطمأن الزائر إلى يزبك فتح حقيبته وأخرج منها عدد « المعرض » الذي نشر فيه مقال رثاء أناتول فرانس. وراح برغر يسأل يزبك ماذا تعني هذه الكلمة وماذا تقصد هذه العبارة... و ... و ...

وقال يزبك لزائره:

« كلامي صريح وواضح لا يحتاج إلى تفسير: فأنا أرثي أكبر أديب في العالم خسره العمال والفلاحون في جميع أنحاء الأرض، إذ كان ينتقد مستغليهم ويكافح ظلمهم وينادي بوجوب تغيير النظام السائد في فرنسا والعالم الرأسمالي.

فقال برغر: هذا يدل على آراء اشتراكية، فهل أنت اشتراكي؟

ـ وتحمست منفعلاً بالسؤال كأنه يتحداني، وأجبت فوراً بأني اشتراكي.

سأل برغر: هل تظن أن في لبنان اشتراكيين آخرين. هل تعرفهم ولك علاقة بهم؟

ـ أعرف شباناً يحبذون المبادىء الأشتراكية. ولكني لا أعرف أن

بينهم رابطة تجمع شملهم كاشتراكيين » [٧]. ويقول يوسف يزبك في كتابه « حكاية أول نوار »، بعد هذا الحديث كان بديهياً أن يعرض برغر عليّ أن يجتمع عندي بهؤلاء الشبان. ووافقته وكتبت لتوي رسالة إلى فؤاد الشمالي في بكفيا أدعوه للمجيء عندي لأمر عاجل جداً.

يقول محمد دكروب في كتابه « جذور السنديانة الحمراء » إن برغر جاء إلى لبنان مندوباً من « الأممية الشيوعية » عن طريق الحزب الشيوعي الفلسطيني [٨].

ويقول فؤاد الشمالي في كتابه « أساس الحركات الشيوعية »: « في أواخر عام ١٩٢٤ أخذت كتاباً من السيد يوسف يزبك يدعوني إلى موافاته إلى فندق « أوروبا » في بيروت لأمر هام. فلبيت دعوته ووصلت إلى الفندق في الموعد المعين. فدخل بي السيد يزبك إلى غرفة في الطابق الأعلى، فإذا أنا أمام رجل في العقد الثالث من عمره على عينيه نظارات سوداء، وقد أرخى لحيته مهابة وارتدى ثياباً تدل على أنه من أبناء الطبقة الوسطى. عرّفني إليه يوسف بقوله: هذا هو الرفيق فلان! وأشار إليه قائلاً لي: أعرفك إلى هذا الرفيق، وهو مندوب لتأسيس حزب شيوعي في لبنان، وقد طلب إليّ أن أكتب إليك لتأتي إلى هنا فيراك، ويحادثك قبل عقد الاجتماع الذي اتفقنا على عقده هذه الليلة » [٩].

تم لقاء الثلاثة برغر [١٠] ـ يزبك ـ الشمالي، وجرى تبادل للآراء بينهم واتفقوا على ضرورة عقد اجتماع موسع للعناصر الشيوعية. اقترح الشمالي عقده في بكفيا حيث تتواجد عناصر عمالية شيوعية. وكان رأي برغر أن من الضروري عقد اجتماع مشترك اليوم في بيروت. فاقترح يوسف يزبك

أن يعقد الاجتماع في بيت جده لوالدته في الحدث وهو مكان بعيد عن الشبهات [١١].

مساء يوم الجمعة ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) عقد الاجتماع في الحدث بحضور تجاوز العشرة أفراد بينهم يزبك والشمالي وبرغر. بعد التداول والنقاش تقرر بالاجماع تأسيس الحزب الشيوعي في لبنان الكبير، واتفق بالاجماع أن يكون يوسف ابراهيم يزبك أميناً عاماً للحزب. وبعد أيام عُقدَ اجتماع آخر في بكفيا أنشد المشاركون فيه لأول مرة في لبنان «نشيد الأممية» ونشيد حزب الشعب اللبناني، الذي تقرر في اجتماع بكفيا أن يكون الوجه العلني للحزب الشيوعي، يمارس من خلاله وباسمه نشاطاته العلنية.

ولادة الحزب الشيوعي اللبناني لم تكن منعزلة عن سلسلة تطورات توالت في المنطقة، في أعقاب انتصار ثورة أكتوبر ونجاحها في التصدي لبقايا النظام البائد، وللتدخل العسكري الغربي ضد الجمهورية الشعبية الفتية. فمن الانتفاضات ضد المستعمرين في كل من مصر وسوريا إلى بداية ظهور وتكوّن الطبقة العاملة في بعض الأقطار العربية (مصر - فلسطين - سوريا - لبنان) كحركة نقابية سياسية، إلى قيام الحزب الشيوعي في فلسطين والحزب الاشتراكي المصري (عام ١٩٢١)، وقبل ذلك انعقاد المؤتمر الأول لشعوب الشرق في باكو ١-٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ بدعوة من الأممية الشيوعية، وقد شارك فيه مندوبون من المشرق العربي. وكان لبنان مركز الحدث الآتي والذي تمثل في نشوء الحزب الشيوعي اللبناني، كخطوة طبيعية ونوعية مثلت استجابة موضوعية لواقع اقتصادي اجتماعي وكملت خطوات سابقة كانت قد بدأت بتأسيس نقابة لعمال الدخان في بكفيا. ثم الاتحاد العام لعمال الدخان. ثم حزب

الشعب اللبناني. وإذا ما تأملنا في هوية المؤسسين والنشطاء (فؤاد الشمالي، يوسف ابراهيم يزبك وسواهما) والمناطق التي انطلقت الدعوات النقابية والاشتراكية والشيوعية منها (بكفيا - الحدث - الخنشارة - بتغرين وغيرهما من بلدات الجبل اللبناني) لظهر لنا في (مقاييس لبنان اليوم) اللون الطائفي الواحد لهؤلاء المؤسسين الطلائع وتبيّن لنا أن الأفكار الاشتراكية انتشرت في لبنان أولاً وسط المسيحيين. ثم توسعت في السنوات اللاحقة لتشمل أبناء الطوائف الاسلامية في مناطق لبنان الأخرى خارج جبل لبنان.

ولا بد هنا من الاشارة إلى الدور الذي لعبه الأرمن لجهة إقامة أولى الصلات الحزبية بين لبنان والاتحاد السوفياتي. فالأرمن الذين نجوا من المجازر التركية عام ١٩١٥ عادوا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى وطنهم الأم بناءً على وعود الحلفاء باقامة دولتهم المستقلة وضمان حرياتهم وحقوقهم. غير أن هذه الوعود بقيت حبراً على ورق مما اضطر عشرات الألوف من العائلات الأرمنية للهجرة من جديد، هرباً من المجازر الجديدة، إلى بعض الدول الأجنبية وخاصة لبنان وسوريا. أما الأرمن الذين كانوا في روسيا فقد واجهوا مصيراً مختلفاً وأعطتهم السلطة السوفياتية الفتية حقوقهم الكاملة، أسوة بسائر الشعوب الأخرى التي كانت خاضعة لنير السيطرة القيصرية، في اقامة دولة أرمينيا المستقلة عام ١٩٢٠. وهذا التطور النوعي في حياة ومصير الشعب الأرمني بعد ستة قرون من الاضطهاد والظلم الاستعماري، كان له وقع كبير في أوساط الجماهير الأرمنية واستقبلته بحماس وطني وتأييد حار، واكتشف العديدون من أبناء الشعب الأرمني وعماله ومثقفيه أن تطبيق المبادىء الاشتراكية في حل القضايا القومية هو الطريق الصحيح الذي أعاد لهم حريتهم

وكرامتهم، ومكّنهم من امتلاك حقهم في تقرير المصير وممارسة هذا الحق.
وقد وحدت مجموعة من الأرمن في لبنان صفوفها وأسست منظمة سبارتاك الشيوعية عام ١٩٢٤. وقد أرسلت قيادة سبارتاك في العام التالي ١٩٢٥ رسالة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا تبلغها فيها أنها تعتبر نفسها قوة مناضلة وفصيلاً من فصائل الأممية البروليتارية (الكومنترن) في الشرق وتعمل تحت راية الشيوعية. وقد وقّع الرسالة كل من رئيس المنظمة آرام يرتسيان وسكرتيرها أرتين مادويان [١٢]. ولم يكن قيام جمهورية أرمينيا السوفياتية الاشتراكية هو العامل الوحيد الذي دفع ببعض الأرمن إلى اعتناق المبادىء الماركسية بل إن العامل الطبقي لعب هو أيضاً دوره الفاعل في صفوف الكادحين الأرمن، وهم أكثرية الشعب الأرمني الساحقة المتواجدة في لبنان آنذاك، الذين رأوا في الاشتراكية المعبّر عن مصالحهم وطموحاتهم، كما وأنهم من خلال قناعاتهم الاشتراكية انخرطوا في صفوف العرب وتلاشت من نفوسهم كل نزعات الانعزال، مما وطد صلاتهم مع العرب وشاركوا معهم سوية في نضالهم ضد الاستعمار ومن أجل التحرر والاستقلال. وهذا ما عزز صفوف منظمة سبارتاك بين أبناء الشعب الأرمني. ومكنها من لعب دور هام في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني وتوطيد علاقاته مع بلاد السوفيات، ليس فقط بسبب الانتماء الايديولوجي الواحد وإنما أيضاً عبر العلاقات الأرمنية الواسعة بين العائلات الأرمنية في لبنان وتلك المقيمة في أرمينيا السوفياتية.

إذن، من بكفيا إلى الحدث فبيروت، محطات تأسيسية اجتازها «حزب الشعب اللبناني». هذا الحزب الذي كان يضم في صفوفه القاعدية والقيادية أعضاء شيوعيين وغير شيوعيين، والذي باسمه وجهت الدعوة العلنية الأولى إلى عمال لبنان للتعطيل عن العمل في يوم الأول من أيار

(مايو) ١٩٢٥، والمشاركة في الاحتفال العمالي الذي يقيمه الحزب للمناسبة في وسط العاصمة بيروت (قاعة سينما كريستال) وكان الاحتفال العمالي الأول بيوم أول أيار في لبنان وسوريا.

أمين عام حزب الشعب اللبناني فؤاد الشمالي أحد قادة ومؤسسي الحزب الشيوعي اللبناني قال في المهرجان: «اليوم فقط، بدأنا نشارك عمال العالم في عيدهم وفي شعورهم... اليوم فقط فتحنا أعيننا ونظرنا إلى ما حولنا مفتشين عن طريق الحرية... وها نحن نرى جيداً هذه الطّريق، وقد شرعنا نسير عليها. فهل من قوة في العالم تتمكن من صدنا عن طريقنا؟ لا ثم لا أيها الرفاق.

إن أعظم قوة تضعف وتتلاشى أمام قوة الشعب. وأقوى إرادة في العالم يجب أن تخضع صاغرة ذليلة متى قال العمال هذه إرادتنا. إن صوت الشعب من صوت الله. وارادة الشعب تدك العروش وتحطم التيجان. نحن في العالم كل شيء. فيجب أن يكون لنا كل شيء. ولكن متى يكون للشعب صوت وللعمال ارادة؟ إن ذلك يكون حين يوحد الشعب كلمته وينظم العمال صفوفهم. وبمعنى آخر حين يتحد المجموع في سبيل مصلحة المجموع».

وهتف الشمالي في ختام كلمته وردد العمال معه: «فليحيا العمال والفلاحون! فليحيا أول أيار! فليسقط الظالمون». [١٣].

عن هذا المهرجان العمالي كتبت في اليوم التالي مجلة «المراسلات

الأممية» الناطقة بلسان الأممية الشيوعية من موسكو، كتبت تقول: إن أكثر من ٨٠٠ عامل تظاهروا في شوارع بيروت احتفالاً بيوم أول أيار ١٩٢٥. وجرت تظاهرات العمال في الشوارع، وعقدت اجتماعات في البيوت، ورفعت الأعلام الحمراء رمز نضال الطبقة العاملة. وامتدت احتفالات أول أيار إلى بعض المدن والقرى اللبنانية: زحلة وضهور الشوير وبكفيا وغيرها [١٤].

هذا المهرجان العمالي الأول في لبنان كان نقطة تحول في مسار حركة عمال لبنان السياسية التي انطلقت مندفعة بتأثير مبادىء ثورة أكتوبر وقوة أفكارها. ولنلمس مدى تأثير أفكار أكتوبر وسياسة الاتحاد السوفياتي في انطلاقة طلائع الحركة العمالية الشعبية اللبنانية، ما علينا إلا العودة إلى كلام يوسف ابراهيم يزبك الذي أصدر بعد أسبوعين من احتفال «الكريستال»، وتحديداً في ١٥ أيار (مايو) ١٩٢٥ جريدة الإنسانية لتكون ناطقة باسم الحزب الشيوعي اللبناني. واستهل العدد الأول بافتتاحية جاء فيها:

أيها الحق المهضوم!

يا عرق جبين العمال، وثمرة أتعاب الفلاحين. باسمك نكتب ولأجلك نجاهد، فلا تكن حلماً بل أملاً.

إننا نريد الحياة الحرة

وسعادة الانسانية التي هي مجموعنا

لا ملك الرأسمال والسيطرة والظلم

وأيها العمال والفلاحون «يا عمال الأرض

يا صعاليك العالم كله: اتحدوا! [١٥].

هذا الكلام وما تلاه في اعداد «الانسانية» الأربعة اللاحقة من تفسير للمطالب العمالية التي كانت قد أُعلنت في الاحتفال بيوم الأول من أيار كوثيقة برنامجية مطلبية، أثار غضب سلطات الانتداب الفرنسي، فأصدر المفوض السامي الفرنسي في ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٢٥ قراراً بتعطيل «الانسانية» فيما كان العدد السادس منها تحت الطبع. وسكتت «الانسانية»! ولكن إلى حين وحسب!

وإثر القرار الفرنسي بتعطيل «الانسانية» اللبنانية، يقول صاحبها يوسف ابراهيم يزبك: جاء موظفو الأمن العام - ولن أشرفهم فأذكر أسماءهم، وهم حملة تذاكر نفوس لبنانية - فدهموا بيتي وفتشوا بيت الشاعر المغفور له صديقي الدكتور أديب مظهر، وبيت رفيقي المناضل فؤاد الشمالي، واغتصبوا من منزلي جميع ما عثروا عليه من مؤلفات لينين وأناتول فرانس وسواهما. «أدلة ثبوتية على شيوعيتي» فقلت لكبير المغتصبين: «لستم بحاجة إلى أدلة فأنا معلن شيوعيتي على سن الرمح وجريدتي «الانسانية» أصدق الشاهدين» [١٦].

بعد أقل من سنة من «تعطيل الانسانية» كانت مجلة «المراسلات الأممية» تكتب قائلة: «إن الحركة العمالية في سوريا (المقصود سوريا ولبنان وفلسطين) كانت لها منذ البدء قيادة جيدة ومضمونة وموثوق بها. وعند ميلاد هذه الحركة نهض الحزب الشيوعي بوصفه حارساً أميناً للثورة. لقد ولدت الحركة العمالية في سوريا كحركة شيوعية وهي إما أن تتطور بهذه الصفة أو لا تتطور. وهذا مفهوم على كل حال: إن الحركة العمالية التي عاهدت نفسها على النضال ضد الامبرياليين الأجانب، لا بد لها أن تسلك حتماً طريق النضال الثوري بتحالف مع حركة التحرر الوطني، أي لا يمكنها إلا أن تسير في طريق اللينينية العظيم» [١٧].

هذا التقويم لطبيعة ودور الحزب الشيوعي وحركته العمالية في لبنان، على صفحات المجلة الناطقة باسم الأممية الشيوعية، يعكس ولا شك تعاطفاً إيديولوجياً وسياسياً عميقاً من قبل بلاد أكتوبر وثورتها وحزبها وشعبها مع الحركة العمالية في لبنان والحزب الشيوعي اللبناني الناشىء. ويعكس مستوى العلاقة بين حزب لينين والحزب الفتي في لبنان الذي كان قد اعلن هويته الأممية منذ لحظات ولادته وأعلم على الفور قرار تأسيسه إلى الأممية الثالثة.

قبل ذلك كان قد صدر تقويمان مماثلان، ولكن بلغة مختلفة ومن مصدرين غربيين الأول إنكليزي أطلقته الحكومة المصرية وكانت العوبة بيد الانكليز آنذاك، فقد أصدرت الحكومة المصرية قراراً منعت بموجبه دخول جريدة «الانسانية» إلى مصر «لغلبة الأخبار الشيوعية عليها». وبعد أيام وبالتحديد في ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٢٥ كان لقرار الحكومة المصرية (الانكليزي) صداه في باريس ووقعه التنفيذي في بيروت، فاصدر المفوض العام الفرنسي سراي قراره رقم ٢٠٥ عطل بموجبه جريدة «الانسانية». وبالطبع للأسباب ذاتها التي منعتها من دخول مصر. وكانت تلك شهادة أخرى على المنحى الأممي للحزب اللبناني الناشىء والطابع الشيوعي لجريدة «الانسانية». وهذا ما تأكد لاحقاً في سياسةالحزب العامة وموقفه من الثورة السورية عام ١٩٢٥، التي اتخذ الحزب قراراً «بدعمها بكل ما لديه من إمكانيات، بما فيها السعي لدى الحركة الشيوعية العالمية لتنسيق وسائل دعم الثورة»[١٨]. وقد أصدر الحزب بياناً بهذا المضمون حول دعم الثورة السورية، كان البيان الأول الذي حمل توقيع «اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان». ويقول س. أيوب في كتابه «الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ١٩٢٢-

١٩٥٨» «... في أواخر تموز ١٩٢٥ اتخذت اللجنة المركزية المؤقتة للحزب الشيوعي قراراً بتأييد الثورة السورية، ووجهت إلى الشعب دعوة لمؤازرة الثوار والانضمام إليهم، كما طلبت من الجنود التمرد على سلطات الانتداب والالتحاق بالثورة. وقد صدرت هذه الدعوات في نشرات باللغات العربية والفرنسية والأرمنية»[١٩].

لقد أقلقت سلطات الانتداب المناشير الشيوعية والملصقات التي كانت تدعو للنضال ضد المستعمرين، وتحرض الجنود الفرنسيين على عدم الامتثال لأوامر رؤسائهم والانضمام إلى صفوف الثوار. وما أقلقها أكثر ظهور مفاعيل الدعم السوفياتي لرجال الثورة. أفلم يعلن البيان الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا عن سعي الحزب لدى الحركة الشيوعية العالمية لتنسيق وسائل دعم الثورة؟ لقد أثمرت تلك المساعي وظهرت مادياً وسياسياً. دعم سوفياتي بالمال والسلاح والخبراء العسكريين للثوار في سوريا وثوار «الريف» في المغرب العربي، كيف تم ذلك؟ بمساعي الشيوعيين اللبنانيين وعبر الحزبين الشيوعيين التركي والفلسطيني. وجن جنون الفرنسيين، فالدعم السوفياتي على الأرض ومجلة «المراسلات الأممية» الناطقة بلسان الحركة الشيوعية العالمية (الكومنترن) تقول: «إن جبل الدروز أصبح مركزاً لحركة التحرر في سوريا ولبنان وفلسطين، وتعاظمت ثورة جبل الدروز المحلية إلى حد كبير واشتعلت وامتدت حركة تمرد عامة ضد الاحتلال الفرنسي. إن انتفاضة جبل الدروز تشكل نموذجاً للانتفاضة الثورية لشعب مضطهد»[٢٠].

وعن دور الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا قالت مجلة «المراسلات الأممية» «لقد دخل الحزب الشيوعي إلى الساحة. وهذا الحزب الذي ولد

عشية الثورة، قد اضطر تحت نيران العدو الهوجاء، إلى تنظيم صفوفه للقتال وإنشاء جهاز سري والقيام بمهماته بصورة سرية. وقد أحرز نجاحات في تحقيق التآخي بين سكان المدن الوادعين وسكان الريف الثائرين. وذلك في محاولة الحزب إزالة المنازعات الدينية. ومنذ البداية نهض الحزب حارساً أميناً للثورة»[21].

وعندما قصف الفرنسيون مدينة دمشق خمس ساعات متواصلة في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٥، قالت مجلة «المراسلات الأممية»، «لقد زرعوا الموت والدمار في دمشق حتى تحولت إلى بحر من نار، أحياء بكاملها هدمت، ألوف الناس تحت الأنقاض وفوق الأنقاض كان يرفرف العلم الفرنسي!. والآن ماذا سيكون موقف البروليتاريا الفرنسية إزاء هذا الوضع؟ إن عليها أن تبذل كل طاقاتها مطالبة باجلاء القوات الفرنسية من سوريا ولبنان»[22].

وهكذا وضعت الأممية الشيوعية بقيادة حزب لينين كل وزنها المعنوي والسياسي والاعلامي إلى جانب الثورة السورية التي غدت حركة تحرر وطني تحظى بدعم قوى الثورة العالمية وتأييدها. ويقود الحزب الشيوعي الفرنسي حملة عنيفة ضد حكام فرنسا، ضد الاستعمار الفرنسي، في الشارع كما في البرلمان، في صفوف العمال والجنود ويرفع شعار الاستقلال لسوريا ولبنان والجلاء الفرنسي عنها. وهكذا من موسكو إلى باريس فبيروت مروراً باسطنبول والقدس ظهرت عملياً قوة التضامن الأممي! وتشن سلطات الانتداب الفرنسي حملة اعتقالات شملت بعض قادة الحزب الشيوعي اللبناني الأساسيين ورفاق آخرين لهم سجنوا ثم

أبعدوا إلى مناف متباعدة (أميون ـ قلعة قدموس ـ الرقة ـ جزيرة أرواد). ونشرت مجلة «المراسلات الأممية» وسائر الصحف الشيوعية في الاتحاد السوفياتي وأوروبا نداءات تضامن مع المعتقلين تندد بالارهاب الفرنسي وتطالب بالافراج عن المعتقلين النقابيين والشيوعيين في لبنان وسوريا. إلى أن تم ذلك في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ حيث صدر قرار العفو العام عن المعتقلين السياسيين.

وخرج المعتقلون من السجون وعادوا إلى مواقعهم ومعهم تجربة غنية ودروس وعبر. فالثورة السورية أغرقت وأحبطت أهدافها في التحرر والاستقلال، أغرقت بنار المستعمرين ومساومات القادة الاقطاعيين ـ البرجوازيين. وكانت تلك عبرة لم تجد دروسها بعد حتى الآن حيث ما زالت الهزائم والاحباطات تتكرر بين مرحلة وأخرى: ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٨٢ وغيرها... وغيرها...

غير أن الدرس الأساسي المستقى من ثورة العام ١٩٢٥ هو مصداقية الدعم الأممي لشعبنا، هذا الدعم السياسي والمادي والمعنوي الذي حملته إلينا بلاد السوفيات، والذي لو توفر في مقابله عزم واخلاص ومصداقية مماثلة لدى «قياداتنا» الممسكة بزمام الأمور، لكان بالتأكيد حصل منذ زمن بعيد تبدُّل جذري في واقع منطقتنا. ولقد حافظ الشيوعيون لاحقاً على أفقهم الأممي وتوسعت ونمت علاقاتهم مع بلاد السوفيات، وهذا ما تأكد بصورة خاصة من خلال مشاركة «الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا» في مؤتمر الأممية الشيوعية السادس الذي حضره مندوبون عن كل الأحزاب الشيوعية في العالم. فؤاد الشمالي الأمين العام للحزب كان ممثله في المؤتمر المذكور الذي انعقد في موسكو بين ١٧ تموز

(يوليو) و ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨. ففي هذا المؤتمر تم نهائياً انتساب الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا إلى الأممية الشيوعية الثالثة، بوصفه حزباً مستقلاً وليس كفرع للحزب الشيوعي في فلسطين. وفي إطار المؤتمر الأممي تمت مناقشة الوضع في المشرق العربي، وبحثت المسألة القومية للبلدان العربية في ضوء التجزئة الاستعمارية، واتخذت توصيات بضرورة تأليف منظمات مستقلة للعمال والفلاحين والخروج عن تأثير البرجوازية الوطنية التي لا يجوز عقد اتفاقات مؤقتة معها، إلا بقدر ما تكون غير معيقة للتنظيم الثوري للعمال والفلاحين وبقدر ما تناضل بصورة فعالة ضد الامبريالية [٢٣].

وبعد عودة الشمالي من موسكو عقدت اللجنة المركزية للحزب جلسة قررت فيها تغيير اسم الحزب فأصبح اسمه: «الحزب الشيوعي السوري - فرع الانترناسيونال الشيوعي». وفي نطاق النشاط الاعلامي والسياسي للحزب صدر في ١٧ آذار ١٩٣٠ العدد الأول من جريدة «صوت العمال» التي رئس تحريرها فؤاد الشمالي، وانتشرت في صفوف العمال كوسيلة تثقيف وتحريض وتعبئة.

وفي اليوم الثالث لصدور «صوت العمال» ٣٠ آذار (مارس) ١٩٣٠ جرت الانتخابات البلدية في بكفيا، فاز فيها عامل الدخان فريد طعمة عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان. حمله العمال والفلاحون على الاكتاف وطافوا شوارع بكفيا في مظاهرات صاخبة. فكتبت «صوت العمال»: إنها خطوة رائعة يا عمال بكفيا فإلى الأمام أيها الرفاق! [٢٤].

وفي حزيران ١٩٣٠ أيضاً، جرت انتخابات نقابة عمال الدخان وعاد

فؤاد الشمالي، إلى قيادة النقابة سكرتيراً لها وفريد طعمة رئيساً...

وفي هذا المناخ وفي جو احتدام الصراع مع الفرنسيين حول الدستور والجمعية التشريعية أصدرت اللجنة المركزية للحزب أول بيان صريح في الأول من تموز (يوليو) ١٩٣٠ وبتوقيع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - فرع الانترناسيونال الشيوعي. أعلن البيان رفض الحزب لما أعلنه الفرنسيون من دساتير في البلاد السورية ورفض تجزئة سوريا. ويهاجم «الزعماء الوطنيين» الذين خانوا الثورة ويحرض العمال والفلاحين كي يضعوا حداً لخيانة هؤلاء وخداعهم. ويخلص البيان إلى تذكير الشعب السوري بأننا لسنا وحدنا في نضالنا ضد الاستعمار بل إن هناك مئات الملايين من الشعوب المظلومة (...) وهناك روسيا البولشفيكية، نصيرة الشعوب المظلومة التي تعمل على سحق القوى الاستعمارية وتحرير الشعوب الضعيفة من نير الاستعمار، إنها معنا في كفاحنا لتحرير أنفسنا [٢٥].

هذا البيان كان له وقع كبير في أوساط الرأي العام والصحافة المحلية والعالمية، وراحت سلطات الانتداب تبحث ليل نهار عن قادة الحزب وتطاردهم. وأصدر المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسوريا قراراً فرض بموجبه عقوبة الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات على «جريمة الدعاية الثورية» [٢٦]. ورغم كل هذه الملاحقات وفي ظروف العمل السري أصدر الحزب في العام ١٩٣١ جريدة أسماها «الفجر الأحمر» توزع سراً وترسل بريدياً إلى الصحف والشخصيات والهيئات السياسية. واعتقلت سلطات الانتداب بعض مصدري «الفجر الأحمر» غير أن الجريدة ظهرت بعد حين [٢٦].

ومن موسكو كتبت مجلة «المراسلات الأممية» الناطقة باسم الأممية

الشيوعية في عددها الصادر يوم ٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٠، تقول:

«أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، في السابع من تموز عن وجود الحزب كحزب سياسي. ففي ذلك اليوم أغرق شيوعيو لبنان وسوريا كل شوارع دمشق وبيروت وحلب وطرابلس وصيدا ومدن وقرى أخرى، بمناشير شيوعية يعطي فيها الحزب تقويمه للوضع السياسي الراهن، ويشدد على سياسة قطاع الطرق التي تمارسها الامبريالية الفرنسية منذ عدة شهور، وعلى إفلاس «الكتلة الوطنية» البرجوازية السورية وخيانتها، ويتوجه إلى العمال والفلاحين، داعياً إياهم إلى الانخراط في الحزب وإلى متابعة النضال الصلب تحت قيادته ضد الامبريالية الفرنسية وأتباعها، من أجل إقامة حكومة العمال والفلاحين ونيل التحرر والاستقلال الوطني التام لسوريا».

وتابعت مجلة «المراسلات الأممية» قائلة: إن بيان الحزب الشيوعي السوري خطوة كبيرة تم انجازها مؤخراً لتنمية الشيوعية في البلدان العربية وحَدَثٌ بالغ الأهمية في تاريخ الأممية الشيوعية.

إن بيان الحزب الشيوعي قد أثار القلق البالغ لدى الامبرياليين الفرنسيين ولدى البرجوازية العربية، وجرى حتى الآن توقيف خمسة وعشرين شخصاً بتهمة المؤامرة على «الجمهورية»!

غير أن الحزب الشيوعي السوري (لبنان وسوريا)، طليعة البروليتاريا في سوريا ولبنان، لن يتوقف أمام ردة الفعل الرجعية ولا أمام الاستفزازات، وهو سيمضي إلى الأمام، وسيجعل روابطه مع الجماهير

العمالية العربية أكثر فأكثر وثوقاً، وسيناضل من أجل تكوين اتحاد نشيط للأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، من أجل ثورة العمال والفلاحين الديمقراطية، وللقضاء على جميع الشروط الإكليركية والاقطاعية ولاسقاط الامبريالية ومن أجل الثورة الزراعية».

هذا التوجه الأممي الصرف الصريح وغير الدبلوماسي الثوري لا المهادن، الذي كان طابع السياسة الأممية في عهد لينين والكومنترن، كان عنصراً حيوياً في تشديد عزائم الشيوعيين الأوائل في لبنان وسوريا ومتابعتهم الطريق في ظروف صعبة وقاسية في ظل سيطرة الانتداب الفرنسي والجهل التام لدى عامة الجماهير بحقائق السياسة المحلية والاقليمية والعالمية. ولذا نرى الحزب الشيوعي يثابر في تعزيز علاقاته الرفاقية مع الحزب الشيوعي السوفياتي. ولهذه الغاية أوفد إلى موسكو فرج الله الحلو(*) للدراسة في جامعة شعوب الشرق التابعة للأممية الشيوعية «الكوتف». وبعد عودته من موسكو في تموز (يوليو) ١٩٣٤ عكف على وضع كتاب صدر بعد حوالي العامين تحت عنوان «إنسانية جديدة تبني عالماً جديداً»، يسجل فيه انطباعاته عن مشاهدته الأولى في الاتحاد السوفياتي، الذي هو «الميدان الأول لتحقيق الاشتراكية بنت التاريخ البشري وربيبة الانسانية بأسرها». فكان هذا الكتاب من أوائل المؤلفات التي صدرت في لبنان والتي تطرح أمام القارىء اللبناني صورة حية لبلاد السوفيات ونظامها الاشتراكي. وتوطدت لاحقاً على يد فرج الله الحلو وسواه من قادة الحزب الشيوعي اللبناني العلاقات بين شيوعيي لبنان والحزب الشيوعي السوفياتي حتى غدت اليوم أحد الركائز الأساسية في سياسة الحزب الشيوعي اللبناني واستراتيجيته العامة.

هوامش

(١) يوسف ابراهيم يزبك: حكاية أول نوار. ص ٥٤ - بيروت ١٩٧٤ - دار الفارابي.

(*) فؤاد الشمالي: ولد عام ١٨٩٤ في بلدة سهيلة اللبنانية (قضاء كسروان). تلقى دروسه الابتدائية في بيسان بفلسطين، وتابع دراسته في مصر حيث استقرت عائلته. وفي العام ١٩١٠ بدأ يعمل وانضم إلى الحركة النقابية عام ١٩١٦. وفي نهاية الحرب كان عاملاً في معمل للسجاير في القاهرة، ثم انتقل إلى أحد معامل السجاير في الاسكندرية. وفي آب ١٩٢١ تأسس الحزب الاشتراكي المصري الذي ما لبث أن تحوّل إلى الحزب الشيوعي المصري الذي انتسب إلى الأممية الثالثة. وكان فؤاد الشمالي عضواً قيادياً في الاتحاد المصري للعمال الذي تأسس في العام ١٩٢١، وكان عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي المصري، ومعه رفاق وعمال لبنانيون آخرون هم أديب قشعمي ونجيب الشمالي والمحامي انطون مارون.

(٢) جريدة «الأهرام» المصرية. ٢٦ أيار - مايو ١٩٣٣.

(٣) محمد دكروب: «جذور السنديانة الحمراء» - ص ٢١٠. الطبعة الثانية - بيروت ١٩٨٤ - دار الفارابي.

(٤) يوسف ابراهيم يزبك. «حكاية أول نوار». مرجع سابق ص ٦٢.

(*) كان يوسف ابراهيم يزبك يعمل آنذاك سكرتيراً ترجماناً في دائرة مراقبة المرفأ والمهاجرة. وقد قرأ في الصحف نبأ ابعاد فؤاد الشمالي، وكان يترقب بلهفة لحظة وصوله للتعرف عليه.

(٥) يوسف يزبك: حكاية أول نوار. مرجع سابق ص ٥٧.

(٦) أناتول فرانس: كاتب فرنسي عالمي كبير. ورجل شيوعي أممي ذاعت شهرته كمفكر وأديب لامع في مختلف أنحاء العالم. توفي في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤.

(٧) يوسف ابراهيم يزبك: حكاية أول نوار مرجع سابق. ص ٩١.

(٨) محمد دكروب: جذور السنديانة الحمراء. مرجع سابق ص ٢٢٢.

(٩) فؤاد الشمالي: أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية - اللبنانية. ص ١٤ بيروت ١٩٣٥.

(١٠) يقول محمد دكروب في كتابه «جذور السنديانة الحمراء» ص ٢٢٢ إن فؤاد الشمالي بعدما تأكد أن جوزيف برغر هو بالفعل عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، =

ومراسل مجلة «المراسلات الأممية» التي تصدرها الأممية الشيوعية، وموفد من القسم الشرقي في دوائر الأممية للاجتماع بالعناصر الشيوعية في لبنان، أطلعه على وجود عشرة رفاق في بكفيا.

(١١) يقول يوسف ابراهيم يزبك في كتابه «حكاية أول نوار» ص ٩٥: من عجائب الصدف أن هذا البيت الشدياقي الكريم (عبد الله الشدياق) ولد فيه أول حزب اشتراكي في لبنان، وأن في جواره بيتاً شدياقياً آخر نشأ فيه الفتى العبقري فارس الشدياق (أحمد فارس) وهو أول كاتب صاغ كلمة «اشتراكية» في تاريخ العرب.

(١٢) أرتين مادويان، حياة وراء المتراس. ص ٤٤ - بيروت دار الفارابي.

(١٣) حكاية أول نوار، و «جذور السنديانة الحمراء» - مرجعان سابقان.

(١٤) مجلة المراسلات الأممية: العدد ٨٩ - أيار ١٩٢٥. صفحة ١٢٢١.

(١٥) يوسف ابراهيم يزبك كتب في «الصحافي التائه» بتوقيع «الشبح الباكي» أما في الانسانية فقد كتب مقالات بتوقيعه الصريح ومقالات أخرى بتوقيع «بولشفيكي».

(١٦) يوسف ابراهيم يزبك، حكاية أول نوار - مرجع سابق - ص ٥٨.

(١٧) مجلة «المراسلات الأممية» العدد ١٠٠ - ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٦.

(١٨) محمد دكروب: جذور السنديانة الحمراء. مرجع سابق - ص ٢٩٦.

(١٩) س. أيوب: الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ١٩٢٢ - ١٩٥٨. ص ٦٩ - بيروت ١٩٥٩ دار الحرية للطباعة والنشر.

(٢٠) مجلة «المراسلات الأممية» العدد ٩٢ - ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٥.

(٢١) مجلة «المراسلات الأممية»: العدد مئة - ٨ أيلول ١٩٢٦.

(٢٢) «المراسلات الأممية»: العدد ١١٢ - سنة ١٩٢٥.

(٢٣) برنامج الأممية الشيوعية - المؤتمر العالمي السادس - أيلول ١٩٢٨ - موسكو - ص ٧٢ - منشورات مكتب باريس.

(٢٤) جريدة «صوت العمال». العدد ٢ - ٣١ آذار. ١٩٣٠.

(٢٥) محمد دكروب: جذور السنديانة الحمراء. مرجع سابق. ص ٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩.

(٢٦) جاك كولان: الحركة النقابية في لبنان - ص ١٣٧ - دار الفارابي.

(*) فرج الله الحلو: إنتمى إلى الحزب الشيوعي في أواخر العام ١٩٣١، ثم أصبح أميناً عاماً للحزب، بعد أن كان قد خاض معركتين انتخابيتين كمرشح للحزب في منطقة جبيل وجبل لبنان، وقد استشهد وهو أمين عام الحزب، خلال اعتقاله في أحد سجون القطر السوري من الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٩.

الفصل الثاني

١ ـ صداقة ولدت في خضم الكفاح المشترك ضد الفاشية

في المؤتمر السادس للأممية الشيوعية الذي انعقد في موسكو عام ١٩٢٨ بين شهري تموز (يوليو) وأيلول (سبتمبر)، جرى تحديد طبيعة الفاشيستية بأنها «الحرب». واتفق على توحيد الجهود في النضال ضد الفاشية. وعمق المؤتمر السابع للأممية عام ١٩٣٥ البحث في خطر الفاشية وضرورة التصدي لها من قبل كل أحزاب الأممية وفي شتى أرجاء العالم. وفي الميدان العملي على أرض لبنان كانت الخطوة الأولى في الكفاح ضد الفاشية في مدينة طرابلس بشمالي لبنان، حيث نظمت في نيسان (ابريل) ١٩٣٦ تظاهرة ضخمة ضد أعمال المستعمرين الطليان في ليبيا، الذين أعدموا القائد عمر المختار. ومنذ ذلك الوقت طرحت في لبنان مسألة النضال ضد الفاشية بكل جديتها على المستويين النظري والميداني. وأصدر الأديب والمفكر اللبناني سليم خياطة كتابه: «حِميات في الغرب» شرح في بعض فصوله طبيعة الفاشيستية وأخطارها ومقدماتها. فكان أول مؤلف عربي يدرس هذه الظاهرة ويلفت الاهتمام إلى مدى خطرها على العرب والعالم. ووضع خياطة كتاباً ثانياً عن الحبشة تناول فيه سياسة الاستعمار الايطالي في تلك البلاد. وكان هذا الكتاب مساهمة هامة في شرح طبيعة الاستعمار الفاشي وخطره على الشعوب، وأظهر خياطة في كتابه هذا خطأ أولئك الذين يراهنون على الدول الفاشية (ألمانيا وإيطاليا وحلفائهما) للتحرر من نير الاستعمار الفرنسي والبريطاني.

تفاقم خطر الفاشية بوصول هتلر وحزبه إلى السلطة في ألمانيا، ثم بغزو

إيطاليا الفاشية للحبشة. الإتحاد السوفياتي، داخل عصبة الأمم وخارجها، أصر على ضرورة إدانة المعتدي، ومساعدة ضحية العدوان، وطالب بتطبيق ميثاق العصبة لصالح أثيوبيا ـ (الحبشة)، رغم أنه لم تكن له علاقات دبلوماسية ولا أي علاقات أخرى مع أثيوبيا، بينما كانت له علاقات متطورة مع إيطاليا، وكان يرتبط معها منذ العام ١٩٣٣ بمعاهدة عدم اعتداء وصداقة وحياد. وجاء فشل عصبة الأمم في تطبيق العقوبات التي أقرت في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ ضد المعتدي الايطالي إشارة بالغة الدلالة إلى أن العدوان يمكن أن يتكرر في أي يوم وفي أي بقعة من بقاع العالم دون خوف من رادع أو عقاب. خاصة وأنه سبق لعصبة الأمم أن بقيت مكتوفة الأيدي أمام عدوان العسكرتاريا اليابانية التي ستتحالف مع الأنظمة الفاشية لاحقاً قبيل الحرب العالمية الثانية، ضد الصين عام ١٩٣١ في حين أن الاتحاد السوفياتي أعلن تضامنه مع الصين رغم إقدام حكومتها على اضطهاد الشيوعيين. وتكررت التجربة عندما انتهكت ألمانيا، التي سرعان ما خرجت من عصبة الأمم في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٣ أي بعد مضى تسعة أشهر ونصف على استلام هتلر مقاليد السلطة فيها، انتهكت معاهدتي فرساي ولوكارنو واحتلت قواتها الفاشية منطقة الرين المنزوع سلاحها. وفشلت العصبة مرة ثانية في ردع المعتدي أو تطبيق العقوبات بحقه. مما أثار قلق كل أنصار السلام في العالم، وكل الدول المحبة للسلام. وزاد القلق بصورة خاصة بعدما اشتعلت في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٣٦ نيران الفتنة العسكرية الفاشية في إسبانيا ضد الجمهورية، ونتائج الانتخابات التي كانت قد جرت في شهر شباط (فبراير) من العام ذاته، وأدت إلى تشكيل حكومة اشترك فيها الشيوعيون الإسبان. فقد هدف التدخل الألماني ـ الإيطالي ضد الجمهورية والشعب في إسبانيا، إلى الوصول إلى مؤخرة فرنسا وإلى خطوط

المواصلات الرئيسية التي تربط بريطانيا وفرنسا بمستعمراتها الشاسعة، تمهيداً لحرب شاملة، بغية فرض سيطرة الفاشية الألمانية والإيطالية على أوروبا، وذلك بعد القضاء على الديمقراطية والجمهورية في إسبانيا، وإقامة نظام فاشي فيها مماثل وحليف للنظامين الفاشيين في ألمانيا وإيطاليا. وتحقق لألمانيا وإيطاليا ما أرادتاه في اسبانيا بالتواطؤ مع بريطانيا العظمى وفرنسا اللتين بعد أن تخلتا بمبادرة بريطانية عن دعم الشرعية والديمقراطية في اسبانيا تحت ستار عدم التدخل في اسبانيا وفي ظل التدخل الايطالي ـ الألماني المفضوح في الحرب الأهلية الإسبانية، اعترفتا بحكومة فرانكو وعينتا ممثليهما الدبلوماسيين في مناطق سيطرة الحكومة الفرانكوية.

وبعد النجاح في اسبانيا انتقلت ألمانيا إلى توقيع «الميثاق المضاد للكومنترن» في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ مع اليابان. وفي السنة اللاحقة انضمت إيطاليا إلى هذا الميثاق، الذي سينضم إليه لاحقاً كل من مندشوكوو وهو الاسم الذي أطلقه اليابانيون على مقاطعة مندشوريا الصينية وإسبانيا عام ١٩٣٩ والمجر عام ١٩٤٠ وبلغاريا عام ١٩٤١. وهكذا تكونت كتلة التحالف الفاشي المعادي للكومنترن (الأممية الشيوعية).

في هذا الوقت، كانت قد تشكلت في بيروت «لجنة الدفاع عن الحبشة» من مجموعة من الشباب ضمت نقولا شاوي ومحمد رستم طبارة وعبد الرحمن العدو وسواهم. وقامت اللجنة بنشاط إعلامي مثابر تضامناً مع الحبشة واستنكاراً للعدوان الفاشي عليها [1].

وفي أثناء المعارك التي كانت تدور في إسبانيا بين أنصار الجمهورية والديمقراطية الإسبان من جهة والفاشيين ومسانديهم الإيطاليين والألمان

من جهة ثانية، تشكلت في بيروت على أيدي مجموعة من الأدباء والكتاب اللبنانيين «عصبة مكافحة الفاشيستية» وقد أذاع مؤسسوها في حزيران (يونيو) ١٩٣٧ بياناً يشرح سبب تأسيس العصبة وأهدافها. كان المهندس أنطون ثابت أمين السر العام للعصبة ومن أركانها عمر فاخوري ورئيف خوري وغيرهما من الكتاب والأدباء اللبنانيين. ومن أنصارها مارون عبود وجورج حنا ونقولا فياض ورضوان الشهال ورعيل كبير من أدباء لبنان وكتابه وشعرائه وفنانيه. وكانت مجلة «الطريق» لصاحبها أنطون ثابت التي صدرت لتكون ناطقة باسم «عصبة مكافحة الفاشيستية» ملتقى أولئك الكتاب وأصدقائهم. وقبلها ومنذ العام ١٩٣٥ كانت مجلة «الطليعة» منبراً فكرياً وإعلامياً لعب دوراً كبيراً في النضال ضد الفاشية. وقد نشر فيها الأديب رئيف خوري تقريراً تحليلياً مطولاً بعنوان: «نحن والفاشية» يكشف فيه خطر الفاشية على بلادنا وضلال البعض ممن رأى في الفاشية النازية مصدر عون ضد الصهيونية والاستعمار الغربي.

وكان من أبرز نشاطات «عصبة مكافحة الفاشيستية» في سنواتها الأولى تنظيمها أول مؤتمر عربي لمكافحة الفاشية. وقد عقد المؤتمر في بيروت يومي ٦ و ٧ أيار (مايو) ١٩٣٩، وشاركت فيه عشرات المنظمات الحزبية والنقابية والثقافية والصحافية. وتحدث فيها حول الفاشية وخطرها على العرب والمنطقة والعالم كل من المهندس أنطون ثابت رئيس العصبة ورجا حوراني رئيس تحرير مجلة «الطليعة» وخالد بكداش أمين عام الحزب الشيوعي السوري والكاتب توفيق يوسف عواد والشاعر الياس أبو شبكة ونائب بيروت جبران تويني.

توّج المؤتمر أعماله بإعلان سلسلة مقررات، منها مطالبة الحكومة

البريطانية بالمبادرة إلى حل مشكلة فلسطين حلاً عادلاً يتفق وأماني العرب أصحاب الحق في البلاد، ومناداة الشعوب العربية إلى التضامن فيما بينها لدرء الخطر الفاشي ومحاربة دعاة الفاشية. ومطالبة الحكومة الفرنسية بسد السبيل على الدعوات الفاشية في بلادنا وتصديق المعاهدتين: الفرنسية ـ اللبنانية والفرنسية ـ السورية. وقد وقع المعاهدة عن لبنان إميل اده رئيس الجمهورية اللبنانية وعن فرنسا الرئيس الفرنسي دي مارتيل في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦. وتألفت المعاهدة من مقدمة وتسعة مواد، يتلخص جوهرها في اتفاق الطرفين على اتخاذ جميع التدابير النافعة لتنقل يوم زوال الانتداب إلى الحكومة اللبنانية وحدها الحقوق والواجبات الناجمة عن جميع المعاهدات والاتفاقات وسائر العقود الدولية التي عقدتها الحكومة الفرنسية، فيما يخص لبنان أو باسمه. وإن مسؤولية حفظ النظام في لبنان ومسؤولية الدفاع عن أراضيه هما على الحكومة اللبنانية. وإنه حالما توضع هذه المعاهدة موضع العمل تسقط عن الحكومة الفرنسية المسؤوليات والواجبات المترتبة عليها فيما يتعلق بلبنان سواء من جراء مقررات دولية أو من أعمال عصبة الأمم. ونصت المعاهدة على تهيئة جميع الشروط لقبول الدولة اللبنانية في عصبة الأمم في مهلة ثلاث سنوات ابتداءً من مراسم إبرام المعاهدة.

تصاعد النضال في لبنان ضد الفاشية مع تصاعد خطرها وخطواتها العدوانية التي توالت متصاعدة من احتلال الحبشة إلى قمع الجمهورية في إسبانيا إلى ضم النمسا في ١٣ آذار (مارس) ١٩٣٨ وصولاً إلى مؤتمر ميونيخ[٢] الذي انعقد في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٨، والذي شكل وصمة عار في جبين الديمقراطيات الغربية التي وافقت على مطالبة هتلر باقتطاع منطقة السوديت من تشيكوسلوفاكيا وضمها إلى ألمانيا. وقد نفذ

هتلر بعد مؤتمر ميونيخ خطة ضم السوديت واستكملها في ١٦ آذار (مارس) بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا بالكامل في حين احتل حليفه موسوليني ألبانيا في الشهر التالي.

وبما أن « الديمقراطيات » الانكليزية والفرنسية التي كانت تشجع هتلر على الاتساع شرقاً على أمل أن يصطدم بالاتحاد السوفياتي ويشن حرباً عليه لتحويل الحلم الذي عجز عن تحقيقه تدخل أربع عشرة دولة في الحرب الأهلية التي شنها أنصار النظام البائد ضد الحكومة البلشفية إلى واقع، ألا وهو الإطاحة بالنظام الاشتراكي المنتصر في سدس العالم، بقيت مكتوفة الأيدي تجاه جميع هذه الانتهاكات، فقد تشجع هتلر مما دفعه للمطالبة بممر دانتزيغ والتحضير لاحتلال بولونيا.

وكان واضحاً للجميع أن تشيكوسلوفاكيا لم تكن بالنسبة لفرنسا وبريطانيا سوى عملة صرف في مقامرة استعمارية بعيدة المدى هي عقد مساومة مع هتلر. فكتب الدبلوماسي البريطاني كيرك باتريك الذي كان عضواً في وفد بلده في مؤتمر ميونيخ، كتب في مذكراته يصف موقف فرنسا على الوجه الآتي: « كان الفرنسيون، بمن فيهم دلادييه مصممين على الوصول إلى اتفاق بأي ثمن، وكانوا جماعة صغيرة حقيرة من البشر لا يبدو عليهم أي أثر للخجل وهم يشتركون في تقطيع أوصال حليفتهم »[٣].

كما أن المؤرخ البريطاني هوبلر بينين اعترف هو أيضاً بأن هدف اتفاقية ميونيخ كان تصفية تشيكوسلوفاكيا كقوة عسكرية وسياسية واقتصادية مستقلة وتحضير الظروف لمزيد من التوسع الألماني في اتجاه بولندا وروسيا.

وإذا ما عدنا إلى العام ١٩١٨ لوجدنا الخطة تتكرر والهدف يتأكد ثانية في مؤتمر ميونيخ. ففي مؤتمر لندن الذي عقد في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية، تم الاتفاق على ضرورة المساعدة الألمانية لإخضاع روسيا، « يجب أن تنتقل ألمانيا تدريجياً من الصراع العنيف إلى التعاون الطبيعي معنا جميعاً... يجب دعوة ألمانيا لتقدم مساعدة لنا في تحرير روسيا وبعث أوروبا الشرقية »[٤]. وها هي الخطة تتكرر مجدداً في ميونيخ بعد ٢٠ عاماً والهدف واحد في الحالتين وهو إخضاع روسيا.

كان الاتحاد السوفياتي الدولة الكبرى الوحيدة التي لم تشترك في خيانة ميونيخ، وأدانت العدوان الهتلري على تشيكوسلوفاكيا، وفي مذكرة بتاريخ ١٨ آذار (مارس) ١٩٣٩ وسمت الحكومة السوفياتية بالعار ما ارتكبه الهتلريون من أعمال الطغيان، وأعلنت أن تصرفات الحكومة الألمانية يجب أن تعتبر عدواناً وتعسفاً وزادت من تهديد السلام العام[٥]. كما أن الأحزاب الشيوعية في العالم والحركات المناهضة للفاشية كانت الوحيدة التي رفضت أن ترى في اتفاقيات ميونيخ خطوة أنقذت السلم العالمي، بل اعتبرتها خطوة باتجاه الحرب.

لقد حاول قادة الغرب بتواطئهم مع هتلر وحليفه موسوليني وعدم التصدي لأعمالها العدوانية من الحبشة إلى ألبانيا فبولونيا مروراً بإسبانيا وتشيكوسلوفاكيا، توظيف القوة النازية ـ الفاشية في مخططهم القديم الرامي إلى تدمير الدولة الاشتراكية الأولى. وهذا ما برر لهم كل سياستهم المتواطئة، متطلعين إلى نصر ساحق تحرزه ألمانيا النازية على الاتحاد السوفياتي، لتسود بعد ذلك ومن جديد سيطرة الدول الرأسمالية الكبرى على العالم، وتجري مرة أخرى عملية إعادة اقتسامه فيما بينها بعد إزالة

العقبة الكأداء المتمثلة في الاتحاد السوفياتي.

غير أن الاتحاد السوفياتي بعد أن اتضحت له المؤامرة المتمثلة بعدم التصدي للاعتداءات الألمانية والإيطالية واليابانية على شرعة عصبة الأمم المتحدة والقانون الدولي، وبالمراوغة في المفاوضات التي كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية تتظاهران بأنها تجريانها معه للتنسيق بين الحكومات الثلاث للوقوف بوجه الخطر الفاشي. (والحقيقة أن الحكومتين البريطانية والفرنسية كانتا مرغمتين على التظاهر بأنها تتباحثان مع الاتحاد السوفياتي للتنسيق معه، بتأثير الضغط القوي للرأي العام في بريطانيا وفرنسا وغيرهما، والذي كان يطالب بإلحاح بالتنسيق والتحالف مع الاتحاد السوفياتي)، وكذلك بعد أن أعلنت الحكومة البولونية المتحالفة مع بريطانيا وفرنسا رفضها التنسيق العسكري مع الاتحاد السوفياتي لردع العدوان الألماني المتوقع عليها، بعد كل ذلك، سارع الاتحاد السوفياتي إلى الإفادة من التناقضات الثانوية القائمة بين الدول الامبريالية ووقع معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا النازية في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٣٩، محبطاً بذلك أحلام الحكومتين البريطانية والفرنسية اللتين بدأتا تنظران إلى المطامع الهتلرية نظرة مختلفة وترى فيها تهديداً لمصالحها المباشرة، بعد أن فقدتا الأمل بإمكانية استخدام هتلر للتخلص من النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي، ومن ثم فرض شروطها على ألمانيا التي يُفترض أن تخرج من حربها مع الاتحاد السوفياتي ضعيفة منهوكة القوى، إلى درجة يصعب عليها معها مقاومة التحالف البريطاني ـ الفرنسي المحتفظ بكامل قوته. فاضطرتا إلى إعلان الحرب على هتلر دون حماس كبير إلى درجة أنهما تعاملتا باهتمام فائق مع الحرب السوفياتية ـ الفنلندية، وكأن العدو هو الاتحاد السوفياتي وليس ألمانيا الهتلرية التي سبق لها أن أعلنتا الحرب عليها.

مما أدى إلى الانتصارات الألمانية الكاسحة في بداية الحرب، واعتقد هتلر بعد هذه الانتصارات أنه بإمكانه الانقضاض على الاتحاد السوفياتي وإحراز نصر سريع حاسم، سيما وأن الجيش السوفياتي العائد لتوه من الحرب مع فنلندا قد لحق به الأذى نتيجة المحاكمات والتطهير... وبدأ العدوان النازي على الاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١، وسقطت إتفاقية عدم الاعتداء الألمانية ـ السوفياتية التي كان واضحاً للجميع منذ توقيعها أنها لن تدوم طويلاً، وكان الطرفان يتهيآن لخوض الحرب، بيد أن هتلر هو الذي بدأها. وما ان بدأ الهجوم على الاتحاد السوفياتي حتى تحركت قوة التضامن البروليتاري الأممي وانطلقت حركات المقاومة الشعبية المسلحة في الاتحاد السوفياتي وفي غيره من بلدان أوروبا المحتلة وانتظمت في صفوف «الأنصار» تسطر صفحات مجيدة من الأعمال البطولية ضد جيوش الاحتلال. وهب عمال العالم بأسره في حركة تضامن جبارة مع بلاد السوفيات ودفاعاً عن الوطن الاشتراكي. إنها معركة مصير حاسمة، فإما المقاومة والنصر وإما الخنوع تحت نير الهتلرية وجزمات الفاشية...

وتواردت أخبار معارك الجيش الأحمر متوالية من نصر إلى نصر في مختلف الجبهات، وأخبار العمليات البطولية للأنصار خلف خطوط العدو. حملات تضامن واسعة مع بلاد السوفيات وجيشها شملت لبنان بأسره. وكان رواد الصداقة الأوائل مع بلاد السوفيات نخبة من العمال ومن المثقفين الطليعيين الذين أدركوا بعمق مدى الخطر الذي تشكله الفاشية النازية على العالم وإنسانيته. وعلى أيدي هذه النخبة الرائدة انبثق في لبنان أدب مكافح يعادي ويناهض الفاشية النازية ويصادق ويناصر الاتحاد

السوفياتي. وفي أحضان هؤلاء الأدباء وأدبهم نشأت عصبة مكافحة الفاشيستية، عام ١٩٣٧ ثم جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٤٢.

لقد ربطت النخبة الرائدة من كتاب وأدباء ومثقفي وعمال لبنان بين مستقبل لبنان والعالم العربي ومصير الدولة الاشتراكية الأولى. وعلى قاعدة هذا الفهم لتفاعل العلاقة بين مستقبل بلادنا ومصير وطن ثورة أكتوبر، اتسعت موجات التضامن مع كفاح بلاد السوفيات وصمودها في وجه العدوان النازي، تضامن امتزج بالإعجاب بأخبار البطولات الفائقة، وتحوّل إلى مراهنة مصيرية تشد من حولها عيون شعبنا وأفئدته، فمصير بلادنا والعالم بأسره يتوقف على نتائج تلك الحرب الضروس التي تدور معاركها على جبهات بلاد السوفيات، ويخوضها الشعب السوفياتي بأسره باعتبارها حربه الوطنية العظمى. فإن تمكن هتلر وحلفاؤه من النصر هناك، فمعنى ذلك أن وطننا لبنان وكل الأمة العربية ستنوء تحت نير السيطرة الفاشية التي ستقهر شعبنا بوصفه ـ وفق التصنيفات العرقية النازية ـ من الشعوب غير الجديرة بالحياة!.

هذا الإدراك الشامل والعميق الذي عممه متنورون طليعيون من أبناء شعبنا شكل الأساس الذي ارتفعت فوقه أولى مداميك الصداقة مع بلاد السوفيات. ومنه انطلقت الأصوات الحرة والكلمات الصادقة في نطاق حملات التضامن الشعبي العارمة مع وطن الاشتراكية. وبهدف تنظيم وتنسيق النشاطات والفعاليات التضامنية تشكلت في لبنان أول جمعية عربية للصداقة مع الاتحاد السوفياتي. ففي التاسع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ نشرت الصحف اللبنانية بياناً وقّعته نخبة من أدباء لبنان

ومفكريه ومناضليه ـ هم أنفسهم كان قد سبق لهم أن شكلوا «عصبة مكافحة الفاشستية» ـ يعلن تأسيس «جمعية الصداقة مع الاتحاد السوفياتي» برئاسة الأديب عمر فاخوري الذي وقّع البيان معه كل من يوسف إبراهيم يزبك وأنطون ثابت ورئيف خوري والسيدة إميلي فارس إبراهيم والمحامي حبيب ربيز والمهندس إميل بستاني والدكتور جورج حنا ونسيم نصر والمهندس فؤاد علم الدين ونقولا شاوي ورجا حوراني والمحامي ميّر مسعد والمهندس ميشال بدوره وعدد من الشخصيات الأخرى.

أعلن البيان التأسيسي: «ان الأمثلة الرائعة للبطولة والتضحية التي ما زالت تقدمها شعوب الاتحاد السوفياتي، نساءً ورجالاً وأطفالاً، في مكافحة آلة الحرب النازية، قد أثارت إعجاب الأحرار في سوريا ولبنان، كما في جميع أنحاء المعمورة. وقد اندفع الكثيرون منا يظهرون عطفهم على الاتحاد السوفياتي سواء بالكتابة أم بجمع الأموال والهدايا للجيش الأحمر [٦]. ولا غرابة في ذلك، لأن الاتحاد السوفياتي إنما يحارب للدفاع عن الحرية والعدالة بين البشر، وللقضاء على النازية والفاشيستية وأطماعها الجشعة. ولولا المقاومة الباهرة التي يبديها الجيش الأحمر وصموده في وجه الغارة النازية لأصبحت بلادنا أيضاً ساحة قتال وعرضة للتخريب والدمار. وليس هناك اليوم من شك في أن استقرار السلم العالمي وازدهار الحضارة والثقافة وتمتع الأمم الصغيرة باستقلالها متوقفة كلها على انتصار الاتحاد السوفياتي وحلفائه الديمقراطيين».

لقد ربط هؤلاء اللبنانيون الرواد دعاة الصداقة مع بلاد السوفيات، ربطوا بين الاستقلال الوطني والتحرر القومي والتقدم الاقتصادي

والصداقة مع بلاد السوفيات. ليس فقط لثقتهم وقناعتهم بالمبادىء والمثل والقيم التي ترفعها وتعمل في هديها ومن أجلها بلاد السوفيات، وإنما أيضاً إيماناً منهم بأن تمتع الشعوب الصغيرة بحقها في تقرير مصيرها ونيلها الحرية والاستقلال يرتبط باستقرار السلم العالمي، هذا السلم المتربط بدوره بهزيمة الفاشية ـ النازية في الحرب وانتصار الاتحاد السوفياتي وحلفائه.

وانطلاقاً من هذه القناعة وعلى قاعدتها، تنوعت وتعددت ونشطت فعاليات «جمعية الصداقة مع الاتحاد السوفياتي» تضامناً مع بلاد السوفيات، حتى شكلت الأرضية والخلفية الشعبية الراسخة والشاملة والتي ستنبثق منها بعد حين العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين وطن الأرز وبلاد السوفيات.

أرسل السفير السوفياتي في إيران أ. سميرنوف، وبعد الإعلان في بيروت عن تأسيس جمعية الصداقة مع الاتحاد السوفياتي، إلى رئيس الجمعية عمر فاخوري البرقية الآتية:

«إلى جناب جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي في لبنان
أشكركم، أحطنا علماً «بإنشاء جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي في لبنان وسوريا، غايتها إطلاع أبناء وطنكم على أحوال الاتحاد السوفياتي وتأييد شعوبه في دفاعها المجيد عن الحرية والعدالة والسلم والحضارة ومحاربتها الفاشية.

فمع إعرابي عن شعور الامتنان نحو أعضاء جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي الذين أعلنوا عزيمتهم الصادقة على

مساعدة شعوب الاتحاد السوفياتي في محاربتها الغزاة الفاشيست، أرجو أن يكون في مساعيكم النبيلة مساهمة كبيرة في سبيل فوز القضية المشتركة، وهي تحرير البشرية من جميع الآلام التي سببتها الفاشية. لقد دنت الساعة التي يسحق فيها اتحاد القوى بين الشعوب المشبعة بحب الحرية الطغيان الهتلري. فترفرف راية الحرية والعدل في جميع أقطار الدنيا.

أرجو منكم أن تهنئوا باسمي جميع أعضاء جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي في سوريا ولبنان»[٧].

كان باكورة نشاطات الجمعية إصدارها مجلة «أصدقاء الاتحاد السوفياتي» وتنظيمها الندوات والمحاضرات حول الحياة في الاتحاد السوفياتي وسبل تنمية وتطوير علاقات الصداقة معه. وأنشأت الجمعية في مقرها وسط بيروت شارع عبد الوهاب الإنكليزي مكتبة أغنتها بالكتب والمؤلفات المرجعية والإعلامية عن الاتحاد السوفياتي وسياسته الخارجية، ومؤلفات لينين وستالين وسواهما من مفكري وكتاب وأدباء الاتحاد السوفياتي. وغدت هذه المكتبة منهلاً للطلاب والباحثين وكل من يود الاطلاع على واقع بلاد السوفيات. ونظمت الجمعية الأمسيات الاحتفالية بمناسبة كل انتصار كبير كان يحرزه الجيش الأحمر في حربه الوطنية وبمناسبة عيد هذا الجيش، وعيد ثورة أكتوبر وسواهما من المحطات الوطنية السوفياتية.

وفي خضم المعارك الضارية التي كان يخوضها الاتحاد السوفياتي شعباً وجيشاً ضد الغزاة الهتلريين، ومنذ اليوم الأول لعدوانهم على بلد الاشتراكية الأول في ٢١ حزيران (يونيو) ١٩٤١، حيث ظلت الجبهة

السوفياتية وحيدة في غمار نار المواجهة الشاملة حتى ٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٤، شحذت أقلام كتابنا تمجيداً لبطولات الجيش السوفياتي وتضامناً مع بلاد السوفيات، وأقيمت عشرات المهرجانات الشعبية الحاشدة في هذا الإطار على وقع أخبار انتصارات جيش السلام والاشتراكية، الجيش الأحمر، الذي كان يخوض وحيداً أشرس المعارك البطولية المصيرية موجهاً الضربات القاصمة للجيوش النازية المهاجمة، حتى تمكن من تغيير مسار الحرب وتحول من الدفاع إلى الهجوم بعد انتصار ستالينغراد التاريخي الذي قلب الموازين السياسية والعسكرية السائدة وشرع الباب نحو طريق النصر النهائي الحاسم.

وكي لا يبقى الاتحاد السوفياتي مستفرداً في المواجهة، ومن أجل وضع حد سريع للحرب وإعادة السلام، طالب الرأي العام العالمي بفتح «الجبهة الثانية» في أوروبا الغربية. وكتب فرج الله الحلو يقول:

«... كل يوم يعيشه هتلر أكثر معناه خسارة عشرات الألوف من الأرواح البريئة الغالية، وفقدان الكثير من القيم العلمية والفنية والعمرانية، والصيحة التي تنطلق اليوم من صدور الملايين هي: عجلوا بفتح الجبهة الثانية تعجلوا بإنقاذ العالم»[8].

وفي مقالة أخرى له يقول فرج الله الحلو:

«إذا كان هناك خبراء حربيون لا يزالون يعارضون فتح الجبهة الثانية، فهؤلاء على الأرجح ينسون أن وراء الجيش الألماني في الشرق جيشاً أحمر جباراً باسلاً لا يطلب

سوى إشغال قسم من القوات الألمانية في الغرب حتى يشن هجومه الكبير ويطرد الألمان إلى برلين وأبعد من برلين...»[9].

غير أن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء تأخير فتح الجبهة الثانية والمماطلة والتأجيل والاكتفاء بأعمال محدودة في افريقيا الشمالية وإيطاليا لم تكن استراتيجية بقدر ما كانت سياسة تهدف إلى الشيء نفسه، إضعاف الاتحاد السوفياتي وارهاقه في الحرب مع ألمانيا. وكان هذا واضحاً للاتحاد السوفياتي ولفرج الله الحلو وللكثيرين الآخرين. بيد أنه لم يرغب أحد في حينه في فتح سجال بين الحلفاء قبل القضاء نهائياً على الطاعون النازي. ولم يقدم الحلفاء الغربيون على فتح هذه الجبهة بعد وعود طويلة إلا بعد أن تأكدوا أن الجيش الأحمر منتصر لا محالة وأنه لا بد من مشاركته النصر للمشاركة في الغنائم والحد من الآثار السلبية على مصالحهم الاستعمارية لانتصار الاتحاد السوفياتي منفرداً.

التقدير الصائب الدقيق الذي أعطاه فرج الله لواقع ومستقبل مسار الحرب بصورة عامة أرفقه بتقدير مماثل لانعكاسات الحرب في لبنان والشرقين الأدنى والأوسط في مقال آخر له جاء فيه:

«لقد نجت بلادنا، حتى الآن من نار الحرب لأن هتلر بدأ ينهزم في الجبهة السوفياتية. فإخفاقه على أبواب لينينغراد وموسكو والقفقاس حال دون تحقيق مشاريعه المجرمة في اكتساح تركيا وإيران والعراق وسوريا ولبنان وكل الشرق العربي. فلأجل أن تبقى بلادنا بنجوة من نار الحرب أولاً ولأجل أن نسير بسرعة مع جميع الشعوب نحو السلام المنشود ثانياً يجب أن يستمر اندحار هتلر أمام الجيش الأحمر في جبهة الحرب الرئيسية»[10].

هذا الموقف لم يقتصر على فرج الله الحلو وسواه من القادة والكتاب والمفكرين الشيوعيين في لبنان. بل شمل أيضاً قطاعات وهيئات أخرى لبنانية غير شيوعية رسمية وشعبية. فدور الاتحاد السوفياتي وجيشه بات في غاية الوضوح ولم يعد بالإمكان تجاهله أو إخفاؤه أو التعتيم عليه.

فقد علّق رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك الشيخ بشارة الخوري على انتصارات الجيش الأحمر بمناسبة عيد تأسيس هذا الجيش الذي يصادف في الثالث والعشرين من شباط (فبراير) كل عام، ونشرت أقواله الصحافة البيروتية في حينه علق قائلاً:

« كلما حرر الجيش الروسي قطعة من أرض الوطن، خفف هذا الجيش الضغط المحوري الذي كاد أن يخنق العالم لولا البطولة التي أبداها جنوده بالامس والهجوم المظفر الذي يقوم به اليوم. إن هذه الجيوش التي تحتفظ بمثل هذه المعنويات السامية وتبذل في كل يوم، بل في كل ساعة تقريباً مثل هذا التجرد الأكمل لأجل حرية الشعوب واستقلالها تستحق عرفان جميل العالم وتقديره »(١١).

كما أن رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك سامي الصلح قال في الصدد ذاته والمناسبة إياها:

« أثارت بطولة الجيوش السوفياتية إعجاب العالم بأسره، وكانت بمثابة اكتشاف للكثيرين، وما كان أحد يجهل جودة السلاح الروسي وكل المعدات الروسية، ولكن بعض الناس كانوا يرتابون في روح التضحية التي تفعم قلب الجندي الأحمر. فجاءت الحوادث ترغم أكثر المرتابين شكاً في تلك الروح على تنكيس الرأس أمام تجرد الجيش السوفياتي وأمام ثباته ووطنيته وشجاعته »(١٢).

وقال مصطفى العريس رئيس الاتحاد العام للنقابات في لبنان في مناسبة عيد الجيش الأحمر عام ١٩٤٣: « إن انتصارات الجيش الأحمر لم تفاجىء العمال، لأنهم كانوا منذ البدء واثقين ومؤمنين بأن هذا الجيش، جيش ثورة أكتوبر يستطيع إيقاع الهزيمة بالجيوش النازية، وقد أوقعها فعلاً والعمال في البلاد العربية، كبقية عمال العالم يدركون تماماً أن انتصار الجيش الأحمر هو انتصار حريتهم وحرية بلادهم »(١٣).

وفي نطاق النشاطات التضامنية مع بلاد السوفيات التي نظمتها « جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي »، أقامت الجمعية من ١٨ شباط (فبراير) حتى ٤ آذار (مارس) ١٩٤٤ معرض « الاتحاد السوفياتي في الحرب » في قاعة التياترو الكبير في العاصمة بيروت، عرضت فيه الصور الفوتوغرافية المعبرة عن الحرب الوطنية العظمى التي يخوضها الشعب السوفياتي ومختلف جوانب الحياة في بلاد السوفيات خلال الحرب. وقد زار المعرض الألوف من اللبنانيين من مختلف الفئات والطبقات والأعمار. وكتب الأديب اللبناني رئيف خوري حول المعرض المذكور يقول: « عندما كان الجيش الهتلري يدمر الدنيا كان الناس يقولون: ما أعظم الدبابة! ما أعظم الطيارة! ما أعظم المدفع! أما اليوم والجيش السوفياتي يندفع اندفاعه العاصف، فلا تذهب أفكار الناس إلى الدبابة ولا الطيارة ولا المدفع. الناس يكتفون بالقول: ما أعظم الإنسان! »(١٤).

وأبرق فلاديمير كيمنوف رئيس جمعية العلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفياتي والبلدان الأجنبية إلى عمر فاخوري رئيس جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي معرباً عن شكره وتقديره للذين نظموا في بيروت معرض « الاتحاد السوفياتي في الحرب »(١٥).

وفي يوم اختتام المعرض في ٥ آذار (مارس) ١٩٤٤ كانت جمعية الأصدقاء قد بدأت بعرض فيلم « ستالينغراد » في دار سينما هوليود في بيروت. وهكذا تتابعت نشاطات الجمعية على أكثر من صعيد، وأصدرت مجلة الطريق[١٦] في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ عدداً خاصاً بمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لثورة أكتوبر. ومن الأعمال المميزة للجمعية إصدارها في السابع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤، وبمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لثورة أكتوبر، في كراس خاص دراسة الأديب عمر فاخوري رئيس الجمعية التي كتبها بعنوان: « الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية ». صدر الكراس بألوف النسخ وتناقلته الأيدي على نطاق واسع في لبنان وسوريا، وتعرف الدراسة القارىء بأسلوب بسيط مشوق وهادىء على مجمل جوانب الحياة في الاتحاد السوفياتي بعد الثورة: الحرية والعدالة والمساواة وتطور الزراعة والصناعة ونهوض الثقافة والدستور السوفياتي والديمقراطية الشعبية وقضايا الدين وحياة العائلة السوفياتية إلخ...

كل هذه الأسس في النظام السوفياتي الجديد هي، كما يقول عمر فاخوري، « في أساس صداقتنا الراسخة مع الاتحاد السوفياتي، فضلاً عن بطولة الشعب والجيش السوفياتي في تصديهما لجحافل النازية ». وفي هذا الصدد يقول فاخوري في دراسته: « لا مراء في أن البطولة السوفياتية هي أحد العوامل التي تحملنا على مصادقة الاتحاد السوفياتي.. الذي ساهم في حماية بلادنا من أن ينزل بها من الكوارث والمحن ما نزل بالأراضي البلجيكية أو الفرنسية أو النروجية أو اليوغسلافية... ولا بأس أن نقول إن الاتحاد السوفياتي كان عاملاً رئيسيا في إنقاذنا من ويلات الحرب ومما هو أدهى، أعني ويلات الاحتلال النازي »[١٧].

شكل هذا البحث القيم للأديب عمر فاخوري وسواه من الأبحاث والمقالات والمؤلفات، ومن أبرزها كتاب: « الحياة في روسيا السوفياتية » الذي كان قد صدر في العام ١٩٤٢ لمؤلفه يوسف خطار الحلو، كما شكلت مجمل نشاطات جمعية « أصدقاء الاتحاد السوفياتي » في الواقع، الأرضية الخصبة والتمهيد الشعبي والوطني لإقامة العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين لبنان والاتحاد السوفياتي. فكيف تمت إقامة هذه العلاقات ومتى وكيف نمت وتطورت؟

هوامش

(١) يوسف خطار الحلو: قصة النصر الكبير. ص ٢٧. بيروت ١٩٨٥. دار الفارابي.

(٢) شارك في مؤتمر ميونيخ كل من تشامبرلين وهاليفاكس عن بريطانيا العظمى ودلاديه وبونيه عن فرنسا وهتلر وريبنتروب عن ألمانيا وموسوليني وشيانو عن إيطاليا.

(٣) تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي، مجموعة مؤلفين سوفيات. ص(٣، ٤). دار التقدم موسكو ١٩٧٥- الجزء الأول.

(٤) W. churehill. The world crisis.. Vol 5. p 24 - 25.

(٥) جريدة ازفستيا السوفياتية. ٢٠ آذار (مارس) ١٩٣٩.

(٦) يقول يوسف خطار الحلو في كتابه: « قصة النصر الكبير » إنه خلال الحرب وخاصة بعد معركة ستالينغراد قدمت نخبة من نساء لبنان كنزات الصوف هدايا رمزية للجيش الأحمر. وشكل المثقفون اللبنانيون لجنة برئاسة الصحافي جبران تويني لجمع الهدايا الرمزية وتقديمها للجيش الأحمر.

(٧) يوسف خطار الحلو، قصة النصر الكبير. مرجع سابق، ص ١١١.

(٨) جريدة صوت الشعب اللبنانية ١٩٤٢/٧/٢٢.

(٩) جريدة صوت الشعب اللبنانية ١٩٤٢/١٠/١٧.

(١٠) جريدة « صوت الشعب » اللبنانية. ١٩٤٢/٢/٤.

(١١) يوسف خطار الحلو، قصة النصر الكبير. مرجع سابق، ص ١١٤.

(١٢) يوسف خطار الحلو، قصة النصر الكبير، مرجع سابق. ص ١١٥.

(١٣) يوسف خطار الحلو. قصة النصر الكبير. مرجع سابق. ص١١٦.

(١٤) جريدة «صوت الشعب» اللبنانية، ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٤٤.

(١٥) يوسف خطار الحلو، قصة النصر الكبير، مرجع سابق، ص١١٢.

(١٦) مجلة «الطريق» اللبنانية وقبلها «الطليعة» و«الدهور» و«الإنسانية» و«صوت العمال» و«صوت الشعب» ثم «الثقافة الوطنية» و«الأخبار» و«النداء» وسواها كانت في طليعة الصحف والمجلات والدوريات اللبنانية التي حملت إلى شعبنا أولى الكتابات والحقائق عن بلاد السوفيات في مختلف الميادين والحقول.

(١٧) عمر فاخوري، الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية، ص ٢٤، بيروت ١٩٤٤. منشورات «جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي» في لبنان.

٢ ـ علاقات دبلوماسية بين وطن الأرز وبلاد السوفيات

حرمت سيطرة الانتداب الفرنسي على لبنان الشعب اللبناني لأكثر من عشرين سنة من امكانية تقرير مصيره، واختيار علاقاته الحرة مع دول العالم بما فيها الدولة السوفياتية. ومع ذلك وبالرغم من معارضة سلطات الاحتلال الفرنسي، افتتح في بيروت العام ١٩٢٥ مكتب «أركوس» كممثل رسمي لمفوضية الشعب للتجارة الخارجية في الاتحاد السوفياتي. وأثار نشاط المكتب اهتماماً كبيراً في الأوساط اللبنانية. وأقيمت اتصالات تجارية أولى بين المكتب وبعض رجال الأعمال اللبنانيين في بيروت، ولقي الممثلان السوفياتيان وكان أحدهما أ. ستوباك ترحيباً ودياً من الرأي العام اللبناني الذي كان يبدي تطلعاً صادقاً لمعرفة الحقيقة حول الواقع السوفياتي، وإقامة العلاقات الودية مع البلاد التي سمع نداءاتها إلى شعوب الشرق، والتي عارضت منذ البداية نظام الانتداب الاستعماري، وطالبت باعطاء الشعوب حقها الكامل في تقرير مصيرها. ولقد أثار ترحيب اللبنانيين بممثلي الدولة السوفياتية خشية سلطات الاحتلال، التي رفعت، بذريعة زائفة، دعوى ضد ممثلي «أركوس»، وبالرغم من أن المحقق العسكري اضطر لطي التحقيق وإقفاله لعدم توفر الأدلة حول اشتراك ممثلي «أركوس» في ثورة جبل الدروز أو حول قيامها بنشاط غير «مشروع»، فقد أغلقت سلطات الانتداب مكتب «أركوس» وطردت موظفيه من لبنان...

تبدلت هذه الصورة تماماً منذ مطلع الأربعينات وفي أعقاب الحرب

العالمية الثانية التي انهار بعدها نظام الانتداب الاستعماري، وتمكنت الشعوب المستعمرة من التحرر وامتلاك حقها في الاستقلال وتقرير المصير. ومن بينها شعب لبنان الذي أحرز استقلاله وخلع القيود التي منعته سابقاً من إقامة العلاقات مع بلاد السوفيات باعتبارها الدولة الأولى التي رفضت نظام الانتداب وأول من اعترف باستقلال لبنان وسيادته.

فعلى خلفية صلات الصداقة الشعبية التي كانت قد نمت بين شعبنا اللبناني والشعب السوفياتي عبر «جمعية الصداقة مع الاتحاد السوفياتي»، وصل إلى بيروت أوائل العام ١٩٤٤ موظفان من مفوضية التجارة الخارجية السوفياتية في نطاق جولة شملت لبنان وفلسطين وسوريا، للبحث في قضايا التبادل التجاري، وفي شهر أيار (مايو) من العام ذاته قام بجولة في بعض اقطار الشرق الأوسط عبد الرحمن سلطانوف السكرتير الثاني للمفوضية الروسية في القاهرة[١]. ووصل إلى بيروت أيضاً ميخائيل كوروستوفتسيف مراسل وكالة «تاس» السوفياتية الرسمية في مصر. وفي اليوم الأخير من شهر تموز (يوليو) ١٩٤٤ أبرق وزير الخارجية اللبنانية سليم تقلا إلى وزارة الخارجية السوفياتية، عبر السفارة السوفياتية في طهران، باسم حكومة الجمهورية اللبنانية البرقة الآتي نصها:

«إلى حضرة مفوض الشعب للشؤون الخارجية ـ موسكو،
تعرب حكومة الجمهورية اللبنانية عن الرغبة الحارة والودية بإقامة علاقات دبلوماسية مع حكومة الاتحاد السوفياتي. وهذه الرغبة تتفق مع الأماني العميقة للشعب اللبناني المفعم بالإعجاب العظيم للبطولة الرائعة لشعوب الاتحاد السوفياتي، وبالمبادىء النبيلة التي تلهم السياسة الخارجية لقيادتها. إن الشعب اللبناني الذي ناضل خلال

سنوات طويلة في سبيل استقلاله وسيادته اللذين انتزعهما مؤخراً بصورة تامة على اقتناع عميق بأن السياسة الخارجية السوفياتية تقوم على احترام الحرية وعلى المساواة المبدئيين، اللذين لا يتفقان مع محاولات الاغتصاب والسيطرة، ولا مع الامتيازات وغير ذلك من المزايا التي كانت تستفيد منها روسيا القيصرية[٢].

سليم تقلا
وزير الخارجية اللبنانية

تعكس هذه الكلمات الدقيقة في تعبيرها والصريحة في توجهها بصدق وأمانة مشاعر الشعب اللبناني وإرادته وأمانيه. فالاعجاب العظيم ببطولة الشعب السوفياتي والتفهم العميق للمبادىء النبيلة التي تلهم السياسة الخارجية لقادة الدولة السوفياتية، هذه السياسة التي اقتنعت الشعوب بصدق توجهاتها المناقضة لتوجهات سياسة الدول الاستعمارية القائمة على مطامع الاستغلال والاغتصاب والسيطرة حملت الدول الفتية المتحررة للمسارعة إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية مع بلاد السوفيات، هذه البلاد التي في رأس مبادىء سياستها الخارجية دعم الشعوب وحقها المطلق في تقرير مصيرها، ومساندة الشعوب المناضلة من أجل نيل حريتها وإحراز استقلالها وتحقيق سيادتها الوطنية ودعمها بكافة الوسائل المتاحة. لقد شقت بلاد السوفيات طريقاً جديداً في الحياة السياسية الدولية المعاصرة. هو طريق العدالة، والمساواة في العلاقات الدولية بين الدول كبيرها وصغيرها، قديمها وجديدها، دون تمييز أو تفريق أو سيطرة أو إخضاع. فقبل انتصار ثورة اكتوبر وقيام الدولة السوفياتية لم يكن هناك في ميدان العلاقات الدولية اعتراف أو احترام للدول الصغيرة أو الضعيفة وسيادتها

واستقلالها. كانت العلاقات الدولية تقتصر على الدول الكبرى والقوية المسيطرة دون سواها، تقيم العلاقات المتبادلة فيما بينها. بينما كانت الدول الصغيرة والضعيفة وشعوبها حقل تنافس بين الدول الاستعمارية وميدان استغلال وسيطرة. فإذا ما اتفقت الدول الاستعمارية الكبرى، فاتفاقها يكون على حساب الدول الصغيرة والضعيفة والشعوب النامية، وإذا ما اختلفت وتحاربت فمن أجل اقتسام السيطرة على تلك الدول وشعوبها التي لم تكن إلا مجرد توابع وملحقات ومستعمرات وأشباه مستعمرات، وكلها تقع في دائرة السيطرة الاستعمارية العالمية، عديمة الاستقلال، منهوكة السيادة ومسلوبة الحقوق، ثرواتها مغتصبة وأرضها مستباحة، ولا مكان لها في إطار العلاقات الدولية ولا تمتع بالشخصية المعنوية في نطاق القانون الدولي العام.

أحدثت ثورة اكتوبر، والدولة التي أنشأتها تحولاً في مجرى العلاقات الدولية، باتباعها سياسة جديدة عندما ولأول مرة في التاريخ لم تكتفِ باعلان الاعتراف بالدول الصغيرة والضعيفة واحترامها وإقامة العلاقة المتبادلة معها على أسس الاحترام والتكافؤ وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، وبوضع هذه السياسة موضع التنفيذ والتطبيق العملي بل ودعمت تلك الدول وشعوبها في نهضتها التحررية وكفاحها الوطني من أجل تحررها واستقلالها، وقدمت لها المعونة الاقتصادية الشاملة.

كل هذه المزايا التي عرفتها الشعوب في سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية، كانت في أساس مواقف الصداقة والاعجاب والتقدير والاحترام التي عبّرت عنها الشعوب المناضلة المستعمرة والحديثة الاستقلال (ومنها شعبنا اللبناني) تجاه بلاد السوفيات وثورتها وقادتها وحزبها وشعبها. وكان من الطبيعي والبديهي أن يأتي الموقف الرسمي ليكمل

ويتوج الموقف الشعبي لجهة إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الدولة السوفياتية. وهذا بالتحديد ما تمثل في برقية وزير الخارجية اللبنانية سليم تقلا إلى الخارجية السوفياتية. وكيف لا تكون الرغبة اللبنانية الرسمية حارة وودية في إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي وهو البلد الأول الذي سارع منذ بداية الأمر إلى رفض نظام الانتداب وعدم الاعتراف به وفي العام ١٩٤١ دعم نضال شعبنا في سبيل الاستقلال وأدان بشدة وحزم ممارسات سلطة الانتداب الفرنسي ضد لبنان وشعبه خاصة في الأيام العشرة لمعركة الاستقلال بين ١١ و ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣. والاتحاد السوفياتي إلى ذلك كان الدولة الكبرى الأولى التي اعترفت باستقلال لبنان، معززة بذلك مركز لبنان على الصعيد الدولي الذي أدخله الاعتراف السوفياتي إلى الأسرة الدولية كدولة حرة ذات سيادة تتساوى مع جميع الدول الأخرى ذات السيادة. وها هي الحكومة السوفياتية رداً على برقية وزير الخارجية اللبنانية تبرق إلى الحكومة اللبنانية بالبرقية الجوابية الآتية:

« تقدر حكومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية أرفع التقدير المشاعر التي أعربتم عنها باسم الجمهورية اللبنانية تجاه بطولة شعوب الاتحاد السوفياتي التي أبدتها في النضال ضد المانيا الهتلرية وشركائها، وتقبل الحكومة السوفياتية بارتياح اقتراح الحكومة اللبنانية بإقامة علاقات دبلوماسية ودية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان » [٣].

بعد هذا التطور الهام في سياسة لبنان الخارجية والاعلان المتبادل اللبناني ـ السوفياتي بإقامة علاقات دبلوماسية ودية بين البلدين، وصل إلى بيروت نوفيكوف سفير الاتحاد السوفياتي في مصر في الرابع من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٤. حيث جرى له استقبال رسمي وشعبي حافل،

بوصفه أول ممثل رسمي للدولة السوفياتية يزور لبنان بعد إقامة العلاقات الرسمية بين البلدين، وبنتيجة محادثات السفير نوفيكوف مع المسؤولين اللبنانيين، وصل في تشرين الأول، (اكتوبر) إلى بيروت دانيال سولود الذي عينته الحكومة السوفياتية وزيراً مفوضاً لها في لبنان وسوريا.

وفي ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٤، الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر ذلك اليوم الاثنين، قدم دانيال سولود، الوزير السوفياتي المفوض، أوراق اعتماده إلى رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري، في جو احتفالي لم يقتصر على التقاليد والاجراءات الرسمية التي يعمل بها وفق البروتوكول الدبلوماسي، بل إن مجموعات شعبية (وهذا ما لا يحصل عادة في مثل هذه المناسبات الرسمية البروتوكولية) أبت إلا أن تشارك في استقبال الوزير السوفياتي المفوض على مدخل السراي الحكومي (المقر الرسمي آنذاك لسلطة لبنان التنفيذية، رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة ومقر مجلس الوزراء) بالهتاف والتصفيق والزغاريد تعبيراً عن الصداقة والمحبة والشكر الجزيل لشعب وحكومة الاتحاد السوفياتي. قدم الوزير المفوض أوراق اعتماده إلى رئيس الجمهورية اللبنانية وتبادل الأحاديث معه في جو ودي حار طيلة ساعة من الزمن، ثم انتقل إلى ديوان وزارة الخارجية حيث استقبله الوزير سليم تقلا، ومن ثم إلى ديوان رئاسة الوزراء حيث استقبله الرئيس رياض الصلح، وبعد إتمام الزيارة ومغادرة الوزير السوفياتي المفوض أدلى رياض الصلح رئيس مجلس الوزراء اللبناني بتصريح للصحافيين قال فيه: «عندما أتى السفير نوفيكوف إلى لبنان قلت إن اعتراف روسيا بلبنان كدولة مستقلة بدون قيد ولا شرط هو مرحلة كبيرة من مراحل الجهاد الاستقلالي في لبنان. وإن مجيء الوزير المفوض السيد سولود الآن هو تحقيق لهذا الاعتراف. ونحن نعتقد أن

العلاقات بين البلدين ستدوم وتتوطد وتعود بالخير على كل منها»(٤).

أولى ثمار الموقع الدولي الجديد للبنان، الذي احتله بتأثير الاعتراف السوفياتي بالجمهورية اللبنانية المستقلة السيدة، ونتيجة إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، كانت مشاركة لبنان في مؤتمر سان فرانسيسكو لتأسيس هيئة الأمم المتحدة. ففي شهر آذار (مارس) ١٩٤٥ كانت دول العالم منشغلة بتقرير مصير الهيئة الدولية، والدول الحديثة الاستقلال تسعى للمشاركة في هذا المؤتمر التأسيسي. وأعار لبنان من جهته هذه المسألة أهمية فائقة وسعى ليكون في عداد الدول المشاركة والمؤسسة، مما يفترض دعماً دولياً لمسعى لبنان هذا، فأين سيسعى لبنان وأين سيجد الدعم اللازم؟ فرنسا وبريطانيا ما زالتا تحتفظان بقوات عسكرية على الأرض اللبنانية والسورية رغم إرادة اللبنانيين والسوريين، ولن تدعما لبنان في مسعاه، فتوجهت أنظار الحكومة اللبنانية إلى موسكو. طلب رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك عبد الحميد كرامي من موسكو استخدام نفوذها لتأمين حضور وفد لبناني رسمي مؤتمر سان فرانسيسكو. وكتب كرامي إلى ستالين يطلب منه أن «يستخدم نفوذه الشخصي من أجل الاعتراف بحقوق لبنان كعضو كامل الحقوق في المجتمع الدولي وواحدة من الدول التي أسهمت في انتصار الحلفاء على المانيا الفاشية وبالتالي تمكين لبنان من المشاركة في مؤتمر سان فرانسيسكو».

استجاب الاتحاد السوفياتي على الفور لطلب لبنان وقام بكل المساعي اللازمة ودعي لبنان للمشاركة في المؤتمر وتمثل فيه بوفد رسمي ترأسه وديع نعيم، وبذا أصبح لبنان إحدى الدول المؤسسة لهيئة الأمم المتحدة والعضو الكامل الحقوق في المنظمة العالمية وجميع المؤسسات الدولية التابعة لها.

تمن لبنان الوفي لاصدقائه عالياً مساعدة الاتحاد السوفياتي ودعمه، ووجه هنري فرعون وزير خارجية لبنان آنذاك برقية شكر إلى مفوض الشعب للشؤون الخارجية السوفياتية (وزير الخارجية) أعرب فيها باسم لبنان حكومة وشعباً عن الشكر الصادق للاتحاد السوفياتي على التأييد الذي «تفضلت حكومتكم بمنحه للبنان»[٦].

وهكذا وقبل أن تمضي سنة واحدة على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين لبنان والاتحاد السوفياتي، ترسخت عرى الصداقة على المستوى الرسمي بين البلدين، وتوسعت قاعدة أصدقاء الاتحاد السوفياتي في لبنان وتنوعت وتعددت نشاطات جمعية الصداقة، وكل ذلك كان يجري على وقع الانتصارات الجبارة التي كان يحققها الجيش السوفياتي في نضاله البطولي من أجل دحر المعتدين النازيين الفاشيست، واجلائهم عن الأرض السوفياتية التي سبق لهم أن احتلوها ووضع حد نهائي للحرب العالمية الثانية.

أقام الفرع النسائي في جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي، وبمناسبة عيد الجيش الأحمر في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٤٥، مهرجاناً شعبياً حاشداً وسط العاصمة بيروت في قاعة سينما روكسي تحدث خلاله عن الجيش الأحمر وبطولاته ومعنى انتصاراته وانعكاساتها في لبنان والمنطقة، عدد من الخطباء كان بينهم أديب لبنان رئيس «جمعية الصداقة مع الاتحاد السوفياتي» عمر فاخوري، لم يقتصر الاحتفال هذه المرة على القوى والشخصيات الوطنية غير الرسمية، بل إن عدداً كبيراً من النواب والوزراء والشخصيات السياسية الرسمية شاركت في هذا المهرجان الاحتفالي، وفي مقدمها وزير خارجية لبنان هنري فرعون الذي جلس في الصف الأمامي بجانب الوزير السوفياتي المفوض في لبنان دانيال سولود[٧].

ولا تقف مشاركة لبنان الرسمي في الاحتفالات الشعبية المقامة في إطار الصداقة مع الاتحاد السوفياتي عند مستوى تمثيل النواب والوزراء وحسب، بل إنها ترتفع إلى رئاسة الوزراء ورئاسة الجمهورية، ففي ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٤٥ وبمناسبة عيد تأسيس الجيش الأحمر نظمت جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي في قاعة المتحف الوطني «معرض الاتحاد السوفياتي» برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري. حضر حفل الافتتاح أكثر من ثلاثة آلاف شخصية سياسية يتقدمهم رئيس الوزراء عبد الحميد كرامي ونائب رئيس مجلس الوزراء نقولا غصن ووزير الداخلية وديع نعيم وسماحة مفتي الجمهورية اللبنانية محمد توفيق خالد وسيادة مطران جبل لبنان للروم الارثوذكس ايليا كرم والوزير السوفياتي المفوض سولود وعدد آخر من سفراء الدول الأوروبية والعربية المعتمدين في لبنان وقناصلها[٨]. واستمر المعرض بعد الافتتاح من ٨ حتى ١٥ آذار (مارس) وذكرت مجلة الطريق في حينه أن عدد زوار المعرض خلال اليومين الأولين فقط بلغ نحو مئة ألف شخص...

وكما تابع شعبنا أخبار انتصارات الجيش الأحمر يوماً بيوم وساعة بساعة كذلك ترقبوا بأمل وشوق يوم النصر النهائي، يوم انتصار قوى الحق والسلام وانهيار قوى البغي والموت والدمار، قوى الدولة النازية وحلفائها، وكان اليوم الثاني من شهر أيار (مايو) ١٩٤٥ عندما استسلمت برلين بعد أن اقتحمتها طلائع الجيش الأحمر. ثم كان اليوم التاسع منه عندما سقطت مدينة براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا المحتلة. وكان يوم النصر العظيم، النصر النهائي المظفر الذي وضع حداً نهائياً للمؤسسة النازية الفاشية التي استسلم قائدها هتلر منتحراً.

أخبار النصر النهائي عمت فرحتها جهات العالم الأربع على امتداد

أرجائها. هللت شعوب العالم قاطبة للنصر المجيد الذي انتهت بـه الحرب التي كانت قد بدأت في ٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، وتسببت في مقتل عشرات الملايين، وأحدثت خراباً ودماراً هائلاً لم تعرف له البشرية مثيلاً في السابق.

شملت الفرحة بيروت ولبنان كله ساحلاً وجبلاً، وعمت الاحتفالات والمهرجانات، والابتهاجات بالنصر المجيـد، وسـار الوف اللبنـانيين في تظاهرات والتقوا في تجمعات ومهرجانـات، وهتفـوا بـالتحيـة للجيش الأحمر وللاتحاد السوفياتي وشعبه العظيم.

أقيم احتفال شعبي كبير في الثاني عشر من شهر أيار (مايو) ١٩٤٥، احتفاء بالنصر العظيم في ساحة مدرسة السلام في حي الأشرفية (الشطر الشرقي من العاصمة بيروت)، وتحدث في المهرجان كل من: الأديب رئيف خوري وفؤاد قازان (وهو المناضل العـائـد لتـوه مـن فـرنسـا حيث اشترك هناك في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، في حركة المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي) ورئيس اتحاد النقابات مصطفى العريس، والشاعر ميشال قهوجي، والكولونيـل الدكتـور حليم سعـاده. غطت باقات الزهور الحمراء الشرفة المطلة على باحة السلام التي تصدرتها باقة كثيفة من الأعلام الحمراء يتوسطها العلم اللبناني. وحول الأعلام وبجوانبها ارتفعت صور ضخمة لرئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري، والزعيم السوفياتي جوزف ستالين، وصورة عمر المختار رمز النضال العربي ضد الفاشية، وصورة فرج الله الحلو قائد الحزب الشيوعي اللبناني الذي كان برفقة قياديين آخرين من الحزب في مقدمة حضور المهرجان[٩].

قال عمر فاخوري الأديب اللبناني معقباً على النصر المجيد:

«أشهد أن العالم مدين للجيش الأحمر بأثمن ما فيه، فإليه يرجع الفضل الأكبر في صيانة حريته ونزعته التقدمية من أدهى خطر عرفه التاريخ، أعني النازية، وقد يكون أبناء قومنا، لأسباب خاصة، عدا الأسباب العامة أشد الأقوام شعوراً بالجميل، على أن صداقتنا للاتحاد السوفياتي صداقة دائمة لصدورها عن طموح وطننا واندفاعه نحو عالم الغد، العالم الأفضل الذي نرجو أن نؤلف جزءاً منه، له ما لسائر الأجزاء من حقوق وعليه ما عليها من واجبات».

أما رئيف خوري، أديب لبنان فقال: «من واجبي وأنا العربي اللبناني من عامة الناس، أن اعترف بالحقيقة التالية: لـولا الجيش الأحمر ـ أولاً ـ لكان وطني الصغير والوطن العربي كله قـد أصبـح منـذ زمـن مسرحـاً لويلات الحرب والفظائع، والاحتلال النازي، وهذا وحده يكفي، لحملي على تقدير الجيش الأحمر، وحسبي وأنا الإنسان المؤمن بالفكر، وبحق القوميات في تقرير مصيرها وبمستقبل الانسانية، أن أتصور ما كان يحل بالعالم لو استطاعت النازية أن تمضي في طريقها أي لو لم يكن الجيش الأحمر، حسبي أن أتصور ذلك حتى أقول: الشرف للجيش الأحمر، الأمل للانسانية».

وهكذا كما كانت طليعة عمال لبنان وكتابه وادبـائـه هـي أول مـن استبشر بفجر ثورة اكتوبر ورأى فيها أملاً جديداً للجنس البشري، فإن هذه الطليعة كانت أيضاً أول من قـاد النضـال ضـد ظـاهـرة الفـاشيـة وخطرها، وأول من استشرف معنى النصر الذي حققه الجيش السوفياتي ضد النازية وحلفائها، فلا غرابة إذاً أن تكون الصداقة مع بلاد السوفيات

قد ولدت وترعرت في أحضان الأدب اللبناني المكافح ضد الفاشية، والمناضل من أجل حرية لبنان واستقلاله. ولا غرابة أن يكون الأدباء في لبنان في رأس المشاركين في احتفالات النصر التي عمت لبنان ابتهاجاً بانتصار الجيش السوفياتي واندحار الفاشية النازية. ولقد كانت هذه الاحتفالات والمهرجانات مناسبة تجلى من خلالها مدى رسوخ عرى الصداقة بين شعبنا وشعوب الاتحاد السوفياتي وشموليتها. وستثمر هذه الصداقة لاحقاً المزيد من تطور العلاقات الرسمية واتساعها بين البلدين عبر اتفاقات وبروتوكولات وبرامج تعاون اقتصادية وتجارية وثقافية، على قاعدة المبادىء الثابتة لسياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية، مبادىء التعايش السلمي وحق الشعوب في تقرير مصيرها والتضامن الأممي البروليتاري. وستسطع بعد وقت قصير مبادىء هذه السياسة أكثر فأكثر لدى شعبنا من خلال الموقف السوفياتي التاريخي من طلب لبنان اجلاء القوات الفرنسية والانكليزية عن أراضيه بعد نيله الاستقلال السياسي. وكذلك من خلال الموقف السوفياتي حيال انزال مشاة البحرية الأميركية في لبنان عام ١٩٥٨ عقب انهيار النظام الملكي في العراق وقيام الجمهورية هناك وانهيار حلف بغداد. وهذا ما سيكون مادة القسم الآتي من هذا الفصل.

---

(١) جريدة صوت الشعب، ٦ أيار (مايو) ١٩٤٤.
(٢) أرشيف وزارة الخارجية اللبنانية لسنة ١٩٤٤.
(٣) أرشيف الخارجية اللبنانية.
(٤) جريدة «صوت الشعب» اللبنانية، ٣١ - ١٠ - ١٩٤٤.
(٥) الرفاق، مجموعة مؤلفين لبنانيين، ص ٨٨.
(٦) أرشيف الخارجية اللبنانية.
(٧) جريدة صوت الشعب ٢٤ شباط ١٩٤٥.
(٨) مجلة الطريق، عدد ١٠ آذار ١٩٤٥.
(٩) جريدة صوت الشعب، ١٣ / ٥ / ١٩٨٧.

٣ - ١٩٤٦، ١٩٥٨: موقف سوفياتي واحد وجلاءان عسكريان أجنبيان عن لبنان

استقلال لبنان لم يكتمل في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٣ بالإفراج عن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وسواهم، من معتقل قلعة راشيا الوادي، وإقرار التعديل الدستوري الذي أزال كل أثر للانتداب من بنود الدستور، وبالتالي كل نفوذ يمكن لفرنسا أن تمارسه تحت غطاء دستوري قانوني. فاكتمال الاستقلال كان يتطلب أيضاً جلاء القوات الأجنبية الفرنسية والبريطانية عن الأراضي اللبنانية، وكي لا ينجز استقلال لبنان السياسي التام ويكتمل، سعت الحكومتان الفرنسية والبريطانية لإبقاء قواتها في لبنان وسوريا، لأمد غير محدود وبذرائع وحجج متنوعة. ولهذه الغاية عقد في ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥ اتفاق بيفن - بيدو [١] البريطاني الفرنسي الذي وافق بموجبه الطرفان المعنيان على أن يكون لهما مركز عسكري دائم في لبنان وسوريا. رفضت حكومتا لبنان وسوريا كما رفض شعباهما الاتفاق المذكور، وأصرتا على الجلاء الكامل والفوري للقوات الفرنسية البريطانية عن أراضيهما، ورفعتا شكوى مشتركة إلى مجلس الأمن الدولي، ادعتا فيها على فرنسا وبريطانيا باعتبارهما دولتين معتديتين على استقلال لبنان وسوريا البلدين العضوين في هيئة الأمم المتحدة وسيادتهما، وطلبتا إلى مجلس الأمن أن يتخذ قراراً يوصي فيه بجلاء جميع الجيوش الأجنبية عن الأراضي اللبنانية والسورية جلاءً تاماً في وقت واحد [٢].

انعقد مجلس الأمن الدولي في لندن وبدأ مناقشة القضية في جلسته

بتاريخ ١٤ شباط (فبراير) ١٩٤٦، واستمرت المناقشة خمس جلسات متتالية. حاول المفوضان الفرنسي والبريطاني المعارضـان لمطـالبـة لبنـان وسوريا بسحب قواتها منذ البداية أن يمنعا المندوبين اللبناني والسوري من حضور جلسات مجلس الأمن الدولي، باعتبار أن القضية موضوع البحث هي «حالـة» ولا يحق وفقـاً لنظـام مجلس الأمـن الدولي للاطـراف في «الحالة» الحضور والمناقشة لأن ذلك محصور في الأعضاء. ولبنان وسوريا ليسا من أعضاء مجلس الأمن. هكذا كانت بداية المناورة التي كادت أن تنجح بدعم المندوب الأميركي الذي وقف مع التيار القائل بأن المسألة «حالة» معرباً بذلك عن دعمه للموقف الفرنسي والبريطاني في مواجهة المطلب العادل للبنان وسوريا. فمن وقف إلى جانب أصحاب الشكوى؟ من ناصر لبنان وسوريا وتصدى منذ البدء للمناورة المكشوفة؟

تدخل فيشنسكي مندوب الاتحاد السوفياتي في جلسة مجلس الأمن الدولي تلك متصدياً للمناورة الفرنسية ـ البريطانية وأنصارها، معتبراً أن المسألة موضوع البحث هي حالة نزاع بين لبنان وسوريا من جهة وفرنسا وإنكلترا من جهة ثانية، ولأنها حالة نزاع فيحق للمدعي فيها، وفق نظام المنظمة الدولية ومجلس الأمن الدولي، وهو هنا سوريا ولبنان، أن يشارك في المناقشة. وبهذا الموقف السوفياتي الواضح والحازم فشلت المناورة، وتابع مجلس الأمن الدولي مناقشة الشكوى بالاستماع إلى كلمات مندوبي لبنان وسوريا من جهة، وفرنسا وبريطانيا من جهة ثانية. وفي سياق إبداء الرأي والنقاش تدخل المندوب السوفياتي ثانية، وألقى كلمة شاملة مدافعاً عن قضية لبنان وسوريا مديناً اتفاق بيفن ـ بيدو البريطاني ـ الفرنسي واصفاً إياه بأنه على الأقل استخفاف بسيادة سوريا ولبنان أو بتعبير أدق اعتداء على هذه السيادة.

وتوقف السفير فيشنسكي عند كلمة مندوب فرنسا السيد بيدو مذكراً بالوثيقة التي قدمها الجنرال بينه ممثل فرنسا إلى حكومتي سوريا ولبنان في ١٨ أيار (مايو) ١٩٤٥، وما أعلن فيها من تأييد فرنسا لاستقلال سوريا ولبنان بكل الوسائل الممكنة، ثم ناقش ما تعتبره فرنسا «مصالح خاصة» في سوريا ولبنان والسبل التي تقترحها فرنسا للدفاع عن هذه المصالح، وبيّن تناقض تلك السبل مع سيادة سوريا ولبنان، وتوقف كذلك عند كلام المندوب البريطاني الكسندر كـادوغـان مفنـداً المنطـق البريطـاني الفرنسي في ضوء نص ميثاق هيئة الأمم المتحدة، مبيناً مدى التعارض الفاضح بينهما، مؤكداً في ختام كلمته واجب مجلس الأمن الدولي في تلبية مطالب حكومتي سوريا ولبنان الملحة المنبثقة مـن حقهما في السيـادة، إذ ينبغي على مجلس الأمن أن يقرر بأن ليس هنالك أي سبب لإبقاء الجيوش الفرنسية والبريطانية في سوريا ولبنان، وأن وجود هذه الجيوش لا يبرره شيء، وأن على هذه الجيوش أن تخرج من سوريا ولبنان خلال فترة يعود إلى مجلس الأمن أمر تحديدها.

«إن الوسيلة الوحيدة لتسوية الموقف هي في تلبية مطالب الوفدين السوري واللبناني، وإني أعلن باسم الحكومة السوفياتية أن الوفد السوفياتي يؤيد هذه المطالب بحرارة»[٣].

وهكذا وبعد الموقف الواضح والمحدد للاتحاد السوفياتي الذي أعلنه مندوبه في مجلس الأمن الدولي، لم يعد لبنان وسوريا وحيدين في معركة الجلاء، ولا هما منعزلان في أرفع منتدى دولي، وبإمكانهما بالاستناد إلى الدعم السوفياتي الإصرار على مطلبهما دون الخضوع لمناورات الدبلوماسية الفرنسية ـ البريطانية ورفض القبول بأي مماطلة أو تسويف.. فـالموقـف قـاطـع في وضوحه لا يقبل أي تفسير أو تأويل، وميثاق هيئة الأمم المتحدة على

محك التجربة. منطلق كل من بريطانيا وفرنسا أولا وقبل كل شيء من « مصالحها الخاصة » وليس من المطلب العادل والمحق لسوريا ولبنان، ولا من احترام مبادىء ميثاق هيئة الأمم المتحدة، وتحقيقاً لتلك « المصالح » المتناقضة مع سيادة واستقلال لبنان وسوريا وحقوقها الوطنية المشروعة، حاول المندوبان الفرنسي والبريطاني عبر اقتراحات أصدقائهما الأميركيين والهولنديين وسواهما تمرير مشاريع قرارات غامضة لا تحقق مطالب لبنان وسوريا، وتتلاءم مع الرغبات الفرنسية والبريطانية التي جاء مشروع القرار الأميركي المقترح، معبراً عنها بصورة خاصة في عدم تحديده بصورة واضحة الطبيعة الفنية فقط للمفاوضات المقترح اجراؤها بين لبنان وسوريا من جهة، وبريطانيا وفرنسا من جهة ثانية. طالب المندوب السوفياتي بتعديل المشروع الأميركي بحيث ينص بوضوح على أن المفاوضات المقترحة فنية فقط وتتعلق بتنفيذ الجلاء. صوّت القسم الأكبر من أعضاء مجلس الأمن بريطانيا وفرنسا وأميركا وهولندا ومعها معظم الأعضاء بالموافقة على المشروع الأميركي دون ادخال التعديل السوفياتي المقترح عليه، فما كان من فيشنسكي إلا أن رفع اصبعه مستخدماً حق الفيتو، فسقط مشروع القرار الأميركي بالفيتو السوفياتي. وكانت تلك المرة الأولى التي يستخدم فيها الاتحاد السوفياتي حق النقض « الفيتو » مؤكداً بذلك ومن جديد السياسة المبدئية الثابتة للدولة السوفياتية في مناصرة وتأييد الشعوب المناضلة من أجل حريتها وحقها في تقرير المصير والسيادة الوطنية والاستقلال التام. وجاءت تجربة لبنان وسوريا، وهي التجربة الأولى بعد الحرب العالمية الثانية، لتوضح المفهوم السوفياتي لحق النقض « الفيتو ». فهو للدفاع عن مصالح الشعوب الصغيرة والنامية إذا ما حاولت الدول الاستعمارية فرض إرادتها على هذه الشعوب. وبهذا الفيتو

السوفياتي تحدد نهائياً طابع القضية على الصعيد الدولي ووضع حد نهائي لمناورات فرنسا وبريطانيا اللتين اضطرتا لاحقاً للتفاوض مع لبنان وسوريا، وانتهت المفاوضات التي جرت في باريس في أوائل آذار (مارس) ١٩٤٦ إلى اتفاق تمّ بموجبه بدء إنسحاب القوات الفرنسية والبريطانية من لبنان وسوريا في ٣٠ نيسان (ابريل) وانتهى في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦.

ولا بد من الإشارة هنا إلى مواقف الحزبين الشيوعيين الفرنسي والبريطاني المعارضة لسياسة حكومتي بلديهما والمؤيدة لمطالب لبنان وسوريا، وقد لعب في هذا الإطار دوراً هاماً الوفد الذي انتدبه الحزب الشيوعي اللبناني إلى فرنسا برئاسة نقولا شاوي والمحادثات التي أجراها مع الحزب الشيوعي الفرنسي والتي أسفرت عن دعم هذا الأخير لموقف لبنان.

ناقش مجلس النواب اللبناني نتائج جلسات مجلس الأمن في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٩ شباط (فبراير) ١٩٤٦. وتحدث خلالها العديد من النواب موجهين الشكر إلى الاتحاد السوفياتي وموقفه الصديق. قال: النائب جورج عقل « لقد انقسم رأي الدول في مجلس الأمن إلى معسكرين ورأينا فيه بجلاء ما بعده جلاء أن هناك جهة وقفت إلى جانبنا وأيدت قضيتنا الوطنية، وجهة لم تكن البيانات التي أدلت بها متفقة مع مصلحتنا. فالجهة الأولى هي التي تزعمها مندوب الاتحاد السوفياتي فدافع عن قضيتنا بشجاعة وجرأة وصراحة، ولو دافعنا نحن لما أحسنّا الدفاع عن مصلحتنا كما أحسنه. إنني اقترح شكر الدول التي أيدتنا في وجهة نظرنا التي أظهرها بجلاء مندوب الاتحاد السوفياتي »[٤].

وقال النائب يعقوب الصراف: « إن موقف فيشنسكي الذي كان له

أبعد الأثر وأطيبه، خصوصاً لما استعمل حق الفيتو، قد أتاح لنا الفرصة أن نخرج ونحن غير مقيدين بقيد، ولنا ملء الحرية أن نتعاقد أو لا نتعاقد وأتاح لنا الفرصة لأن نواصل النضال وفي سبيل الجلاء، ولقد دافع فيشنسكي عن قضيتنا بكل وسعه ولا سيما عندما رد على بيدو بقوله إن المسائل الثقافية تصان بقوة الفكر لا بقوة الجيوش» (٥).

انتدبت اللجنة التنفيذية «للمؤتمر الوطني اللبناني» وفداً من أعضائه زار الوزير السوفياتي المفوض في لبنان، وأعرب عن شكر المؤتمر للحكومة السوفياتية وتقديره لموقف السيد فيشنسكي في الدفاع عن قضية لبنان وسوريا (٦).

شكّل هذا الموقف السوفياتي المؤيد بقوة لمطلب لبنان وسوريا بالجلاء الكامل للقوات الأجنبية الفرنسية والإنكليزية، والنابع من طبيعة السياسة السوفياتية الخارجية، عنواناً ساطعاً للسياسة السوفياتية في الشرق الأوسط عامة والمشرق العربي صورة خاصة، والتي اتسمت بمناهضة الاتحاد السوفياتي لسياسة الدول الغربية في الشرقين الأدنى والأوسط، تلك السياسة التي تمحورت في الخمسينات من هذا القرن حول مبدأ اعتبار هذه المنطقة رأس جسر استراتيجي بالغ الأهمية قرب الحدود السوفياتية، وعلى قاعدة هذه الرؤية تم جرّ تركيا إلى كتلة حلف شمالي الأطلسي، وأقيمت القواعد الحربية لهذا الحلف على الأراضي التركية، وكانت الولايات المتحدة الأميركية تملك قاعدة حربية جوية في المملكة العربية السعودية، وعقدت اتفاقية توريد السلاح إلى إيران، وكانت لبريطانيا أيضاً معاهدات عسكرية مع الأردن والعراق، كل ذلك في ظل استنزاف الاحتكارات البترولية الغربية للأرباح الطائلة من استغلال بترول الشرقين

الأدنى والأوسط الذي كانت احتياطياته المكتشفة آنذاك تزيد على ٦٠ بالمئة من موارد العالم الرأسمالي من البترول.

وقبل ذلك كان الاتحاد السوفياتي خلال بحث قضية فلسطين في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ يبحث عن العرب وموقفهم للتنسيق معهم بغية تحقيق الجلاء البريطاني عن فلسطين ومنع تقسيمها، غير أن الحكام العرب آنذاك، وبغالبيتهم الساحقة، تمنعوا عن التنسيق والتعاون مع الاتحاد السوفياتي وخضعوا للضغوطات البريطانية والأميركية وساروا في ركاب سياستها، فاضطر الاتحاد السوفياتي بسبب المواقف العربية الرسمية إلى الموافقة على قرار تقسيم فلسطين الذي حاول منعه ولكنه لم يحصل على تعاون عربي رسمي معه.

وقد استغل البعض في العالم العربي، موافقة الاتحاد السوفياتي على قرار تقسيم فلسطين، متناسين التواطؤ الرسمي العربي، الذي حال دون منع الاتحاد السوفياتي لهذا القرار، استغلوا ذلك للتشهير بسياسة الاتحاد السوفياتي وشكل ذلك سنداً ملائماً للغرب في حربه الباردة ضد الاتحاد السوفياتي، وتمكن من جرّ العديد من الحكام العرب إلى هذه الحرب. وانعكس كل ذلك على العلاقات الرسمية اللبنانية ـ السوفياتية التي اعتراها البرود بتأثير الانجرار في سياق حرب الغرب الباردة ضد الاتحاد السوفياتي، وحاول البعض تحميل الاتحاد السوفياتي مسؤولية تقسيم فلسطين، ولكن سرعان ما انكشف زيف هذه الحملات إثر حرب العام ١٩٤٨ والتي ظهر فيها التواطؤ الرسمي العربي بصورة مكشوفة، مما أدى إلى وقوع تبدلات أطاحت ببعض الأنظمة العربية، شرارتها الأولى كانت ثورة ٢٣ تموز (يوليو) في مصر العام ١٩٥٢ التي كانت بداية الانطلاق

الواسع لحركة التحرر العربية في مواجهة مخططات الغرب ورفض مشاريعه التي أعدها للمنطقة العربية.

وسعياً من الدول الغربية لحماية «مصالحها» في مواجهة حركة التحرر الوطني لشعوب المنطقة التي كانت قد نهضت بانتصار ثورة تموز (يوليو) في مصر، لجأت الدول الغربية إلى إنشاء الأحلاف العسكرية في المنطقة، كما سبق لها أن فعلت في جنوبي شرقي آسيا، واستطاعت بريطانيا بمساعدة الولايات المتحدة الأميركية وبواسطة الحكم الملكي في العراق أن تنشىء حلف بغداد في العام ١٩٥٥ الذي ضم كلاً من العراق وتركيا وبريطانيا وباكستان وإيران، وساهمت الولايات المتحدة الأميركية في إنشائه وشارك ممثلوها في عمل الكثير من هيئات الحلف المذكور بما فيها اللجنة العسكرية. ومارست الولايات المتحدة وبريطانيا ضغطاً قوياً على سوريا وبعض الدول العربية الأخرى لجرها إلى حلف بغداد، وحشدت القوات العسكرية التركية والإسرائيلية على حدود سوريا للغاية نفسها. وكذلك حاولت الولايات المتحدة ثني مصر عن تطبيق اتفاقية أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ مع تشيكوسلوفاكيا المتعلقة بشراء مصر للسلاح من تشيكوسلوفاكيا ودفع ثمنه بالقطن والحاصلات الزراعية الأخرى. وهددت واشنطن باتخاذ التدابير الزاجرة. وكما رفضت سوريا تهديدات الغرب وحشوده كذلك رفضت مصر التهديدات الأميركية. ووقف الاتحاد السوفياتي إلى جانب سوريا ومصر مطالباً بوقف الاستفزازات ضد سوريا وأصدر في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٥٦ بياناً حول الأمن في الشرقين الأدنى والأوسط، حذّر فيه بأنه سيتخذ التدابير الكفيلة بالدفاع عن استقلال دول هذه المنطقة فيما لو استمرت سياسة الضغط والتهديد الامبريالية والرجعية [٧]. لم يرتدع الغرب ولم يبدل من سياسته في المنطقة

خاصة بعد قرار مصر تأميم قناة السويس. فاقتحمت القوات الإسرائيلية أراضي مصر في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦، وبعد يوم بدأت القوات البريطانية والفرنسية بالهجوم في منطقة قناة السويس. صمدت مصر جيشاً وشعباً في مواجهة المعتدين. وفي ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦ احتجت الحكومة السوفياتية احتجاجاً شديداً على العدوان على مصر، واستنكرت أعمال بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بوصفها انتهاكاً صارخاً للسلام ولالتزامات أعضاء منظمة الأمم المتحدة، وطالبت بوقف الهجوم فورا وسحب قوات المعتدين. واتخذت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قراراً اجماعياً في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦، بوقف الأعمال الحربية فوراً وسحب قوات المتدخلين من مصر. غير أن الغزاة تجاهلوا التحذير السوفياتي والقرار الدولي وتابعوا هجومهم حتى استولوا على شبه جزيرة سيناء وبور سعيد بعد يومين فقط من صدور قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. وهنا تحرك الاتحاد السوفياتي بسرعة وحزم ووجه تحذيراً خطيراً أعلن فيه تصميمه على إرسال أسطول وطائرات سوفياتية بمشاركة أعضاء آخرين في منظمة الأمم المتحدة، لوضع حد للعدوان البريطاني ـ الفرنسي ـ الإسرائيلي على مصر. فأخاف هذا الموقف الحاسم الولايات المتحدة الأميركية التي خشيت أن يؤدي التدخل السوفياتي إلى قلب موازين القوى في المنطقة إلى غير رجعة. فتدخل الرئيس ايزنهاور مع حلفائه موضحاً الموقف، وأمام وسائل الإعلام للبروز بمظهر الحكم النزيه والنصير الصديق للعرب لانقاذ مواقع الدول الغربية المتدهورة عربياً. ولم تمض بضع ساعات على إعلان هذا الإنذار السوفياتي الحاسم حتى أصدرت حكومات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل أوامرها بوقف الأعمال الحربية، واضطرت قوات العدوان للانسحاب تباعاً من الأراضي

المصرية، ولم تحل نهاية العام ١٩٥٦ وبداية العام التالي حتى كانت القوات المعتدية البريطانية والفرنسية والإسرائيلية قد انسحبت من كل الأراضي المصرية، وانتصرت مصر وشعبها بتأييد الاتحاد السوفياتي وكل قوى الحرية والتقدم في العالم ودعمها. واخفقت مغامرة السويس ودخلت حركة التحرر الوطني للشعوب العربية مرحلة جديدة متقدمة في نهضتها، تمَّ في سياقها إسقاط الحكم الملكي في العراق، وإعلان الجمهورية العراقية في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨، فتصدع حلف بغداد وتلقى ضربة قاضية في مركز القلب منه. فشرعت الولايات المتحدة الأميركية إثر ذلك، وعلى قاعدة «مبدأ أيزنهاور» الذي كان قد أعلن في مطلع العام ١٩٥٧، والذي منح بموجبه الرئيس الأميركي نفسه حق ارسال قوات إلى أي بلد من بلدان الشرقين الأدنى والأوسط إذا رأى هذا ضرورياً لمكافحة «الشيوعية الدولية»، شرعت بتدخل عسكري جديد وأنزلت مشاة بحريتها في اليوم الثاني لإعلان الجمهورية في العراق في ١٥ تموز (يوليو) ١٩٥٨ في الأراضي اللبنانية وفي ١٧ و١٨ منه نزلت القوات البريطانية المجوقلة في عمان عاصمة الأردن. عشية إنزال القوات الأميركية في بيروت، حيث كان خطر العدوان قد أصبح حقيقة، أصدرت وكالة «تاس» السوفياتية الرسمية بياناً خاصاً ندد بالممارسات الأميركية ضد لبنان الذي يريد شعبه التواق للسلام شيئاً واحداً هو العيش في سلام وصداقة مع الدول العربية المجاورة، ولكن هذا لا يناسب حسابات المستعمرين الذين يريدون تكبيل لبنان بقيود سياسية واقتصادية[٨]. وكشف الاتحاد السوفياتي بصورة مسبقة مخاطر محاولات تدخل الدول الغربية العسكري في شؤون لبنان، هذه المحاولات التي تؤدي حتماً إلى زيادة حدة التوتر الدولي، وحذر من أنه لا يمكن أن يقف

موقف اللامبالاة من استعدادات التدخل الخارجي في لبنان مهما كانت ذرائع هذا التدخل[٩].

وحين أقدمت الولايات المتحدة الأميركية على مغامرتها العسكرية، رغم التحذير السوفياتي، وأنزلت مشاة بحريتها في لبنان في ١٥ و١٦ تموز (يوليو) العام ١٩٥٨، أصدرت الحكومة السوفياتية بياناً وصفت فيه انزال القوات الأميركية في بيروت بأنه تدخل مسلح ليس ضد لبنان فحسب بل ضد البلدان العربية المتحررة كافة، ودعت الحكومة السوفياتية، الولايات المتحدة بالحاح إلى وقف تدخلها المسلح في لبنان وسحب قواتها منه فوراً، وأعلنت أن الاتحاد السوفياتي لا يمكنه أن يقف مكتوف الأيدي حيال هذا التدخل الذي يخلق خطراً جدياً في المنطقة المتاخمة لحدوده، ويحتفظ بحقه في اتخاذ الإجراءات الضرورية التي تمليها مصلحة صيانة السلام والأمن[١٠].

وفي ١٩ تموز (يوليو) حذّر رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي في رسائله إلى رؤساء حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والهند، من أن تدخل الامبرياليين المسلح في لبنان والأردن، وخطر العدوان على العراق وسواه من الدول العربية، قد يؤديان إلى عواقب خطرة للغاية وغير متوقعة، وقد يثيران ردود فعل متسلسلة سيكون من المتعذر إيقافها. واقترح كتدابير عملية عاجلة سحب قوات المتدخلين على وجه السرعة، وعقد مؤتمر لرؤساء حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والهند لتسوية قضايا الشرق الأدنى[١١] ونبّه الاتحاد السوفياتي حكومات المانيا الغربية وايطاليا وإسرائيل إلى ما قد يحدث لو استُخدِمت أراضيها وفضاؤها الجوي لنقل قوات المتدخلين.

في هذا الوقت شهد الاتحاد السوفياتي موجة من التحركات الشعبية العارمة، أعرب فيها أبناء الشعب السوفياتي عن احتجاجهم على العدوان الأميركي والبريطاني ضد لبنان والأردن، ووجهت النقابات السوفياتية نداء إلى نقابات وشغيلة العالم جاء فيه: « تجتاز البشرية فترة مخيفة ومليئة بالمسؤولية، إن حكومتي الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا قامتا منتهكتين بوحشية شرعية هيئة الأمم المتحدة بتدخل مسلح ضد لبنان والأردن. إن استقلال بلدان الشرقين الأدنى والأوسط الأخرى في خطر. والمغامرة العسكرية الأميركية ـ الإنكليزية تخفي وراءها الخطر المباشر لحرب هي من أشد الحروب رعباً وأكثرها تدميراً، حرب لم يشهد التاريخ لها مثيلاً »[١٢].

ووجهت لجنة النساء السوفيات بياناً إلى جميع الأمهات والنساء في العالم، أعربت فيه عن سخطها العميق على تدخل المستعمرين الأميركيين والإنكليز في الشرق العربي، ودعت رفيقاتهن في الخارج إلى أن يخضن بنشاط، النضال من أجل تلافي حرب جديدة[١٣].

وأعربت اللجنة المركزية للكومسومول السوفياتي باسم منظمات الشبيبة في الاتحاد السوفياتي عن سخطها وغضبها على المتدخلين البريطانيين والأميركيين، مطالبة بوقف مغامرتهم العسكرية على الفور، وبانسحاب القوات الأميركية والبريطانية من لبنان والأردن. وأعلنت تضامن الشباب والشابات السوفياتيين مع الشعوب العربية وشبيبتها التي تدافع ببطولة عن حريتها واستقلالها[١٤].

وعقدت عشرات الاجتماعات العمالية الحاشدة في موسكو وسواها من المدن السوفياتية الكبرى احتجاجاً على العدوان وتضامناً مع شعبي لبنان

والأردن وكل الشعوب العربية تحت شعارات.

ارفعوا أيديكم عن لبنان!

ارفعوا أيديكم عن الأردن!

دعوا الشعوب العربية بسلام!

وبعثت اللجنة السوفياتية للدفاع عن السلام، واللجنة السوفياتية للتضامن مع البلدان الأفريقية ـ الأسيوية إلى داغ همرشولد أمين عام منظمة الأمم المتحدة برقية تبلغانه فيها أنها تلقتا في الأيام العشرة الأخيرة، قرارات لا تعد ولا تحصى اتخذت في الاحتشادات والاجتماعات التي عقدها العمال والمستخدمون والكولخوزيون والطلبة والتلامذة، تدين تدخل القوات الأميركية العسكري في لبنان، والقوات البريطانية في الأردن وتحضير هذين البلدين بصورة مكشوفة لشن هجوم على العراق والبلدان العربية الأخرى، مما أثار عاصفة من الغضب والسخط لدى جميع السوفياتيين، الذين اجمعوا على المطالبة بوضع حد فوري للعدوان البريطاني الأميركي في الشرق العربي، هذا العدوان الذي يخلق تهديداً حقيقياً بإشعال حريق عالمي[١٥].

لقد طرحت تظاهرات الشغيلة واجتماعاتهم في سائر الأرجاء السوفياتية قضية التدخل الأميركي والبريطاني في لبنان والأردن، باعتبارها قضية تهدد بخطر حرب عالمية شاملة جديدة، وهذا ما توقفت عنده جدياً الأوساط الحاكمة الأميركية والبريطانية، وجعلها تفكر ملياً بمعنى التحرك الشعبي السوفياتي الذي طرح القضية بكل حدتها وصراحتها، وكيف سينعكس هذا في مضمون القرار الرسمي الذي قد يتخذه الاتحاد السوفياتي في حال استمرار التدخل. تجربة السويس عام ١٩٥٦ وتجربة تهديد سوريا عام ١٩٥٧ ما زالتا طريتين في الأذهان، ولم يجف بعد حبر

الإنذارين السوفياتيين في كلا الحالتين. فكيف سيكون التحرك على مستوى اتخاذ القرار في العاصمتين الأميركية والبريطانية في مواجهة التحركات الشعبية العارمة في الاتحاد السوفياتي، وما تعنيه من تعبئة وتحضير لاتخاذ القرار الحكومي السوفياتي الحازم والنهائي؟

تواصلت النداءات السوفياتية والتظاهرات يوماً بعد يوم، وشملت الكنيسة الروسية ورجال الدين المسلمين السوفيات وعلماء الاتحاد السوفياتي، بعدما كانت قد شملت الشغيلة والكولخوزيين والطلاب. وكلها تلح على تبيان مدى خطورة الوضع في المشرق العربي الذي يهدد سلام العالم بأسره. وجهت الكنيسة الروسية بلسان البطريرك الكسي بطريرك موسكو وكل روسيا، وأعضاء مجمعها المقدس الدائم نداءً إلى ممثلي الكنائس الأبرار في العالم وإلى جميع المسيحيين أعلنت فيه «أنه مع غزو القوات الأميركية للبنان والقوات البريطانية للأردن خيّم الظلام المرعب على العالم من جديد وأضفى على سماء المستقبل ستاراً أسود... ولا يمكننا أن نغمض الأعين عن ذلك. فإذا لم تُعِرْ حكومتنا الولايات المتحدة وبريطانيا السمع لصوت العقل أمكن لانفجار العدوان في لبنان والأردن أن يسجل بسهولة بداية حرب عالمية جديدة هي من أشد الحروب رعباً، يموت فيها مئات ملايين الناس كما يتعرض فيها عدد أكبر للعوز والموت البطيء نتيجة الجوع والأمراض»(١٦).

وفي رسالة رجال الدين المسلمين في الاتحاد السوفياتي إلى مسلمي العالم أجمع، والتي حملت تواقيع كل من ضياء الدين باباخانوف رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، والمفتي شاكر خيال الدينوف رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفياتي، ومحمد

قربانوف رئيس الإدارة الدينية لمسلمين القفقاس الشمالي وداغستان، وشيخ الإسلام موسوم حكيم زاده رئيس الإدارة الدينية لمسلمي عبر القفقاس، وعدد آخر من رجال الدين المسلمين أعضاء الإدارات الدينية، توجه المسلمون السوفيات إلى إخوانهم المسلمين في العالم بقولهم: «إن البشرية تجتاز لحظة رهيبة تنذر بالخطر... إن الجيوش الأميركية والبريطانية دخلت إلى لبنان والأردن الواقعين على بعد الآف الكيلومترات من حدود أميركا وبريطانيا ليس لتأمين سلامة الرعايا الأميركيين والبريطانيين الذين يقطنون هناك، كما يعلنون بصورة كاذبة، بل لإعادة نظام الاستعمار والاستعباد في الشرقين الأدنى والأوسط وتعزيزه، بقوة السلاح. إن البشرية على أبواب حرب عالمية جديدة.

إننا نعلن بصوت عالٍ لإخواننا وأخواتنا في لبنان والعراق والأردن والبلدان العربية الأخرى، أن شعوب الاتحاد السوفياتي هي معكم في ساعات المحنة هذه. وتطالب بشدة مع جميع الشعوب المحبة للسلام بأن تتخذ التدابير العاجلة لوقف التدخل المسلح لتلافي خطر حرب جديدة»(١٧).

وفي ندائهم إلى علماء العالم تساءل العلماء السوفيات عما «إذا كانت الإنسانية تقبل باندلاع حريق جديد يؤدي إلى الإبادة الشاملة للبشر، وخسارة القيم العالمية للعلم والثقافة؟ أليس من الجنون السياسي إثارة جماح حرب للإبادة الشاملة العالمية باسم غاية لا أمل فيها ولا مستقبل لها وهي وضع شعوب الشرق العربي مجدداً في حالة من التبعية الاستعمارية؟.

إننا نتوجه إلى جميع رجال العلم وندعوهم في هذه اللحظة الرهيبة للقيام بكل ما يمكن لقمع العدوان وتلافي نيران حرب عالمية ثالثة».

تكررت هذه التحذيرات من مغبة اشتعال حرب عالمية ثالثة نتيجة التدخل العسكري الأميركي والبريطاني في لبنان والأردن، والاحتجاج على هذا التدخل، والمطالبة بانسحاب المتدخلين فوراً في نداءات الكتاب السوفيات واللجنة السوفياتية للصداقة والعلاقات الثقافية مع بلدان الشرق العربي، وفي مؤتمر ستوكهولم لنزع السلاح والتعاون الدولي، وكذلك في عشرات الاجتماعات الحاشدة للسوفيات. والتظاهرة الصاخبة التي حاصرت مبنى السفارة الأميركية في موسكو وعشرات التظاهرات الأخرى. فانعكس كل ذلك تعبئة قصوى للرأي العام العالمي ضد التدخل الأميركي ـ البريطاني في المشرق العربي، ورفع معنويات المعارضين لهذا التدخل في لبنان في سياق الحركة المسلحة التي كانت قد انطلقت آنذاك ضد سياسة الحكم اللبناني الموالية للغرب، والتي كانت قد قبلت منذ العام ١٩٥٧ بالانضمام إلى « مبدأ ايزنهاور » خلافاً لإرادة قسم كبير من اللبنانيين وغالبية الدول العربية. فكانت الحركة المسلحة التي هدفت إلى تغيير مجرى السياسة اللبنانية هذه ومنع التجديد للرئيس شمعون في ولاية رئاسية ثانية.

لم يؤثر في الموقف السوفياتي أن بعض الأحزاب والقوى اليمينية اللبنانية كانت تؤيد التدخل الأميركي الذي تم من حيث الشكل بناء على طلب رئيس الجمهورية. فالقضية تتعدى لبنان إلى المنطقة بأسرها وبالتالي سلام العالم، كما وأن هذا البعض من اللبنانيين لا يعبر عن إرادة كل لبنان، الذي كان قسم كبير من أبنائه وأحزابه وهيئاته وشخصياته ضد التدخل الأميركي العسكري في لبنان، ومن هنا كان اعتبار الرأي العام السوفياتي وحكومة الاتحاد السوفياتي أن التدخل الأميركي إنما هو في

الواقع عدوان مسلح على لبنان وانتهاك لسيادته، وعمل طائش يهدد سلام العالم برمته، وأن الأسباب الحقيقية لهذا التدخل لا تكمن في ادعاء « حماية استقلال لبنان » بناء على طلب رئيسه، بل إن الأسباب الحقيقية لهذا التدخل تكمن في أن « الدوائر الحاكمة الأميركية وقد أيقنت من الإفلاس التام لحلف بغداد ومبدأ أيزنهاور، عمدت إلى تطبيق « مبدأ روكفلر » مبدأ ملوك البترول في الولايات المتحدة الأميركية، والأهداف الرئيسية لهذا المبدأ قد صيغت في تقرير « فريق روكفلر » الذي أعلن فيه بصورة مكشوفة الطلب الملح لطواغيت البترول لمضاعفة سباق التسلح، وإخضاع كل استراتيجية الولايات المتحدة لتحضير « حرب عامة » و « حروب صغيرة » على حد سواء وخلق تشكيلات عسكرية خاصة لخنق حركة التحرر الوطني في بلدان الشرق[١٨].

لم يقتصر التحرك السوفياتي على النشاط الجماهيري والحملة الإعلامية المتواصلة، تعبئة للرأي العام المحلي والعالمي، واستنهاضاً لحركات العمال وأحزابها في كل أنحاء العالم، بل ترافق ذلك مع نشاط دبلوماسي غير اعتيادي قام به الاتحاد السوفياتي بغية تلافي خطر نزاع عسكري واسع. ولهذه الغاية تقدمت الحكومة السوفياتية غداة بدء التدخل العدواني الأميركي والبريطاني باقتراح إلى مجلس الأمن الدولي يتعلق بانسحاب القوات الأميركية والبريطانية من لبنان والأردن فوراً. غير أن مناورات الدبلوماسية الأميركية البريطانية شلت عمل مجلس الأمن الدولي وأحبطت الاقتراح. فاقترح الاتحاد السوفياتي عقد اجتماع لرؤساء حكومات الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والهند باشتراك الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة بغية الاتفاق على اتخاذ التدابير السريعة لتسوية النزاع في الشرق الأدنى سلمياً. ومن جديد أحبطت الدبلوماسية الأميركية

والبريطانية هذا الاقتراح وتواصل حشد القوات المسلحة المتدخلة في لبنان والأردن.

وهنا طلب الاتحاد السوفياتي عقد دورة استثنائية للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، لطرح القضية أمام المجتمع الدولي بأسره بغية اتخاذ القرار الذي ينهي العدوان، ويحول دون اندلاع نزاع عام يدخل البشرية في أتون حرب عالمية جديدة. وبالفعل تمكن الاتحاد السوفياتي خلال هذه الدورة من كشف أهداف التدخل الأميركي - البريطاني، في لبنان والأردن وتعريتها أمام مندوبي دول العالم وممثليها، وتقدم أندريه غروميكو رئيس الوفد السوفياتي إلى الدورة الاستثنائية بمشروع اقتراح يوصي حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا بسحب قواتها دون إبطاء من لبنان والأردن. وأقرت الجمعية العامة في ختام دورتها الاستثنائية المذكورة في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٥٨ مشروع قرار وضعته وفود الدول العربية، يستجيب للمهمة الرئيسية التي كانت موضوعة أمام الجمعية العامة، ألا وهي مهمة اتخاذ موقف من سحب الجيوش الأميركية والبريطانية بسرعة من الشرق العربي، والقيام بتدابير عملية لانسحاب جيوش المعتدين من لبنان والأردن في موعد مبكر.

شكل قرار الجمعية العامة هذا هزيمة للولايات المتحدة وبريطانيا وحلفائها، وقد اعترفت الصحافة الأميركية في تعليقها على نتائج النشاط الخفي الذي بذلته الدبلوماسية الأميركية في الأمم المتحدة، اعترفت بفشل القيادة الأميركية التي سعت جهدها لإحباط عمل الجمعية العامة، فكان قرار الجمعية العامة، هزيمة دبلوماسية للولايات المتحدة الأميركية، وضربة معنوية وسياسية لهيبتها العالمية.

حاول الأميركيون والبريطانيون التملص من تنفيذ قرار الجمعية العامة بذرائع وحجج متعددة، غير أن ملاحقة الرأي العام العالمي والمجتمع الدولي لتنفيذ القرار لم تتوقف بل تابعت باهتمام كشف كل المناورات، وتضاعفت يقظتها ولم تسمح باستمرار العدوان تحت أي ستار أو غطاء، مما اضطر الولايات المتحدة وبريطانيا في نهاية المطاف إلى تنفيذ قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة وسحب جيوشهما من لبنان والأردن خلال شهري تشرين الأول (أكتوبر) وتشرين الثاني، (نوفمبر) لعام ١٩٥٨. ومنيت سياسة التدخل العسكري بهزيمة محققة من جديد، وانتصرت إرادة القوى المحبة للسلام وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي الذي أثبت مرة أخرى أنه درع أمين وصديق وفي للشعوب العربية وشعوب الشرق بعامة.

في لبنان انتخب اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش رئيساً للجمهورية اللبنانية وعين رشيد كرامي، أحد أبرز القادة اللبنانيين المعارضين للتدخل الأميركي، رئيساً لمجلس الوزراء اللبناني. وأعلنت حكومته أن مبادىء سياسة لبنان الخارجية هي في التضامن مع العرب والحياد على الصعيد الدولي، ورفضت عملياً شروط «مبدأ أيزنهاور». بعث كليمنت يفريميفيش فوروشيلوف رئيس هيئة رئاسة السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٨ بالبرقية الآتية إلى الرئيس اللبناني الجديد:

«حضرة صاحب الفخامة السيد فؤاد شهاب رئيس الجمهورية اللبنانية، يطيب لي أن أتوجه إلى فخامتكم بالتهاني القلبية وأطيب

التمنيات بمناسبة تسلمكم صلاحيات رئاسة الجمهورية اللبنانية.

إن الشعب السوفياتي يكن عطفاً عميقاً لنضال الشعب اللبناني البطولي من أجل تحرير بلاده من الاحتلال الأجنبي ومن أجل تعزيز الاستقلال الوطني وسيادة الجمهورية اللبنانية.

لقد تميزت العلاقات بين الشعبين السوفياتي واللبناني دوماً، بمشاعر العطف المتبادلة والصداقة التقليدية التي دللت على صلابتها تجارب سنوات عديدة، واسمحوا لي أيها السيد الرئيس، أن أعرب عن اليقين بأن العلاقات الودية بين شعبينا سوف تتطور بنجاح في المستقبل وذلك لخير شعبي بلدينا ولصالح السلام في الشرق الأوسط والأدنى والعالم أجمع.

إني أتمنى مخلصاً لفخامتكم صحة جيدة ونشاطاً ناجحاً ومثمراً وللشعب اللبناني السعادة والازدهار »[١٩].

بعث الرئيس فؤاد شهاب في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٨ بالبرقية الجوابية الآتية:

« حضرة صاحب الفخامة الماريشال كليمنت فوروشيلوف، رئيس هيئة رئاسة السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي.

أشكر فخامتكم بحرارة على التهاني والتمنيات التي تفضلتم بتوجيهها إليّ، بمناسبة قيامي بممارسة صلاحيات الرئاسة. وإني لعلى يقين من ان العلاقات الودية التي كانت قائمة دائماً بين الشعبين السوفياتي واللبناني، ستتطور في المستقبل أيضاً بمزيد من النجاح لصالح بلدينا.

وإني أرجو فخامتكم أن تقبلوا تمنياتي الحارة بالسعادة لكم شخصياً

وبرفاه وازدهار الشعب السوفياتي »[٢٠].

كما أن نيكيتا سرغيفيتش خروشوف رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي بعث في الثلاثين من أيلول (سبتمر) ١٩٥٨ إلى دولة الرئيس رشيد كرامي بالبرقية الآتية:

« حضرة دولة السيد رشيد كرامي رئيس مجلس وزراء الجمهورية اللبنانية. إنني سعيد جداً بأن أوجه إلى دولتكم تهاني القلبية المخلصة مقرونة بأطيب تمنياتي لمناسبة تأليف الحكومة اللبنانية الجديدة.

إن الشعب السوفياتي يتتبع باهتمام كبير وعطف عميق النضال الجريء الذي قام به الشعب اللبناني من أجل الدفاع عن وطنه وعن استقلال الجمهورية اللبنانية. وإن شعب الاتحاد السوفياتي يتمنى بحرارة للشعب اللبناني تحرراً قريباً جداً وكاملاً من الاحتلال الأجنبي وخلق ظروف مناسبة للعمل السلمي الخلاق لخير وطنه.

إسمحوا لي يا دولة الرئيس، أن أعرب لكم عن يقيني بأن العلاقات الودية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان ستنمو وتزدهر بنجاح في طريق التعاون المقبل في حقلي الاقتصاد والثقافة لما فيه خير شعبي بلدينا، وتسهم في قضية تعزيز السلام في الشرقين الأدنى والأوسط، وفي العالم أجمع.

تفضلوا يا دولة الرئيس، بقبول تحياتي الطيبة، وتمنياتي لصحتكم ونشاطكم المثمر شخصياً ولسعادة الشعب اللبناني وازدهاره »[٢١].

ورد الرئيس رشيد كرامي رئيس مجلس وزراء لبنان بالبرقية الآتية:

« حضرة السيد نيكيتا خروشوف رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي.

أشكر بحرارة لدولتكم التهاني التي وجهتموها إلي لمناسبة تأليف الوزارة الجديدة، وإني أؤكد لكم أن الشعب اللبناني الواثق بمسؤولياته سيعمل بالتعاون مع جميع الشعوب الصديقة، لتعزيز استقلاله ومن أجل السلام، وهو يشكر للشعب السوفياتي الاهتمام والعطف اللذين أعربتم لي عنهما باسمه. وإني على يقين يا دولة الرئيس بأن العلاقات الودية القائمة بين لبنان والاتحاد السوفياتي، ستنمو أكثر في ميادين الاقتصاد والثقافة، وتسهم في تعزيز السلام في الشرق الأوسط وفي العالم كافة.

وإني أرجو دولتكم أن تقبلوا تمنياتي الصادقة لسعادتكم شخصياً والازدهار للشعب السوفياتي النبيل»[٢٢].

تعكس هذه البرقيات المتبادلة بين القيادتين السوفياتية واللبنانية، بما تحويه في مضمونها من توجهات وتطلعات مدى التبدل الذي طرأ على سياسة لبنان الخارجية، ومدى الفشل الذي منيت به سياسة التدخل العسكري الأميركية، سياسة الإملاء وفرض الهيمنة، فإذا بلبنان يخرج من الأزمة بتوجهات جديدة بينما القوات الأميركية اضطرت للانسحاب والعودة من حيث أتت... وبعد أقل من عام على انسحاب القوات الأميركية من لبنان، وتحديداً في آب (أغسطس) ١٩٥٩ وبمناسبة الذكرى السنوية الخامسة عشرة لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين لبنان والاتحاد السوفياتي، وجه رشيد كرامي رئيس مجلس الوزراء اللبناني برقية إلى الحكومة السوفياتية جاء فيها:

«لن تنسى حكومة وشعب لبنان أبداً موقف الاتحاد السوفياتي الودي خلال نضالها الوطني، ولن ينسيا أبداً أن الحكومة السوفياتية اعترفت فوراً باستقلال الجمهورية اللبنانية»[٢٣].

هوامش

(١) بيفن وزير خارجية بريطانيا وبيدو وزير خارجية فرنسا (١٩٤٥).
(٢) أرشيف الخارجية اللبنانية.
(٣) الرفاق - مجموعة مؤلفين لبنانيين مرجع سابق ص ١٧٩ - ١٨٥.
(٤) محاضر جلسات المجلس النيابي اللبناني - ١٩٤٦.
(٥) محاضر جلسات المجلس النيابي اللبناني - ١٩٤٦.
(٦) «نشرة المؤتمر الوطني» ٣ - آذار (مارس) ١٩٤٦.
(٧) سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية، مجموعة من المؤلفين السوفيات ص ١٧٣. موسكو - دار التقدم.
(٨) وكالة تاس ١٩ أيار (مايو) ١٩٥٨.
(٩) جريدة البرافدا السوفياتية ١٩٥٨/٦/٢٥.
(١٠) جريدة الأزفستيا ١٧ تموز (يوليو) ١٩٥٨.
(١١) سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية، مرجع سابق ص ١٨٦.
(١٢) مجلة الأنباء السوفياتية، ١٩٥٨/٧/٢٥.
(١٣) جريدة الأزفستيا، ١٩٥٨/٧/٢١.
(١٤) جريدة البرافدا، ٥ آب ١٩٥٨.
(١٥) مجلة الأنباء السوفياتية ١٩٥٨/٧/٢٥.
(١٦) جريدة الأزفستيا آب (أغسطس) ١٩٥٨.
(١٧) مجلة الأنباء السوفياتية، آب (أغسطس) ١٩٥٨
(١٨) من تحليل نشرته الصحافة السوفياتية ونقلته مجلة الأنباء السوفياتية في آب (أغسطس) ١٩٥٨ تحت عنوان ارفعوا أيديكم عن لبنان.
(١٩) نشرة وكالة أنباء تاس السوفياتية الرسمية، ١٩٥٨/٩/٣٠.
(٢٠) أرشيف الخارجية اللبنانية.
(٢١) أنباء تاس، ١٩٥٨/٩/٣١.
(٢٢) جريدة السياسة اللبنانية، ١٩٥٨/١٠/٨.
(٢٣) جريدة النهار اللبنانية، آب (أغسطس) ١٩٥٩.

الفصل الثالث

نبأ إقامة العلاقات الديبلوماسية بين لبنان والاتحاد السوفياتي والرسائل
المتبادلة بين وزيري خارجية البلدين. كما نشرته جريدة «الأزفستيا»
السوفياتية في عددها ليوم ٥ آب (اغسطس) ١٩٤٤.

УСТАНОВЛЕНИЕ ДИПЛОМАТИЧЕСКИХ ОТНОШЕНИЙ МЕЖДУ СОЮЗОМ СОВЕТСКИХ СОЦИАЛИСТИЧЕСКИХ РЕСПУБЛИК И ЛИВАНСКОЙ РЕСПУБЛИКОЙ

5 августа 1944 года

Советское Правительство приняло предложение Правительства Ливана об установлении дипломатических отношений и обмене дипломатическими представителями между СССР и Ливанской Республикой.

31 июля 1944 года Министр Иностранных Дел Ливанской Республики Селим Такла прислал на имя Народного Комиссара Иностранных Дел СССР В. М. Молотова следующую телеграмму:

«Правительство Ливанской Республики выражает горячее желание войти в сердечные дипломатические отношения с Правительством Союза Советских Социалистических Республик.

Это желание соответствует глубоким стремлениям ливанской нации, испытывающей величайшее восхищение великолепным героизмом народов Советского Союза и возвышенными принципами, которыми направляется внешняя политика его руководителей. Ливанский народ, который долгие годы боролся за свою независимость и суверенитет, которых он только что полностью добился, вполне убежден, что советская внешняя политика основана на уважении свободы и равенства всех народов — принципов, несовместимых с попытками зазоевания и господства так же, как с капитуляциями, привилегиями и другими преимуществами, которыми пользовалась царская Россия.

Выражая свои чувства, Правительство Ливанской Республики, которое свободно встало на сторону демократий в их отважной и славной битве против стран оси, полагает, что обмен дипломатическими миссиями между обеими нашими странами создаст новую и счастливую гарантию ливанского суверенитета.

Вследствие этого я имею честь просить у Вашего Превосходительства согласия Вашего Правительства на назначение Чрезвычайного Посланника и Полномочного Министра, которого Ливанское Правительство аккредитовало бы при Президиуме Верховного Совета Союза Советских Социалистических Республик, как только дипломат того же ранга был бы аккредитован при нем».

В ответ на эту телеграмму Народный Комиссар Иностранных Дел СССР В. М. Молотов направил г-ну Селиму Такла следующую телеграмму:

«Правительство Союза Советских Социалистических Республик высоко оценивает чувства, выраженные Вами от имени Ливанской Республики в отношении героизма народов Советского Союза, проявленного в борьбе против гитлеровской Германии и ее сообщников. Советское Правительство с удовлетворением принимает предложение Правительства Ливанской Республики об установлении дружественных дипломатических отношений между СССР и Ливаном.

Советское Правительство готово аккредитовать Чрезвычайного и Полномочного Посланника при Президенте Ливанской Республики и принять Чрезвычайного Посланника и Полномочного Министра Ливана, который будет аккредитован при Президиуме Верховного Совета Союза Советских Социалистических Республик».

«Известия». № 185 (8487) от 5 августа 1944 г.

١ ـ تفاعل ثقافي وصداقة متنامية شعبيا ورسميا بين الاتحاد السوفياتي ولبنان

لم يقتصر تفاعل طليعة العمال والكتاب والأدباء في لبنان مع ثورة أكتوبر وبلاد السوفيات على مجرد التعاطف مع الثورة ومبادئها وأهدافها، بوصفها فاتحة عهد جديد في تاريخ الإنسانية، بل ارتفعت فوق هذا التعاطف الأصيل وشائج وصلات بين ثقافتي البلدين ورجالها على أسس النظرة الموحدة أو المتجانسة إلى قضايا الإنسان والعالم والحياة والمواقف المشتركة في فهمها وتفسيرها لمبادىء الحرية وحقوق الإنسان وتحرر الشعوب وحقها في تقرير مصيرها. كانت مجلة «الشرق» التي أسسها الكاتب الروسي العظيم مكسيم غوركي صاحبة المبادرة لعقد الصلة الأولى بين ثورة أكتوبر والأدب اللبناني، فقد نشرت بعد انتصار الثورة في روسيا ترجمة المستعرب الروسي الكبير كراتشكوفسكي لشعر أمين الريحاني المنثور (الريحانيات) وتقويمه له. ويقول الكاتب والمفكر اللبناني الكبير الشهيد الدكتور حسين مروة في هذا الصدد: «لم يكن نشر مجلة «الشرق» وتقدير غوركي لأشعار الريحاني المنثورة إلا لأن هذه الأشعار من حيث اتجاهها الفكري التقدمي تحمل نفحات ندية من تلك المبادىء التي جاءت ثورة أكتوبر لتجعل منها حقائق متجسدة في حياة الانسان اليومية على الأرض»[1].

وفي العام ١٩٣٢ نشرت أكاديمية العلوم في لينينغراد رسالة جديدة لأبي العلاء المعري لم تكن معروفة كثيراً من قبل، «رسالة الملائكة» وهي قطعة أدبية رفيعة من الهجاء الفكه الجزل، تحدث فيها كاتبها بأسلوب

مجازي بارع عن عقائد شائعة عما وراء الحياة الدنيا . وقد حقق هذه الرسالة المستشرق الروسي كراتشوفسكي . وكان أول من علّق على هذه الرسالة فور إصدارها أمين الريحاني فيلسوف الفريكة في رسالة بعنوان : « من صديق المعري في الفريكة إلى صديق المعري في لينينغراد » مؤرخة في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢ ، قال فيها :

« إنكم معشر المستشرقين لمن أعجب الناس ، لأنكم من أقربهم إلى تلك القوة الإلهية التي تحيي العظام وهي رميم » . ثم يتحدث بلسان المعري ولسان الرسالة نفسها ، فيشكر المستشرقين على إحياء الآثار الأدبية وجعلها في متناول العرب أنفسهم . ويختم رسالته قائلاً :

« إن كاتب هذه الأسطر ، صديق المعري في الفريكة يحي صديق المعري في لينينغراد ويدعو له بالصحة والسعادة وبدوام التوفيق في البحث والتنقيب ، خدمة للآداب العربية والروسية وتمكيناً لروابط الإخاء بين الشعوب »[٢] .

ولم يحصر كراتشكوفسكي المستعرب الروسي الأشهر اهتمامه بمؤلفات أمين الريحاني وحده دون سواه من ألمع أدباء لبنان ، بل أهتم أيضاً بجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ، وقد كتب في هذا الموضوع عدة مقالات تضمنتها مؤلفاته المختارة ، وقد نُشرت هذه المختارات في ستة مجلدات من قبل أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي . وخص إبداع جبران باهتمام كبير وقومه تقويماً عالياً ووصفه بأنه أبرز شخصية في الأدب العربي المعاصر . وفي حين يصور بعض الأدباء والنقاد لا سيما البرجوازيون منهم جبران متصوفاً بعيداً عن العالم ويحاولون إثارة الشكوك حول طابع إبداعه الأدبي ومحتواه الديمقراطي ، نجد المستعرب الكبير الأكاديمي

كراتشكوفسكي يرى في جبران شاعراً وكاتباً وطنياً فضح في فجر نهضة الأمة العربية السياسية التقاليد والأنظمة الاجتماعية البالية ، واستطاع أن يعين ويتناول على طريقته بشكل مهم ومؤثر ، المواضيع التي كان يبدو وكأنها خارج الزمن وحدوده .

وإبداع جبران معروف جيداً في الاتحاد السوفياتي وقد تمت ترجمة العديد من مؤلفاته إلى اللغة الروسية وتضمن كتابا « النثر العربي » و « النثر العربي المعاصر » ترجمات لشعره ونثره . كما صدرت باللغة الروسية مختارات من مؤلفات جبران .

وأثار اهتمام الأدباء والمستشرقين السوفيات إبداع الكتاب اللبنانيين الذين أسسوا في المهجر في مطلع القرن العشرين « الرابطة القلمية » وكرست في الاتحاد السوفياتي أبحاث أدبية خاصة لأعضاء « الرابطة القلمية » ومنهم في المقام الأول جبران خليل جبران ، وأمين الريحاني ، وميخائيل نعيمة ، وعبد المسيح حداد ، ورشيد أيوب وايليا أبو ماضي . وغدت دراسة مؤلفاتهم من صلب البرنامج الدراسي في جملة من المعاهد السوفياتية .

ولقد خص الشاعر الأوكراني آغافنغل كريمسكي من أكاديمية العلوم في جمهورية أوكرانيا السوفياتية الاشتراكية ، لبنان بقصائد خاصة ضمّنها كتابه « سعف النخيل » وهي قصائد شعرية مكرسة للبنان حيث عاش وعمل المستعرب الشهير كريمسكي صديق إيفان فرانكو وليسيا أوكراينكا .

ويقول الكاتب الأوكراني نوفيتزكي الذي رافق ميخائيل نعيمة في إحدى رحلاته في أوكرانيا ، إن ميخائيل نعيمة بعد عودته إلى لبنان

كتب له رسالة جاء فيها :

« عدت إلى لبنان منذ خمسة أيام ومع ذلك لا يمكنني التصديق بأنني في بلدي. إن رأسي وقلبي مفعمان بالكثير من الانطباعات عن الأيام التي قضيتها في روسيا إلى حد يصعب معه نسيانها حتى ساعة أو لحظة » ويتابع نوفيتزكي قائلاً :

« لقد أرسل نعيمة إليّ كتبه القصصية وكتاباً يضم أمثالاً عربية ويتألف من جزأين، وقد قام بجمعها في قريته الأستاذ أنيس فريحة، وكان ينبغي نشر كل هذا. وعندئذ تذكرت أنه حين كان كريمسكي على قيد الحياة اشتغل معه توفيق جبرائيل كزما، العربي الجنسية. وعرفت نعيمة به عن طريق المراسلة. ونشأت مكاتبات بينهما، ونستطيع الآن أن نبشر صديقنا اللبناني بما يدخل السرور إلى قلبه. فقد ترجم توفيق كزما أحد كتبه ونشرته دار « غوزليتيزدات » في أوكرانيا وقد أهدي هذا الكتاب إلى الرئيس جمال عبد الناصر تعبيراً عن علاقاتنا الثقافية الأصيلة مع البلدان العربية. وقد أرسل إلينا نعيمة مؤخراً كتاباً جديداً عنوانه « رحلة إلى الاتحاد السوفياتي ». وهذا الكتاب كما يقول نعيمة في رسالته الأخيرة، « يدحض كثيراً من الافتراءات ضد نظام الحكم السوفياتي ويعرضه بمثابة تيار طبيعي وضروري في هذه المرحلة من تطور الإنسانية. ويعبر الكتاب في الوقت نفسه عن إيمان عميق بعبقرية الشعب الروسي وروحه السلمية الإنسانية »[٣].

وأول كتاب لبناني ترجم إلى الروسية وطبع ونشر عام ١٩١٧ في مدينة بطرسبرغ الثائرة، كان كتاب مجموعة قصص ومقالات للأديب اللبناني والكاتب الفذ أمين الريحاني. وقد قام بترجمة هذه المجموعة المختارة

الأكاديمي كارتشكوفسكي شيخ المستعربين السوفيات، الذي عرف أمين الريحاني شخصياً منذ أربعين عاماً قبل ترجمته للكتاب المذكور. وبعد خمسة أعوام ظهرت أشعار الريحاني المنشورة ودوى في روسيا صوت فيلسوف الفريكة وتفتح الغصن الغض لوردة لبنانية فوق ثلوج روسيا. وتطور نشر الكتب والمختارات من مؤلفات الأدباء اللبنانيين في الاتحاد السوفياتي بعد العام ١٩٤٠، وقد طبع من كتاب « كهان الهيكل » لجورج حنا، المترجم إلى اللغة الروسية ثلاثون ألف نسخة نفدت بسرعة فائقة. وفي العام ١٩٥٦ صدرت مجموعة كبرى من المختارات بعنوان « نثر عربي » ويمثل نصف هذه المجموعة كلاسيكيو الأدب اللبناني أمين الريحاني، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وعبد المسيح حداد وسواهم. وكتبت عشرات المقالات الخاصة في الاتحاد السوفياتي عن الأديب اللبناني عمر فاخوري، والكاتب والناقد مارون عبود، والأديب والناقد ميخائيل نعيمة، والاديب والمفكر حسين مروة، والشاعر والفنان رضوان الشهال، ومحمد دكروب ومحمد عيتاني وميشال سليمان وسواهم.

وفي مطلع السبعينات من هذا القرن كانت أعمال الكتاب اللبنانيين قد نشرت بأكثر من ١٤ لغة من لغات شعوب الاتحاد السوفياتي. وفي عام ١٩٥٨ نشرت في موسكو مجموعة قصص الكتاب اللبنانيين التي ضمت بالإضافة إلى أمين الريحاني، جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، الذين نشرت أعمالهم ١٢ مرة في سبع لغات من لغات شعوب الاتحاد السوفياتي، قصصاً لسلمى صائغ، ومارون عبود وغيرهما من الكتاب. وشغل الشعر اللبناني مكانة مميزة في منتخبات الشعر العربي التي صدرت عام ١٩٧٠ في طشقند باسم « غصن الزيتون ». كما ترجمت ونشرت أعمال لغادة السمّان وغيرها في السنوات الأخيرة.

كذلك ترجمت في بيروت ونشرت عشرات ومئات المؤلفات السوفياتية العائدة لكتاب ومفكرين وأدباء من مختلف الجمهوريات السوفياتية. ونشرت كذلك أعمال العديد من الأدباء والباحثين الروس لما قبل ثورة أكتوبر. وقد برزت في هذا المجال دور نشر لبنانية متعددة منها: دار الفارابي، ودار الفكر الجديد، ودار المدى، ودار الآداب، ودار الطليعة، ودار ابن خلدون وغيرها. وانتشرت على نطاق واسع في لبنان مؤلفات لينين مترجمة إلى اللغة العربية، والعديد من المؤلفات الأخرى، لا سيما الفكرية والسياسية والاقتصادية منها. كما نشرت دار الفارابي منذ الخمسينات مجموعة من الكتب التي تعرّف بالاتحاد السوفياتي والحياة فيه والضمانات الاجتماعية والتعليم وحياة المسلمين في الاتحاد السوفياتي، وسوى ذلك من الكتب التي تعرف القارىء العربي بشتى جوانب الحياة في البلاد السوفياتية.

هذا التفاعل الثقافي بين أدباء لبنان والأدباء السوفيات والذي يعود إلى السنة الأولى لانتصار ثورة أكتوبر، والذي ساهم في دفع وتطور عرى الصداقة بين الشعبين اللبناني والسوفياتي، تعددت آثاره ونتائجه لاحقاً وبصورة مطردة. وفي نطاق مفاعيله ولدت في العام ١٩٤٢ «جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي» في لبنان ثم «جمعية التعاون الثقافي بين لبنان والاتحاد السوفياتي» في عام ١٩٥٦.

في آذار (مارس) عام ١٩٤٧ زار الاتحاد السوفياتي وفد ثقافي لبناني مؤلف من المهندس أنطون ثابت والدكتور جورج حنا، والأديب رئيف خوري، والسيدة إميلي فارس إبراهيم. وفي ختام الزيارة شكر الوفد للشعب السوفياتي اهتمامه الخاص واحترامه ورعايته معرباً عن أمله بأن

تشكل هذه الزيارة بداية تعاون ثقافي مع الدولة السوفياتية العظيمة. وبعد سنوات في ١٠ أيار (مايو) ١٩٥٥ غرس أنطون ثابت، عضو مكتب مجلس السلم العالمي، نبتة أرز حملها معه من لبنان، قرب مبنى جامعة موسكو على هضاب لينين. وكبرت النبتة وغدت شجرة أرز عامرة تنمو باستمرار كرمز لحيوية الصداقة اللبنانية السوفياتية، هذه الصداقة التي حملت رايتها بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٨ «جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي» برئاسة الأديب اللبناني عمر فاخوري. ثم تلتها في حمل راية الصداقة مع بلاد السوفيات «جمعية التعاون الثقافي بين لبنان والاتحاد السوفياتي» التي تأسست بصورة قانونية ورسمية في ٢٧ آب (أغسطس) عام ١٩٥٧ بهدف تشجيع مختلف أوجه التبادل الثقافي بين لبنان والاتحاد السوفياتي وترأس هيئة إدارتها الدكتور جورج حنا والدكتور نقولا فياض، والاديب مارون عبود. تركز نشاط الجمعية على الشؤون الثقافية وشمل جوانب متعددة من قضايا الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية. ونظمت الجمعية عشرات الأمسيات والندوات حول الاتحاد السوفياتي وثقافته، وكتابه وأدبائه وإبداعهم الثقافي الإنساني. فكانت مناسبات تعرّف الشعب اللبناني خلالها على جوانب ومعالم أساسية من حياة الاتحاد السوفياتي الفكرية والثقافية. ورعت الجمعية بداية تبادل الوفود الثقافية والاجتماعية بين البلدين، وكذلك إيفاد أول طالب لبناني ـ وهو من أبناء البقاع اللبناني، للدراسة في الاتحاد السوفياتي، ومنذ ذلك الحين أي منذ عام ١٩٥٦ بدأت الجامعات والمعاهد السوفياتية تستقبل الطلاب اللبنانيين. وقد تخرج منها حتى الآن أكثر من ألف وخمسمئة لبناني في مختلف فروع الاختصاصات العلمية. ويتابع أربعة آلاف وخمسمئة من الطالبات والطلاب اللبنانيين دراستهم حالياً في الاتحاد السوفياتي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الاتحاد السوفياتي يقدم منح الدراسة المجانية إلى

الطلاب اللبنانيين ويدفع لهم طيلة سنوات الدراسة مرتباً شهرياً ، وحتى أنه يقدم لهم بطاقات السفر المجانية للانتقال جواً إلى موسكو . ومعظم الطلاب الذين تخرجوا من جامعات ومعاهد الاتحاد السوفياتي وعادوا إلى لبنان أو الذين ما زالوا يتابعون دراستهم هناك ، هم من أبناء الطبقات والفئات الفقيرة وذات الدخل المحدود . ولو لم يقدم الاتحاد السوفياتي لهم منح الدراسة في ربوعه لكان يصعب عليهم متابعة الدراسة وتلقي العلوم العالية . وهنا يكمن المغزى الجوهري للمنح الدراسية التي يقدمها الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٥٦ إلى لبنان وغيره من الدول العربية الأخرى . فهذه المنح التي أتاحت لأبناء الفقراء والكادحين متابعة تحصيلهم العلمي ، حطمت الجدار الذي كان قائماً بين هؤلاء ومهنة الطب والهندسة وغيرها من الاختصاصات العلمية الأخرى ، والتي كانت حكراً على النخبة من أبناء الأغنياء والطبقات الميسورة والبرجوازية القادرة على تحصيل العلوم مقابل دفعها للمال في جامعات الدول الغربية ومعاهدها وإرسالياتها في لبنان وخارجه .

فقبل أن يقدم الاتحاد السوفياتي منح الدراسة إلى اللبنانيين كان يستحيل على عائلة فلاح من جنوبي لبنان مثلاً أو من بلاد جبيل أو منطقة البقاع أو عكار أو غيرها ، أن تحلم بأن يصبح أحد أبنائها مهندساً أو طبيباً أو طياراً ، وكان أقصى طموحاتها لا يتعدى أن ترى أبنها وقد أصبح « أستاذاً » مدرساً في المدرسة الرسمية (يتقاضى راتباً شهرياً دائماً ، صيفاً شتاءً !!) بعد أن ينال في مدرسة القضاء شهادة الدراسة الابتدائية العالية (البروفيه) . بعد العام ١٩٥٦ ومنذ أن سافر أول طالب بقاعي لبناني إلى موسكو تبدلت الصورة وبات بإمكان الفلاح والعامل في لبنان أن يرى

إبنه طبيباً أو مهندساً . وقد تحقق حتى الآن حلم مئات العائلات الفقيرة اللبنانية التي عاد أبناؤها من موسكو أطباء ومهندسين وغير ذلك من الاختصاصيين الذين يساهمون في تطور لبنان الاقتصادي ـ الاجتماعي . وهكذا يساهم الاتحاد السوفياتي عن طريق تقديم المنح الدراسية للبنانيين ، واستضافتهم طيلة فترة دراستهم الجامعية والعالية ، في إعداد الكادرات الوطنية للبنان وإعداد الاختصاصيين في مختلف مجالات وفروع الطب والهندسة والزراعة وميادين الاقتصاد الوطني الأخرى ، ويتطلع الاتحاد السوفياتي دائماً إلى اللبنانيين الذين تخرجوا من معاهده وجامعاته ليكونوا سعداء وناجحين في حياتهم وممثلين جديرين لنظام التعليم السوفياتي . وذلك لا يعني المعارف التي تلقوها في دراستهم فحسب بل ، وكذلك تلك السمات الإنسانية الرفيعة التي يسعى نظام التعليم السوفياتي لزرعها وإنمائها لدى الطلاب . وفي هذا الصدد يقول سرغي سوخين رئيس إدارة تعليم الطلاب الأجانب لدى وزارة التعليم العالي السوفياتية :
« إننا نريد أن يتحدث الناس عن الاختصاصيين الحائزين على شهادات سوفياتية باحترام ليس مبعثه المعارف ومستوى التحضير العالي فحسب ، بل وكذلك الميزات الإنسانية . كما نود أن يشار إليهم كأناس هدفهم الأسمى في الحياة هو خدمة شعبهم وليس الأنانية وحب الذات والمنفعة الشخصية والعائلية » (٤) .

وفي لبنان جرى تاسيس أول منظمة لخريجي الجامعات السوفياتية خارج الاتحاد السوفياتي . ففي ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٧٠ تألفت في لبنان وبصورة رسمية « جمعية خريجي الجامعات السوفياتية » ومن مهماتها الرئيسية تحسين المعارف والتحضير المهني لأعضائها ، ودراسة المنجزات الحديثة للعلم والتقنية وتقوية الروابط بين المراكز العلمية في لبنان وفي الاتحاد السوفياتي .

نظمت جمعية العلاقات الثقافية بين لبنان والاتحاد السوفياتي بالتعاون مع الجمعية السوفياتية للعلاقات الثقافية مع بلدان الشرق العربي سلسلة زيارات متبادلة بين وفود ثقافية لبنانية وسوفياتية. وقد لعبت هذه الزيارات دوراً هاماً في تعرف رجال الثقافة من كلا البلدين على بعضهم البعض وعلى معالم بلديها وواقعه... وزار لبنان كذلك بالإضافة إلى الوفود الثقافية والعلمية فرق فنية سوفياتية للغناء والرقص الشعبي والباليه وفرق رياضية والموسيقار الشهير آرام خاتشادوريان الذي أقامت له الجمعية في مقرها حفلة تعارف تكريمية على شرفه غنت فيها فيروز أغنيتها المعروفة والمعبرة « مشوار » في آب (أغسطس) ١٩٦١.

وفي السادس والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ شهدت بيروت يوماً حاشداً مميزاً خرج فيه ألوف اللبنانيين باتجاه مطار بيروت الدولي لاستقبال أول رائدة فضاء في العالم، السوفياتية فالنتينا تيرشكوفا، التي أمضت في لبنان ثلاثة أيام زاخرة باللقاءات والاحتفالات الشعبية والرسمية... قالت فالنتينا مخاطبة أبناء لبنان: « كنت انتظر بفارغ الصبر هذا اللقاء مع « بلاد الربيع الدائم » كما يسمى لبنان في مناطقنا الشمالية وفي المدرسة... كنت أحلم بزيارة بعلبك وجبيل ومغارة جعيتا... غير أن آثار العصور القديمة ليست وحدها التي تجتذبني نحو لبنان، بل إنني أحب التعرف إلى حياة الشعب اللبناني الراهنة، وأن أشد على أيدي عمال الموانىء في بيروت، على أيدي فلاحي البقاع وصيادي الأسماك في صيدا »[٥].

ثلاثة أيام أمضتها فالنتينا تيرشكوفا في بيروت، حاملة حب بلاد السوفيات إلى لبنان وشعبه، وغادرت وهي تحمل معها حب شعب لبنان لبلاد السوفيات وشعبها.

وهكذا تواصل توطد العلاقات المتعددة بين الشعبين وتعزيزها، وكانت جمعية العلاقات الثقافية تلعب الدور المحرك والقائد في مسيرة الصداقة هذه، حتى إذا ما توقف نشاطها بصورة جزئية بوفاة أحد أبرز أركانها وقادتها الدكتور جورج حنا في العام ١٩٦٧، تسلمت الراية منها « جمعية الصداقة اللبنانية السوفياتية » التي أعلن تأسيسها في احتفال كبير في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧٠، وترأس لجنتها التنفيذية نائب مدينة طرابلس الدكتور هاشم الحسيني(*) الذي ألقى كلمة في الاحتفال التأسيسي قال فيها:

« إننا نقدر ونلح على توثيق العلاقات والصداقة بين الشعب العربي ومنه اللبنانيون، وبين الشعب السوفياتي الذي يناصر قضية العرب الأولى التي هي تحرير أراضيهم من الاغتصاب الصهيوني. إننا نشارك جميع فئات الشعب العربي في التوجه بالعرفان للاتحاد السوفياتي على ما يقدمه من معونات كبيرة للعرب، ومساعدات لتحرير أراضيهم السليبة، ونحن على ثقة أن الاتحاد السوفياتي سيزيد مناصرته ودعمه لحركة المقاومة العربية حتى يتم النصر.

إن الصداقة التي تربطنا بالاتحاد السوفياتي، هي صداقة اليد التي تمتد مخلصة صادقة نابعة من صميم المبادىء الإنسانية، وإننا حريصون على تدعيم وتقوية هذه الصداقة وتوثيق علاقة الشعب اللبناني مع الشعب السوفياتي. وليس تأسيس جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية سوى مظهر أكيد لهذه الرغبة وهذا الشعور »[٦].

ألقى سفير الاتحاد السوفياتي في لبنان آنذاك سرفار عظيموف[٧]

كلمة في الاحتفال قال فيها: « يسعدني جداً أن أحيي تشكيل جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية، باسم الملايين من أبناء الشعب السوفياتي. إن أغلى ما في الوجود هو كلمة الصداقة. والصداقة تقرب ما بين الشعوب وتمنحها القوة، ونحن على يقين بأن العلاقات الودية والصداقة بين الشعب السوفياتي والشعوب العربية، ستتطور وتتعزز دوماً. وفي هذا المجال ستلعب جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية دوراً كبيراً، وستسهم إسهاماً كبيراً في توطيدها وتعزيزها لما فيه مصلحة الجميع »(٨).

تابعت جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية، ما كانت قد بدأته « جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي » في العام ١٩٤٢ و « جمعية العلاقات الثقافية » في العام ١٩٥٦. وتعددت نشاطات جمعية الصداقة في إطار جهدها الثابت لترسيخ الصداقة بين شعبي لبنان والاتحاد السوفياتي وتعزيزها. فأقامت الاحتفالات والمعارض والمهرجانات في المناسبات الوطنية السوفياتية، ونظمت زيارات وفود الصداقة من لبنان إلى الاتحاد السوفياتي، وكان أولها وفد الشخصيات السياسية البارزة في لبنان الذي تألف من النائب ورئيس الوزراء رشيد كرامي، والنائب كمال جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، والنائب ريمون إده عميد الكتلة الوطنية وسواهم. وقد سبق لكل من كمال جنبلاط، ورشيد كرامي أن زارا الاتحاد السوفياتي عدة مرات منذ أوائل الخمسينات. وهما من الشخصيات السياسية اللبنانية المعروفة جيداً في الاتحاد السوفياتي. وقد حضر الوفد في السادس عشر من شهر آب (أغسطس) ١٩٧١ حفل توقيع اتفاقية سوفياتية ـ لبنانية للتعاون الثقافي في دار الصداقة مع البلدان الأجنبية في موسكو. وقد وقع الوثيقة عن الجانب السوفياتي البروفيسور سيرغي

كفتانوف رئيس إدارة جمعية الصداقة السوفياتية ـ العربية، وعن الجانب اللبناني النائب الدكتور هاشم الحسيني رئيس جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية.

وقد أشار البروفيسور سيرغي كفتانوف موجهاً حديثه إلى الضيوف اللبنانيين إلى أن توقيع اتفاقية التعاون الثقافي، وبرنامج عمل الجمعيتين للعام الجاري يشكل خطوة هامة في طريق توسيع العلاقات اللاحقة بين الشعبين السوفياتي واللبناني وتوطيدها. وهنأ باسم السوفياتيين الشعب اللبناني بهذا الحدث الهام وتمنى له السعادة والازدهار(٩).

وردّ النائب الدكتور هاشم الحسيني قائلاً: « لي الشرف بأن أوقع هذه الاتفاقية التاريخية للتعاون الثقافي بين لبنان والاتحاد السوفياتي. وقد أثار سعادتي أن توقيع الاتفاقية قد جرى بحضور شخصيات لبنانية سياسية بارزة تمثل مختلف فئات الشعب اللبناني، كما يسعدني أن أشير أيضاً إلى وجود شخصيات اجتماعية سوفياتية بارزة في هذه القاعة. وهذا يؤكد على أهمية العمل الذي قمنا به ويعزز لديّ الثقة بأن الشعبين اللبناني والسوفياتي سترتبطهما كالسابق صداقة متينة ومخلصة. إن الاتحاد السوفياتي يتفهم جيداً مطامحنا وآمالنا وقضايانا. وهو يقف موقفاً نبيلاً إزاء أزمة الشرق الأدنى، ويدافع بدأب وحزم عن حقوق وحرية الشعوب العربية، وقدم لها المساعدة الشاملة والدعم. إننا ممتنون للشعب السوفياتي وحكومته. ولا شك بأن الصداقة والتعاون بين الشعبين اللبناني والسوفياتي سيتطوران ويتعززان في المستقبل أيضاً. وتوقيع هذه الاتفاقية يقدم البرهان على ذلك »(١٠).

وأكد كل من رشيد كرامي وكمال جنبلاط على أهمية توقيع اتفاقية

التعاون الثقافي وأشارا إلى أن هذه الوثيقة تشهد على رغبة الشعبين اللبناني والسوفياتي المتزايدة في التفهم المتبادل والصداقة والتعاون [١١].

ونتيجة تنامي وتوسع علاقات الصداقة الشعبية والرسمية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان وشمولها، بادر بعض قطاعات الرأي العام السوفياتي إلى مطالبة اتحاد جمعيات الصداقة والعلاقات الثقافية مع شعوب البلدان الأجنبية بإنشاء جمعية للصداقة بين الاتحاد السوفياتي ولبنان. وبهذا الشأن كان الاقتراح الذي تقدم به أ. اصلانيان وزير التعليم العالي والثانوي التخصصي في جمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفياتية، والنائب في السوفيات الأعلى لهذه الجمهورية والعضو المراسل لأكاديمية العلوم فيها، و ت. أبديشيفا، العاملة في معمل التريكو بمدينة فرونزه، بطلة العمل الاشتراكي، و س. بيليايف، أمين اللجنة المركزية لنقابات عمال الصناعة الغذائية، و ك. غيراسيموف نائب رئيس مجلس وزراء روسيا الاتحادية، والنائب في السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي، و أ. لوبوتكوف الرسام الشعبي لجمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفياتية، و ف. بروبوكوف نائب رئيس لجنة منظمات الشبيبة في الاتحاد السوفياتي، و ف. تشخيكفادزي مدير معهد الدولة والحقوق التابع لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، و ف. نيكولين، رئيس هيئة التحرير الرئيسية لبلدان الشرقين الأدنى والأوسط في وكالة أنباء نوفوستي، والعديد من الشخصيات الأخرى.

وأعربت جماعات شغيلة عشرات المؤسسات والمنشآت العلمية ومنشآت التعليم، مثل مصنع « إيزولاتور » في موسكو، ومصنع « بوليغرافغماخ » في لينينغراد، ومعمل أحذية « تشولبون » في جمهورية قرغيزيا، ومعهد الدولة والحقوق التابع لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، ومعهد الاستشراق

لدى أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، والفرع العربي في معهد بلدان آسيا وأفريقيا لدى جامعة الدولة « لومونوسوف » في موسكو، والعديد من المؤسسات الأخرى، أعربت كلها عن رغبتها في الانتساب إلى جمعية الصداقة « الاتحاد السوفياتي ـ لبنان » كأعضاء جماعيين [١٢].

وشكل ممثلو الرأي العام السوفياتي هيئة للمبادرة، اضطلعت بعمل تحضيري لإنشاء جمعية الصداقة « الاتحاد السوفياتي ـ لبنان » وفي ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ اجتمعت في موسكو، في دار الصداقة مع شعوب البلدان الأجنبية، هيئة المبادرة، برئاسة افغيني إيفانوف، نائب رئيس هيئة رئاسة اتحاد الجمعيات السوفياتية للصداقة والعلاقات الثقافية مع شعوب البلدان الأجنبية، وقد وافق المشتركون في هذا الاجتماع بحرارة عبر خطبهم على اقتراح الرأي العام السوفياتي بإنشاء جمعية الصداقة « الاتحاد السوفياتي ـ لبنان » في الاتحاد السوفياتي.

وجاء في البيان الذي أقره الاجتماع: « إن المهمة الرئيسية للجمعية هي تعزيز الصداقة والتعاون الثقافي بين الشعبين السوفياتي واللبناني، وتطوير التفاهم والثقة المتبادلة بينهما، وتوسيع الاتصالات بين الجانبين في جميع الميادين، والاطلاع الواسع المتبادل على تاريخ واقتصاد وثقافة وفنون كل بلد من البلدين » [١٣].

وقررت هيئة المبادرة أن تعقد في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ في دار الصداقة مع شعوب البلدان الأجنبية، في موسكو، الاجتماع التأسيسي لإنشاء جمعية الصداقة « الاتحاد السوفياتي ـ لبنان » في الاتحاد السوفياتي. وفي الموعد المعين، ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ عقد الاجتماع المذكور الذي أنشأ جمعية الصداقة « الاتحاد السوفياتي ـ لبنان » في موسكو،

وانتخب فيكتور تشخيكفادزي الشخصية الاجتماعية السوفياتية البارزة، العضو المراسل لأكاديمية العلوم السوفياتية ونائب رئيس جمعية الحقوقيين الدولية، رئيساً للجمعية. وقد ألقى رئيس الجمعية المنتخب كلمة قال فيها إن تأسيس جمعية للصداقة مع لبنان في الاتحاد السوفياتي يشكل حدثاً هاماً ورائعاً للغاية في تاريخ العلاقات بين البلدين، وقد تطلب ذلك منطق تطور العلاقات الودية السوفياتية ـ اللبنانية، التي لها جذور تاريخية عميقة. وأشار إلى أن العلاقات السوفياتية ـ اللبنانية الودية في مجال الثقافة تطور بنجاح منذ أكثر من ربع قرن. وكان لبنان أول البلدان في العالم العربي الذي أقام علاقات ثقافية مع الاتحاد السوفياتي، وقد ساهم في تطوير هذه العلاقات إلى حد كبير شخصيات اجتماعية بارزة في لبنان أمثال عمر فاخوري وجورج حنا وميخائيل نعيمة وكثيرون غيرهم.

وأضاف قوله: « إن السوفياتيين واللبنانيين على حد سواء يبدون اهتماماً كبيراً بآفاق تعزيز وتطوير العلاقات المتبادلة في الميادين كافة. وإن تأسيس جمعية الصداقة « الاتحاد السوفياتي ـ لبنان » يشكل تعبيراً عن رغبة أوسع أوساط الرأي العام السوفياتي في تطوير العلاقات الودية الطيبة مع الشعب اللبناني وتوطيدها »[١٤].

وساهمت الجمعية منذ تأسيسها في تعزيز علاقات الصداقة السوفياتية اللبنانية وتطويرها على مختلف الصعد، ووجهت الدعوات لعشرات الوفود اللبنانية التي زارت الاتحاد السوفياتي، وضمت شخصيات سياسية واجتماعية بارزة (وزراء، نواباً ورؤساء أحزاب). وتضم الجمعية في صفوفها ألوف المواطنين السوفيات ولها فروع في سبع جمهوريات سوفياتية متحدة، وتبذل نشاطاً فعالاً لتعريف الرأي العام السوفياتي إلى حياة الشعب اللبناني وثقافته، وتقود حملات التضامن مع الشعب اللبناني في

نضاله ضد المعتدين الإسرائيليين، وتنظم المهرجانات والأمسيات الاحتفالية بمناسبة الأعياد الوطنية اللبنانية، وتقدم الجمعية المنح الدراسية لمئات الطلاب اللبنانيين الذين تستقبلهم جامعات ومعاهد الاتحاد السوفياتي كل عام، وتنشر نتاجات رجالات الثقافة والعلم والأدب والفن في لبنان، وتقدم للتلفزيون والإذاعة السوفياتيين سلسلة برامج عن لبنان وتاريخه وحياته، وغير ذلك من النشاطات الهادفة إلى تنمية الصداقة بين الشعبين وتعزيزها. وقد وصل إلى بيروت في أواخر العام ١٩٧٢ البروفيسور فيكتور تشخيكفادزي رئيس جمعية الصداقة « الاتحاد السوفياتي ـ لبنان » بدعوة من جمعية الصداقة اللبنانية السوفياتية، وشارك في أسبوع الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية الذي نظمته الجمعية وأقامت خلاله المعارض والمحاضرات والندوات وعرضت أفلام السينما، وسوى ذلك من النشاطات، وقد صرّح البروفيسور تشخيكفادزي عشية سفره إلى لبنان قائلاً: « لقد سبق أن زرت لبنان في أيام السلم المشرقة وفي أيام المحن. إني أحب كثيراً هذا البلد، وفي كل مرة أسافر فيها إلى لبنان ينتابني شعور الانفعال المثير للغبطة عشية لقاءاتي مع الأصدقاء القدامى الطيبين، وهم كثيرون في لبنان، وإني على ثقة بأن زيارة وفدنا ستسهم في التعزيز اللاحق للصداقة والتعاون بين الشعبين السوفياتي واللبناني »[١٥].

وخلال السبعينات نظمت جمعيتا الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية، والسوفياتية ـ اللبنانية، عشرات الزيارات المتبادلة لوفود الصداقة من البلدين. ومن أبرز الشخصيات اللبنانية التي شاركت في هذا الوفد، كمال جنبلاط، ورشيد كرامي، وميشال اده، وتقي الدين الصلح وغيرهم من الوزراء والنواب ورجال السياسة. وفي حزيران العام ١٩٧٣ زار الاتحاد السوفياتي وفد لبناني ضم السادة ميشال اده، والنائب أمين الجميل، والنائب شفيق الوزان،

والصحافي وفيق الطيبي، وزار الوفد مدن موسكو، ولينينغراد، وطشقند، وسمرقند إحدى أقدم المدن في آسيا الوسطى السوفياتية. وفي ختام الزيارة صرح أمين الجميل النائب في البرلمان اللبناني، عضو المكتب السياسي لحزب الكتائب، رئيس الجمهورية اللبنانية الحالي (١٩٨٢ - ١٩٨٨) صرح بقوله: «إني أنصح الكثيرين بالذهاب إلى الاتحاد السوفياتي كي يكوّنوا فكرة صحيحة عن الأوضاع هناك، فالأراء السائدة تختلف عن انطباعاتي. إن الشعب السوفياتي منفتح على الشعوب الأخرى عملاً بالمبادىء التي بشر بها لينين، مبادىء الصداقة والأخوة بين الشعوب، هذا الانفتاح الذي هو من ضمن الخط اللينيني سوف يدخل الطمأنينة للإنسانية المعاصرة حيث الإنسان مضطرب إلى مصيره ومصير السلام العالمي».

وأضاف الجميل: «لم أكن أتصور هذا النوع من الحرية الذي لمسته أثناء زيارتي، فالازدهار والسعي الدائم لإسعاد المواطن يثير الإعجاب خاصة للذين اطلعوا على ماهية روسيا قبل الثورة. وفي الواقع إن هذا المجهود الجبار الذي أدى إلى التوازن بين الدول هو ضمانة السلام العالمي».

واستطرد الجميل قائلاً: «لو كان هناك دولة كبرى واحدة ماذا كان مصير الدول الصغيرة؟ خاصة وأن الاتحاد السوفياتي يسير على المبدأ القائل بأنه ليست هناك دول كبرى ودول صغيرة بل دول كبيرة باهدافها ومبادئها. الكل في لبنان يريد الصداقة مع الاتحاد السوفياتي، وأنا كعضو في حزب الكتائب يمكنني أن أؤكد حرص الحزب على توطيد العلاقات بيننا وبينه، ونعتبر أن لا ديمومة للبنان بكيانه وسيادته ووحدته إلا ضمن الصداقة مع جميع الشعوب وخاصة شعوب الاتحاد السوفياتي. وستبقى صداقتنا معه راسخة وعميقة وسوف لن يتمكنوا من تحجيم هذه الصداقة» (١٦).

هذا الكلام قاله الرئيس أمين الجميل في العام ١٩٧٣، وفيه الكثير عن الحرية والازدهار والانفتاح في الاتحاد السوفياتي. فماذا تراه سيقول الرئيس الجميل لو زار الاتحاد السوفياتي هذه الأيام، وشاهد التطورات التي حصلت منذ زيارته، خاصة في السنوات الأخيرة في ظل سياسة الانفتاح، وإعادة البناء والعلنية التي تقودها القيادة السوفياتية الحالية بزعامة ميخائيل غورباتشوف الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي؟

واكب التوسع والشمول في الصداقة ما بين البلدين، على المستوى الشعبي عبر جيعتي الصداقة في كل من لبنان والاتحاد السوفياتي، تطور في مستوى العلاقات بين البلدين على المستوى الرسمي البرلماني والحكومي، ففي ١٨ آب - (أغسطس) عام ١٩٥٥ وجه السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي إلى رئيس مجلس النواب اللبناني البرقية الآتية:

«إلى السيد عادل عسيران رئيس برلمان الجمهورية اللبنانية.

يتشرف السوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، رغبة منه بالمساهمة في التطوير اللاحق للعلاقات بين شعبي الاتحاد السوفياتي ولبنان، ونظراً لأنه يعتبر الاتصالات المباشرة بين البرلمانات وسيلة هامة للتعاون الدولي في مصلحة قضية السلم والتفاهم المتبادل، بدعوة وفد يمثل البرلمان اللبناني إلى زيارة الاتحاد السوفياتي» (١٧).

رحب البرلماني اللبناني بالرغبة السوفياتية في توسيع العلاقات البرلمانية بين البلدين وقبل الدعوة، وقامت في فترات لاحقة وفود برلمانية لبنانية عديدة بزيارة الاتحاد السوفياتي ووفود سوفياتية برلمانية بزيارة لبنان.

زار ديمتري شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفياتي لبنان في الفترة

ما بين ٢٥ و ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٥٦. واستقبله رئيس الجمهورية آنذاك كميل شمعون، ورئيس الوزراء اللبناني عبد الله اليافي، ووزير الخارجية اللبنانية سليم لحود، وعدد آخر من الشخصيات اللبنانية الرسمية. وفي البيان المشترك اللبناني ـ السوفياتي الذي نشر في ختام الزيارة، « سجل الطرفان وحدة وجهات النظر حول المسائل المطروحة على بساط البحث، وسجلا بارتياح الطابع التقليدي للعلاقات الودية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان، وأكدا بأن التطور اللاحق للصداقة بين البلدين يستجيب لمصالح الشعبين، ويشكل مساهمة ملموسة في قضية توطيد السلم والعدل، واتفق الطرفان على رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي بين الاتحاد السوفياتي ولبنان إلى مستوى السفارات رغبة منهما في توطيد وتطوير علاقات الصداقة بين البلدين باطراد. كما أعرب الجانبان عن رغبتهما في التطوير اللاحق للتعاون الاقتصادي والثقافي أيضاً بين الاتحاد السوفياتي ولبنان[١٨].

كانت زيارة الوزير السوفياتي للبنان محطة بارزة في مسار التطوير المتنامي للعلاقات السوفياتية ـ اللبنانية. وهذا ما أثار غضب بعض القوى المحلية والاقليمية والدولية التي حاولت إلقاء الضلال على نزاهة الموقف السوفياتي إزاء لبنان، ناسبة إليه التدخل في شؤون لبنان الداخلية. كان ذلك في صيف العام ١٩٥٧ بعد إعلان الحكم اللبناني انضمامه إلى مبدأ ايزنهاور، وهو المبدأ الذي أعلن أساساً في سبيل « مكافحة الشيوعية الدولية »، فكان من الطبيعي إذاً أن ينجر من قِبل بالانضمام إلى هذا المبدأ إلى حملة معاداة الاتحاد السوفياتي وسوق الاتهامات ضده. مما استدعى أن يسلم السفير السوفياتي في لبنان مذكرة سوفياتية إلى وزير خارجية لبنان في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٥٧، نفت نفياً قاطعاً ضلوع الاتحاد السوفياتي في نشاطات القوى

الداخلية اللبنانية المناهضة لسياسة الحكومة اللبنانية الموالية للغرب عامة والأميركيين بصورة خاصة. وأوضحت المذكرة أن الاتحاد السوفياتي يلتزم التزاماً صارماً بسياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، ويعتبر أن نشاطات التنظيمات الوطنية والاجتماعية اللبنانية هي شأن داخلي بحت من شؤون الشعب اللبناني، وأعربت المذكرة عن رغبة الاتحاد السوفياتي في المضي قدماً في تطوير علاقات الصداقة مع لبنان[١٩]. وعاد الاتحاد السوفياتي وأكد ثانية موقفه هذا في مذكرة من الخارجية السوفياتية إلى السفير اللبناني في موسكو في ٤ آب (أغسطس) ١٩٥٧.

وقد شكلت في حينه سياسة الحكم اللبناني المنحازة ضد الاتحاد السوفياتي جزءاً من سياسته الخارجية التي اتسمت بالانحياز للغرب في حربه الباردة ضد الاتحاد السوفياتي وسائر دول أسرة الدول الاشتراكية، وانعكست هذه السياسة على الصعيد العربي بموقف سلبي للحكم في لبنان تجاه ثورة شعب الجزائر، خلافاً للموقف العربي، وكذلك إنعزال الحكم اللبناني آنذاك عن العرب عندما رفض قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا! إسوة بالحكومات العربية الأخرى، وتنفيذاً لقرار وزراء الخارجية العرب الذي انعقد في بيروت آنذاك، احتجاجاً على العدوان على السويس عام ١٩٥٦، وكذلك معارضة الحكم اللبناني لسياسة عبد الناصر القومية ودخوله في الأحلاف والكتل والمحاور العربية الأخرى المعادية لسياسة عبد الناصر. وتناقض كل هذه المواقف مع موقف قطاعات واسعة من الشعب اللبناني مما أدى لازدياد واتساع المعارضة الداخلية لنهج الحكم اللبناني الذي حاول في مواجهة هذه المعارضة السياسية والمسلحة له اتهام الآخرين ومنهم الاتحاد السوفياتي بالتدخل في شؤون لبنان الداخلية.

غير أن هذه السياسة المنحازة ضد الاتحاد السوفياتي لم تدم طويلاً،

وانتهت في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٨ بانتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية اللبنانية خلفاً للرئيس كميل شمعون، فعاد لبنان إلى التزام سياسة التضامن مع العرب والحياد على الصعيد الدولي، وعادت علاقات الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي إلى سابق عهدها واستأنفت مسيرة تطورها في المستويات كافة. وفي صيف العام ١٩٥٩ وصل إلى لبنان أول فريق من السياح السوفيات. وفي أيار (مايو) ١٩٦٠ وبدعوة من مجلس النقابات المركزي السوفياتي، وصل إلى موسكو الوفد التمثيلي الأول للقادة النقابيين اللبنانيين واشترك في احتفالات أول أيار. وفي تموز (يوليو) ١٩٦٢ وقع اتفاق حول التعاون الثقافي بين الاتحاد السوفياتي والجمهورية اللبنانية. وفي عام ١٩٦٦ دشن أول خط طيران بين موسكو وبيروت، وفي أيار (مايو) ١٩٦٧ زار ممثلو السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي لبنان لاول مرة، وكان يرأس الوفد كبريل إيلياشنكو نائب رئيس هيئة رئاسة السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي، وقد استقبل الوفد رئيس الجمهورية اللبنانية شارل الحلو. وفي الحديث الودي الذي جرى بين الرئيس حلو والوفد البرلماني السوفياتي، أعرب الرئيس عن ارتياحه العميق للعلاقات اللبنانية ـ السوفياتية، وأعلن ترحيبه بتعزيز هذه العلاقات وتوسيعها. ونوّه الرئيس حلو بالأهمية الكبيرة للاتصالات الشخصية المباشرة لاجل تحقيق تفاهم أفضل بين الشعبين، ورحب بتبادل الزيارات بين الوفود البرلمانية اللبنانية والسوفياتية. وقال الرئيس حلو إن البرلمانيين اللبنانيين الذين زاروا الاتحاد السوفياتي زيارة رسمية عام ١٩٦٥ لقوا ترحيباً ودياً ممتازاً، وأضاف أن اللبنانيين يستقبلون اليوم بابتهاج كبير ممثلي مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي، وأن الزيارات المتبادلة هي في صالح شعبي البلدين [٢٠].

جرى استقبال الوفد البرلماني السوفياتي في مجلس النواب اللبناني، وألقى رئيسه كبريل إيلياشنكو كلمة أمام لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان اللبناني، استهلها بنقل التحيات القلبية باسم مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي، وباسم الشعب السوفياتي كله إلى ممثلي شعب الجمهورية اللبنانية. وأسهب في شرح المبادىء الجديدة للعلاقات بين الشعوب التي نادت بها الدولة السوفياتية وتحققها عملياً منذ نشأتها، مبادىء المساواة في الحقوق والسيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، ثم تحدث عن المباحثات التي أجراها الوفد في لبنان قائلاً:

«لقد تشرفنا بالمقابلة والتحدث إلى فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ شارل حلو، ودولة رئيس مجلس النواب الاستاذ صبري حماده، ومعالي وزير الخارجية الدكتور جورج حكيم، وأعضاء المجلس النيابي اللبناني، وغيرهم من الشخصيات الرسمية، وممثلي الفئات اللبنانية المختلفة، وتأكدنا أن الشعب اللبناني يسعى إلى توطيد الصداقة اللبنانية السوفياتية وتطور التعاون بين بلدينا. وخلال الأحاديث التي جرت في جو ودي تبادلنا الأراء حول العديد من القضايا التي تهم البلدين، واقتنعنا بتوافق وجهات النظر بشأن تطوير العلاقات السوفياتية اللبنانية في المستقبل وتعزيز السلام، وأثناء الحديث كنا نستعمل اللغتين العربية والروسية، ولكننا نتكلم بلغة مشتركة، لغة الصداقة. ولا بد من القول إنه خلال أحاديثنا ظهر جلياً أن بين بلدينا كثيراً من نقاط الالتقاء. لقد ساهمت جمهوريتكم في تعزيز قضية السلام ويتبين ذلك في ممارسة حكومة الجمهورية اللبنانية لسياسة عدم السماح بالتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى. وتلعب هذه السياسة دوراً إيجابياً في النضال ضد الإمبريالية والاستعمار الجديد وتحد من آفاق نشاط الكتل العدوانية الحربية، وتخدم

قضية ضمان الأمن والسلام العالمي.

إننا نرجو أن تتطور في المستقبل أيضاً أواصر الصداقة والتعاون بين الاتحاد السوفياتي والجمهورية اللبنانية كما بين الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية الأخرى.

ونرى في توطيد العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية قاعدة متينة لتطوير هذه العلاقات».

وختم إيلياشنكو مخاطباً أعضاء المجلس النيابي اللبناني بقوله:

«وأود أن أنتهز وقفتي على هذه المنصة السامية لأتمنى النجاحات الكبيرة لمجلس نواب الجمهورية اللبنانية راجياً لكل منكم الصحة والسعادة.

وباسم رئيسي الغرفتين لرئاسة مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي أبلغنا السيد الرئيس حمادة دعوة لزيارة بلادنا ويسرنا أنه قبل هذه الدعوة. وأريد أن أؤكد لكم أيها السيد الرئيس أنكم سوف تستقبلون في الاتحاد السوفياتي بالحفاوة والترحيب»[٢١].

وفي البيان المشترك اللبناني ـ السوفياتي الذي صدر في ختام زيارة وفد مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي إلى لبنان، سجل الطرفان ارتياحهما إلى الطموح المشترك للاتحاد السوفياتي والجمهورية اللبنانية لتوطيد السلام، وتطوير التعاون الدولي على أساس مبادىء التعايش السلمي واحترام الاستقلال الوطني وسيادة الدول.

وأشار البيان المشترك إلى «أن تبادل الأراء أظهر أن وجهات النظر

بين الاتحاد السوفياتي ولبنان متفقة أو متقاربة في كثير من المسائل الدولية الهامة وخاصة في قضايا نزع السلاح التام والشامل، وعدم انتشار الأسلحة النووية وتصفية الاستعمار والنضال من أجل تخفيف حدة التوتر الدولي. وينطلق الجانبان من أن السلام والأمن في العالم أجمع يتطلبان المزيد من الجهود من أجل تحقيق نزع السلاح التام والشامل تحت إشراف دولي.

وفي مجرى الأحاديث التي جرت بينهما عبّر الطرفان عن قلقهما العميق إزاء استمرار الحرب المؤسفة في فيتنام. وشجب الطرفان سياسة التكتلات الحربية وأعلنا أن الاتحاد السوفياتي والجمهورية اللبنانية يؤيدان بحزم نضال وطني الجنوب العربي ضد السيطرة الاستعمارية الأجنبية.

ويشجب الطرفان الأعمال العدوانية الإسرائيلية المتكررة ضد البلدان العربية ويؤيدان حقوق عرب فلسطين.

وقد لاحظ وفد مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي بارتياح جهود لبنان الموجهة لتقوية استقلال البلدان العربية ووحدتها.

وقد قدر رجال الدولة اللبنانيون سياسة الاتحاد السوفياتي في قضية المحافظة على سلام وأمن الشعوب، وتوطيد التعاون الدولي، ومساندة الدول النامية في الشرق العربي الموجهة نحو توطيد استقلالها السياسي والاقتصادي.

وقد جرى تبادل الآراء حول قضايا إقامة العلاقات الودية بين الاتحاد السوفياتي والجمهورية اللبنانية وتطويرها. وقد لوحظ وجود الإمكانيات والرغبة المتبادلة في اطراد تطوير العلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية بين البلدين.

ويعتبر الطرفان أن تبادل الوفود البرلمانية يخدم الاستمرار في توسيع العلاقات وتوطيدها بين الجمهورية اللبنانية والاتحاد السوفياتي.

وقد وقع البيان رئيس مجلس النواب اللبناني صبري حمادة ورئيس وفد مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي كبريل إيلياشنكو »[٢٢].

وتعددت في السنوات اللاحقة الزيارات المتبادلة بين الوفود البرلمانية اللبنانية والسوفياتية. وفي مطلع العام ١٩٧٢ زار لبنان بدعوة رسمية وفد السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي برئاسة قسطنطين غيراسيموف، واستقبل الوفد من قبل رئيس الجمهورية اللبنانية سليمان فرنجية، ورئيس الوزراء صائب سلام، ووزير الخارجية اللبنانية خليل أبو حمد، ورئيس المجلس النيابي اللبناني كامل الأسعد، وفي ختام الزيارة صرح رئيس الوفد لوكالة أنباء نوفوستي قائلاً: « في كل مكان زرناه في لبنان شعرنا بعاطفة اللبنانيين الودية إزاء وفدنا والاتحاد السوفياتي والهدف الرئيسي لزيارتنا هو تعزيز العلاقات الودية بين بلدينا، وآمل أن تكون زيارتنا قد أسهمت بشكل إيجابي في قضية تطوير العلاقات السوفياتية - اللبنانية »[٢٣].

وفي ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ وصل إلى لبنان وفد آخر من السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي برئاسة أ. فادير في زيارة رسمية ودية تلبية لدعوة رئيس المجلس النيابي اللبناني كامل الأسعد، بهدف تعزيز علاقات الصداقة القائمة بين البلدين وتوسيع الاتصالات بين البرلمانيين في الاتحاد السوفياتي ولبنان وتوطيدها. وزار الوفد بالإضافة إلى العاصمة بيروت مدن صيدا وصور وبعلبك وبعض المؤسسات الصناعية اللبنانية، والتقى العديد من الشخصيات اللبنانية السياسية والاجتماعية، وممثلي الرأي

العام اللبناني، وفي ختام الزيارة أكد رئيس الوفد البرلماني السوفياتي، على النتائج المثمرة للزيارة معتبراً « أن الاستقبال الحار والودي الذي جرى للوفد من قبل الأوساط السياسية والرأي العام في لبنان هو شهادة ساطعة على الصداقة السوفياتية - اللبنانية الراسخة والمتينة »[٢٤].

في غضون ذلك قامت بضعة وفود برلمانية لبنانية بزيارات إلى الاتحاد السوفياتي تلبية لدعوات رسمية من هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى، منها وفد برئاسة النائب أديب الفرزلي نائب رئيس المجلس النيابي، عام ١٩٦٥، ووفد آخر برئاسة رئيس المجلس النيابي اللبناني آنذاك صبري حمادة عام ١٩٧٠. كما زار الاتحاد السوفياتي في السنوات الأخيرة بضعة وفود برلمانية، وكذلك زاره رئيس مجلس النواب الحالي حسين الحسيني.

تواصل هذا الوجه البرلماني لعلاقات الصداقة اللبنانية - السوفياتية، والتعاون المتبادل بين برلمانيي البلدين خلال سنوات الحرب الأهلية في لبنان، ولم يكن في الحقيقة والواقع إلا واحداً من أوجه الصداقة المتعددة التي ربطت بين البلدين وشعبيهما، والتي كانت بداياتها وجذورها في الأمل الذي جسدته ثورة أكتوبر لعيون الطليعة والنخبة من عمال وكتاب وأدباء لبنان وأقلامهم. واستمر عطاؤهم يواكب مسيرة الثورة في الاتحاد السوفياتي خلال سنوات البناء السلمي، وخلال معارك الجيش الأحمر البطولية في الحرب العالمية الثانية، وبعد ذلك خلال مسيرة السلام العالمية التي رفع لواءها الاتحاد السوفياتي منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، ويواصل اليوم هجومه السلمي عبر مبادرات السلام التي أطلقها ميخائيل غورباتشوف، والهادفة إلى إنقاذ البشرية من الخطر النووي المحدق بها، وتوفير الأموال الباهظة التي تنفق على سباق التسلح، وتحويلها لإشباع الجياع، وإنقاذ ملايين الأطفال من الموت، وبناء المجتمعات الجديدة

المتطورة في دول العالم المتخلّفة والنامية.

وفي مسيرة السلام هذه التي انطلقت من موسكو باتجاه العالم بأسره إنخرط الملايين من أبناء البشرية في جهاتها الأربع، عمال، وشغيلة، وكادحون، ومثقفون، ومبدعون، وقادة، ومناضلون، ومن بين هؤلاء كان الألوف من أبناء الشعب اللبناني الذين انخرطوا في مسيرة النضال من أجل السلام العالمي، وبرز من صفوفهم قادة كبار كان لهم الدور الفاعل والمؤثر محلياً وعربياً وعالمياً، فمنحوا مع المئات غيرهم من أبناء شتى دول العالم أرفع الأوسمة السوفياتية تقديراً لدورهم ونضالهم من أجل السلم واستقلال الشعوب وتعزيز الصداقة بينها.

كان انطون ثابت، رئيس «عصبة المكافحة الفاشية» ورئيس المجلس الوطني لأنصار السلم في لبنان، أول لبناني يمنح أعلى وسام سوفياتي. ففي ٢٦ حزيران (يوليو) عام ١٩٦١ منح جائزة لينين لتوطيد السلام بين الشعوب، وبعد ذلك، في ٢٠ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧٢ منح كمال جنبلاط مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي ورئيسه جائزة لينين تقديراً لنضاله من أجل حرية شعبه وشعوب البلدان الاخرى، ودفاعه عن أفكار الديمقراطية والتقدم. وفي ٢٨ حزيران (يونيو) عام ١٩٧٣ منح نقولا شاوي أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني وسام الصداقة بين الشعوب، هذا الوسام الذي منح أيضاً في العاشر من شهر نيسان (ابريل) عام ١٩٧٤ إلى ارتين مادويان. هذه الأوسمة عبر من منحت لهم إنما هي أوسمة على صدر لبنان، أرادت القيادة السوفياتية من خلالها أن تقوّم عالياً دور لبنان في النضال من أجل سلام العالم والصداقة بين الشعوب.

ولا غرابة أن يكون لبنان في طليعة البلدان العربية التي نال أبناؤها

أرفع الأوسمة السوفياتية، فلبنان كان رائداً في الترحيب بثورة أكتوبر، والتعاطف معها، وكتابه وأدباؤه كانوا في طليعة من استشرف الأثر الهام لهذه الثورة في مجرى التاريخ البشري، وهو أول من وقع الاتفاقات الثقافية في العالم العربي مع بلاد السوفيات. هذه الاتفاقات التي كان أولها عام ١٩٦٢، ثم تكرر توقيع اتفاقات وبرامج التعاون الثقافي بين البلدين في الأعوام ١٩٧٠ و ١٩٧١ و ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و ١٩٧٤، وكلها تمحورت حول تطوير الصلات الثقافية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان في حقول الثقافة، والفنون، والعلوم، والتربية، والصحة العامة، والرياضة، والصلات بين منظمات الشباب وتعزيزها. وقد عززت هذه الاتفاقات والبرامج التبادل والتفاعل الثقافي بين البلدين، ورفعت من مستوياته وكثفت نشاطاته، وقد تجلى في هذا المضمار دور المركز الثقافي السوفياتي في بيروت خاصة، بعد انتقاله إلى مقره الجديد المجهز بمكتبة عامة، وقاعة فسيحة للندوات والمحاضرات، وعروض السينما، فضلاً عن قاعات لهو الأطفال، وغرف المطالعة، وصفوف تعليم اللغة الروسية. والنشاط المكثف الذي يقوم به المركز خاصة بعد عام ١٩٨٣ جعله في طليعة المراكز الثقافية العاملة في لبنان، والملتقى الأبرز لأهل الفكر والثقافة والفن في لبنان، مما جعل من المركز صلة الوصل الفاعلة والدائمة بين لبنان والاتحاد السوفياتي، والمنهل الذي يمكن لأي لبناني أن يحصل منه على كل ما يريده من معلومات عن الاتحاد السوفياتي في الحقول والميادين كافة. وللمركز بالتعاضد مع المكتب الصحفي التابع للسفارة السوفياتية في بيروت، صلات واسعة ومتعددة مع رجال الفكر والثقافة والصحافة والاعلام في لبنان على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم وطوائفهم. ولقد زار عشرات الصحافيين اللبنانيين الاتحاد السوفياتي في السنوات العشر الاخيرة بدعوات من وكالة أنباء نوفوستي ومكتبها في بيروت والمكتب

الصحفي السوفياتي. وبواسطة المركز الثقافي السوفياتي في بيروت تمّ عقد اتفاقات التعاون الثقافي بين اتحاد الكتاب اللبنانيين والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي واتحاد الكتاب السوفيات، وجرت زيارات متبادلة بين ممثلي اتحادي الكتاب في كلا البلدين، عززت بدورها قواعد التفاعل الثقافي اللبناني ـ السوفياتي المتواصل منذ سنوات بعيدة، والذي يتجلى بصورة خاصة في كل عام مع الذكرى السنوية لثورة أكتوبر، فيعرب كتاب لبنان وأدباؤه، لا سيما الماركسيون منهم، من جديد عن مشاعرهم تجاه بلاد أكتوبر ومنجزاتها ودورها في مجرى التطور الراهن للبشرية بأسرها. وفي هذا السياق كانت مناسبة الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر محطة هامة في تاريخ العلاقة الفكرية والثقافية اللبنانية السوفياتية. ففي خمسينية أكتوبر شارك عشرات الكتاب والأدباء اللبنانيين في المهرجانات والندوات التي أقيمت بالمناسبة، وكتب العديد منهم المقالات عن الثورة في الصحف اللبنانية اليومية والأسبوعية. وفي مقدمة هؤلاء كانت أقلام الأديب ميخائيل نعيمة، والشاعر ألياس أبو شبكة، وكمال جنبلاط، ورشيد كرامي، والعلامة الشيخ عبدالله العلايلي، والدكتور جورج حنا، والدكتور حسين مروة، والدكتور سهيل ادريس، ومنير بعلبكي، وأحمد سويد، وحبيب صادق، ورضوان الشهال، وسعيد عقل، ومحمد عيتاني، ومحمد كشلي، وإميلي نصرالله، والعديد غيرهم. وقبل ذلك لمعت كتابات عمر فاخوري، ورئيف خوري لا سيما قصيدته الخالدة المكرسة للثورة «نشيد الزمان» والتي ألقاها بمناسبة الذكرى الثلاثين لثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا.

هذا التوجه الثقافي اللبناني المستنير بمبادىء ثورة أكتوبر والمواكب لمسيرتها منذ أيامها الأولى، يقابله من الجانب السوفياتي اهتمام كبير بلبنان

وثقافته ومثقفيه ونتاجاتهم وإبداعهم. وفي محصلة هذا التعاطف الثقافي المشترك وتعبيراً عنه وتجسيداً لواقعه وطموحاته، كانت الاتفاقات وبرامج التعاون الثقافي بين البلدين، وكذلك النشاطات الثقافية المشتركة والتي تكثفت بصورة خاصة هذا العام وبمناسبة الذكرى السبعين لثورة أكتوبر الاشتراكية. فلقد تشكلت في لبنان عشية حلول هذه الذكرى السبعينية لجنة وطنية خاصة للاحتفالات بعيد ثورة أكتوبر، ضمت أكثر من ١٥٠ شخصية لبنانية سياسية وثقافية ومن رجال الفكر والأعلام والأدباء والشعراء والكتاب. ولقد أشرفت اللجنة على الاحتفالات التي نظمتها بالمناسبة بالتعاون مع جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية، ومع المركز الثقافي السوفياتي في بيروت. فأقيمت عشرات الندوات السياسية في العاصمة بيروت وخارجها، ونظمت المهرجانات والمعارض الفنية، ووصلت إلى بيروت للمشاركة في الاحتفالات فرقتان فنيتان سوفياتيتان من أشهر الفرق السوفياتية هما فرقة «روستافي» الجيورجية وفرقة «روس» ورباعي وتري شهير من جمهورية لاتفيا السوفياتية. فكانت مهرجانات الفن والثقافة والأدب في كل الأنحاء اللبنانية في الشطر الغربي للعاصمة بيروت وفي شطرها الشرقي، في الشمال والجبل والجنوب... فالسوفياتيون لا يفرقون بين منطقة لبنانية وأخرى فهم يتوجهون إلى لبنان، كل لبنان بمناطقه كافة وطوائفه مجتمعة، إنهم يتعاملون معه بوصفه الوطن الواحد ذا السيادة الحر المستقل... خلافا لتوجهات دعاة تقسيمه وتفتيته القابعين في داخله، أو المتربصين به من الخارج. وهذا الموقف السوفياتي النظري والتطبيقي، إنما هو أحد العوامل الهامة المستعصية التي حالت وتحول حتى الآن دون نجاح مؤامرة تقسيم لبنان وتفتيته.

وفي إطار النمو المطرد للعلاقات اللبنانية ـ السوفياتية لا سيما في بداية

السبعينات، إحتل مكانة هامة الاتفاق الأول من نوعه بين لبنان والاتحاد السوفياتي الذي وقع في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ والمتعلق بشراء لبنان لبعض أنواع السلاح السوفياتي. ففي منتصف شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٧١ أبلغ السفير السوفياتي في لبنان سرفار عظيموف إلى رئيس الحكومة اللبنانية صائب سلام استعداد الاتحاد السوفياتي لتجهيز لبنان بكل ما يحتاجه من أسلحة[٢٥]. وعلى الأثر جرت محادثات بين مسؤولي البلدين إنتهت بمباحثات جرت في موسكو بين وزير الدفاع اللبناني الياس سابا، ووزير الدفاع السوفياتي أندريه غريتشكو، أسفرت عن توقيع إتفاقية شراء أسلحة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢، كانت الأولى من نوعها بين البلدين، ونصت على أن يزود الاتحاد السوفياتي لبنان بدبابات ومدفعية ثقيلة، وسلاح مضاد للطيران قيمتها حوالي ٢,٥ مليون دولار، ولقاء ذلك وعد الاتحاد السوفياتي بزيادة وارداته من المنتجات اللبنانية. خاصة الزراعية منها[٢٦]. وبالفعل نفذ الاتفاق واشترى لبنان لأول مرة أسلحة من الاتحاد السوفياتي (مدافع ميدان ١٢٠). ولقد قال لي الوزير الدكتور الياس سابا، إن إسرائيل شعرت لأول مرة ببعض الألم من ضربات لبنان رداً على إعتداءتها عندما إستخدمنا المدفعية السوفياتية في مواجهة مع الجيش الإسرائيلي عام ١٩٧٤. وأضاف الدكتور سابا قوله: ولكن للأسف فإن توقيع اتفاق شراء السلاح من الاتحاد السوفياتي بقي وحيداً ولم يتكرر ثانية منذ عام ١٩٧٢.[٢٧]

هوامش

(١) حسين مروة: ثورة أكتوبر في الأدب اللبناني، مجلة الطريق، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٧، ص ٧٣.

(٢) مجلة الطريق، عدد ٢ آذار (مارس) ١٩٤٥.

(٣) صديق لبناني: مقال للكاتب الأوكراني نوفيتزكي نشرته مجلة «الأنباء السوفياتية»، في نيسان (ابريل) عام ١٩٥٨.

(٤) مقابلة أجرتها معه وكالة أنباء نوفوستي ونشرت بتاريخ ٢١/١١/١٩٧٣.

(٥) جريدة النداء اللبنانية، ٢٧/١/١٩٦٤.

(*) النائب الدكتور هاشم الحسيني تولى رئاسة جمعية الصداقة اللبنانية السوفياتية من سنة ١٩٧٠ إلى سنة ١٩٨١ ثم خلفه في رئاستها الدكتور النائب ألبير منصور الرئيس الحالي للجمعية.

(٦) جريدة النداء اللبنانية ٢٦/٣/١٩٧٠.

(٧) توالى على تمثيل الاتحاد السوفياتي في لبنان منذ إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في العام ١٩٤٤ السادة السفراء:

١ - دانيال سيمونوفيتش سولود - ١٤/٩/١٩٤٤ - ٢٢/٤/١٩٥٠.
٢ - إيليا كايساروفيتش تافادزة - ٢٢/٤/١٩٥٠ - لم يغادر موسكو إلى بيروت لتولي منصبه.
٣ - فاسيلي أفاناسيفيتش بليايف - ٢٤/١١/١٩٥٠ - ١٧/١٢/١٩٥٥.
٤ - سيرغي بتروفيتش كيكتيف - ١٦/٨/١٩٥٦ - ١٠/٧/١٩٦١.
٥ - فاسيلي إيفانوفيتش كورتيف - ١٠/٧/١٩٦١ - ٩/١٠/١٩٦٢.
٦ - ديميتري سيمونوفيتش نيكيفوروف - ٩/١٠/١٩٦٢ - ٦/٥/١٩٦٦.
٧ - بيتر سيمونوفيتش ديدوشكين - ٦/٥/١٩٦٦ - ٢٠/٥/١٩٦٦.
٨ - سرفار عليمو جانوفيتش عظيموف - ٢٠/٥/١٩٦٩ - ١٧/١٠/١٩٧٤.
٩ - ألكسندر الكسيف سولداتوف - ١٧/١٠/١٩٧٤ - ١٠/٥/١٩٨٦.
١٠ - فاسيلي إيفانوفيتش كولوتوشا - ١٠/٥/١٩٨٦ - السفير الحالي.

(٨) وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية ١٩/٨/١٩٧١.

(٩) وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية ١٩/٨/١٩٧١.

(١٠) وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية ١٩/٨/١٩٧١.

(١١) وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية ١٨/٨/١٩٧١.
(١٢) وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية ٢٥/٩/١٩٧٢.
(١٣) مجلة «المدار» السوفياتية عدد تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٧٢.
(١٤) وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية ٢٨/٩/١٩٧٢.
(١٥) وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية ١٥/١٢/١٩٧٢.
(١٦) الصحف البيروتية حزيران ١٩٧٣.
(١٧) ي. زيمليانسكي: تاريخ العلاقات بين لبنان والاتحاد السوفياتي، مقال نشرته وكالة أنباء نوفوستي ٧/٨/١٩٦٩.
(١٨) جريدة النهار اللبنانية ٢٩/٦/١٩٥٦.
(١٩) جريدة «برافدا» ١٢/٦/١٩٥٧.
(٢٠) حديث الرئيس اللبناني وزعه القسم الصحفي في السفارة السوفياتية في لبنان في ١٠/٥/١٩٦٧ ضمن سلسلة معلومات عن زيارة الوفد البرلماني السوفياتي إلى لبنان والتي استمرت من ٤ إلى ١٢ أيار (مايو) ١٩٦٧.
(٢١) نشرة القسم الصحفي في السفارة السوفياتية في لبنان ١١/٥/١٩٦٧.
(٢٢) جريدة النداء ١٣/٥/١٩٧٢.
(٢٣) وكالة أنباء نوفوستي ٨/١/١٩٧٢.
(٢٤) صحيفة «أنباء موسكو» ١٤/٢/١٩٧٤.
(٢٥) جريدة «الشعب» اللبنانية ١٥/٦/١٩٧١.
(٢٦) جريدة «النداء» اللبنانية ٢٥/١١/١٩٧١.
(٢٧) لقاء مع الوزير السابق الدكتور الياس سابا. تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٧.

٢ ـ العلاقات الاقتصادية والتجارية والسياحية اللبنانية ـ السوفياتية

أ ـ العلاقات الاقتصادية والتجارية

كما كان لبنان البلد العربي الأول الذي نشأت فيه جمعية لأصدقاء الاتحاد السوفياتي والبلد العربي الأول الذي وقع اتفاقاً للتعاون الثقافي مع الاتحاد السوفياتي، فلبنان كذلك كان البلد العربي الأول الذي وقع مع الاتحاد السوفياتي اتفاقية للتبادل التجاري. ولقد شكلت العلاقات الاقتصادية السوفياتية ـ اللبنانية دليلاً على التقدم والتنامي الذي تتسم به العلاقات السوفياتية ـ العربية بصورة عامة. فالاتفاق السوفياتي ـ اللبناني حول التبادل التجاري والمدفوعات الذي وقع في نيسان (ابريل) ١٩٥٤ نصّ على منح نظام البلد الأكثر رعاية في جميع مسائل التجارة والملاحة، وقيام التبادل التجاري على أساس تعادل الصادرات والواردات (الكليرينغ). وتطويراً لهذا الاتفاق وقع في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣ بروتوكول حول تداول البضائع بين البلدين لعام ١٩٦٤. وقد مدد هذا البروتوكول سنة بعد سنة. وقد لعب اتفاق عام ١٩٥٤ وبروتوكول عام ١٩٦٣ دوراً كبيراً في تطوير العلاقات التجارية بين البلدين. وتكفي الإشارة إلى أنه منذ العام ١٩٥٥ وهو العام الأول لتنفيذ الاتفاق التجاري بين البلدين، وحتى العام ١٩٦٩ نمت وتائر التجارة السوفياتية ـ اللبنانية وازدادت أكثر من ست مرات، وبلغت قيمة التبادل التجاري بين البلدين في العام ١٩٦٨ ما قيمته ١٣,١ مليون روبل. (الروبل السوفياتي يساوي وفق السعر الرسمي في الاتحاد السوفياتي حوالى ١,٦٠

دولار). وفي خلال الأعوام الخمسة الأخيرة حتى العام ١٩٧٠ تضاعفت المبادلات التجارية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان أكثر من مرتين فارتفعت من ٨ ملايين و ٤٠٠ ألف روبل في العام ١٩٦٦ إلى ١٧ مليون و ٥٠٠ ألف روبل في العام ١٩٧٠ [١].

وهكذا تخطت قيمة التبادل التجاري بين البلدين في العام ١٩٧٠ عشر مرات المستوى الذي كانت قد بدأت به في العام ١٩٥٥، وفق ما تظهره أرقام الجدول الآتي:

	سنة ١٩٥٥	سنة ١٩٦٥	سنة ١٩٦٨	سنة ١٩٦٩
تداول البضائع	٢,٠	٧,٢	١٥,٣	١٣,١
التصدير	١,٢	٥,٠	١٢,٢	١٠,٤
الاستيراد	٠,٨	٢,٢	٣,١	٢,٧

وتدل هذه الأرقام أن وتائر تطور التجارة السوفياتية ـ اللبنانية تتخطى بصورة ملموسة وتائر زيادة كل التجارة الخارجية في لبنان، الأمر الذي يشهد على الامكانيات الكبيرة لتطوير وتعزيز العلاقات التجارية والاقتصادية المتبادلة النفع بين البلدين. كما نلاحظ من خلال أرقام هذا الجدول الفرق بين نسبة الصادرات السوفياتية إلى لبنان ونسبة استيراد الاتحاد السوفياتي من البضائع اللبنانية. وذلك يعود إلى ضعف الانتاج اللبناني وارتفاع قيمة ما يشتريه لبنان من المواد الأولية من الاتحاد السوفياتي. وهذه ظاهرة ملازمة للاقتصاد اللبناني في تعامله مع سائر الدول إذ تفوق دائماً نسبة الواردات اللبنانية، نسبة الصادرات وهذا ما يفسر العجز الدائم في الميزان التجاري اللبناني. وخلال سنوات ١٩٥٥ ـ ١٩٦٩ صدّر الاتحاد السوفياتي إلى لبنان مئات آلاف الأمتار المكعبة من الخشب،

وعشرات الآف الأطنان من الصفائح الحديدية، والحديد، وأنابيب الغاز والسكر، وملايين الأمتار من الأقمشة القطنية وصادرات أخرى متنوعة. وخلال الفترة ذاتها غطت واردات لبنان من الاتحاد السوفياتي كل حاجة لبنان من الفولاذ تقريباً ومن عشرين إلى خمسة وعشرين بالمئة من حاجته إلى الصفائح الحديدية، وسبعين بالمئة من الحديد، وخمسة وثلاثين بالمئة من الأخشاب المنشورة ومن عشرة إلى خمسة عشر بالمئة من الأنابيب الخ... وتعرفت أسواق لبنان وخبرت بصورة جيدة الشاحنات، والجرارات السوفياتية، ومقاطع المعادن، وماكنات النسيج، وغيرها من الآلات الصناعية ومختلف الماكنات الزراعية والصناعية.

وخلال الفترة ذاتها أصبح الاتحاد السوفياتي سوقاً دائمة وواسعة لتصريف البضائع اللبنانية ولا سيما المنتجات الزراعية. ولقد وصلت حصة الاتحاد السوفياتي من مجمل صادرات لبنان من الصوف إلى عشرين وحتى في بعض السنوات خمسة وعشرين بالمئة وزهاء عشرة بالمئة من التفاح وبين عشرة وخمسة عشر بالمئة من الجلود ومن أربعة إلى خمسة بالمئة من الحمضيات. كما اتسعت عشية السبعينات لائحة البضائع التي يشتريها الاتحاد السوفياتي من لبنان ولا سيما منتجات الصناعة اللبنانية التي كانت آنذاك آخذة في النمو، وارتفعت كميات التفاح اللبناني المصدرة إلى الاتحاد السوفياتي.

إلا أنه بغض النظر عن النجاحات الملموسة التي حققتها التجارة السوفياتية ـ اللبنانية على أساس اتفاق عام ١٩٥٤، فإن حجم التجارة لم يستجب كلياً لامكانيات الجانبين. وتشهد على ذلك الأرقام العامة للتجارة السوفياتية ـ اللبنانية والوزن النوعي للاتحاد السوفياتي في تجارة لبنان الخارجية.

لقد أشير أكثر من مرة إلى امكانيات توسيع التعاون التجاري والاقتصادي بين البلدين، وتعزيزه في تصريحات ممثلي الأوساط التجارية ـ الصناعية في لبنان الذين يعارضون اتجاه البلاد في التعاون الاقتصادي مع الدول الغربية وحدها. وفي هذا المجال أشار هؤلاء إلى الامكانيات القائمة للتعاون المفيد مع البلدان الاشتراكية ولا سيما الاتحاد السوفياتي.

ولأجل دراسة وضع العلاقات التجارية ـ الاقتصادية بين البلدين وآفاق تطورها، زار الاتحاد السوفياتي في تموز (يوليو) عام ١٩٧٠ وفد اقتصادي حكومي لبناني برئاسة الرئيس سليمان فرنجيه، الذي كان يشغل في حينه منصب وزير الاقتصاد اللبناني. وقد نوقشت بالتفصيل في مجرى المفاوضات قضايا العلاقات التجارية وامكانيات تطويرها اللاحق.

وبنتيجة المفاوضات المثمرة والناجحة التي جرت بروح الصداقة والتفهم المتبادل بين الوفدين الحكوميين السوفياتي واللبناني وقعت في موسكو في ١٦ تموز (يوليو) ١٩٧٠ اتفاقية جديدة للتجارة والمدفوعات تنص على الانتقال إلى التعامل بالعملة الحرة. وتعهد الجانبان بموجب الاتفاقية بأن يقدم كل منهما للآخر المساعدة الضرورية للاشتراك في المعارض التجارية التي تنظم في كل من البلدين وفي تبادل المعارض.

إن الاتفاقية التي تنص على أشكال جديدة في التجارة والتعاون الاقتصادي بين الاتحاد السوفياتي ولبنان، فتحت آفاقاً واسعة في قضية التطوير اللاحق للعلاقات الاقتصادية. وفي العام ١٩٧٠ ازداد التداول البضائعي بين البلدين بالمقارنة مع العام ١٩٦٩، بمقدار ٣٣,٦ بالمائة. وازدادت صادرات الاتحاد السوفياتي إلى لبنان بنسبة ١٢,٣ بالمائة في الوقت الذي ازدادت فيه صادرات لبنان إلى الاتحاد السوفياتي ٤٠,٧ بالمائة.

ورغم هذه الزيادة الملموسة في تجارة العام ١٩٧٠ التي أسهم فيها توقيع الاتفاقية التجارية الجديدة، ورغم عدم استخدام كل الامكانيات فإن التجارة بين البلدين يمكن أن تنمو في المستقبل بشكل ملموس إذ أن الاتحاد السوفياتي يملك إمكانيات كبيرة لزيادة تصديره من الماكنات، والأجهزة الضرورية لتطوير الاقتصاد الوطني في لبنان كما يمكنه المساهمة في المشاريع الانمائية كبناء سكك حديد وطرق ومرافىء ومحطات توليد كهرباء وغير ذلك من المشاريع. وتلعب منتجات جملة من المؤسسات في هذا المجال دوراً كبيراً. إن مثل هذه المنتجات أصبحت تشكل عاملاً هاماً في العلاقات التجارية ـ الاقتصادية بين الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية. يكفي القول بأن هذه المنتجات شكلت في العام ١٩٧٠ زهاء نصف صادرات الاتحاد السوفياتي إلى سوريا وزهاء الربع إلى مصر. ويجري تسديدها بمنتجات وطنية. وهكذا فإن زيادة الصادرات السوفياتية من الماكنات والتجهيزات والمنتجات الصناعية الأخرى ستؤدي حتماً إلى زيادة صادرات لبنان من البضائع التقليدية وغير التقليدية إلى الاتحاد السوفياتي.

لقد فتح اتفاق العام ١٩٧٠ بين البلدين حول التبادل التجاري والمدفوعات، آفاقاً واسعة لتطوير العلاقات والروابط الاقتصادية بين البلدين. ومن نتائجه الأولى كان تنظيم المعرض الأول لمنتجات الصناعة اللبنانية من ٢٧ تموز (يوليو) إلى ١٥ آب (اغسطس) ١٩٧١، في موسكو والذي شكل اسهاماً فعالاً في تطوير العلاقات التجارية بين البلدين. فقد أثار المعرض اهتماماً ملموساً لدى الرأي العام السوفياتي ولدى ممثلي مؤسسات التجارة الخارجية السوفياتية الذين أتيحت لهم الإمكانية ليتعرفوا إلى المنتجات الصناعية والزراعية المعروضة، وليقتنعوا

بالنجاحات التي حققتها الصناعة والزراعة في لبنان. ولقد اشترك في المعرض حوالي ستين شركة لبنانية، وحضر افتتاحه في حديقة سوكولينكي بموسكو، وهي المكان التقليدي للمعارض الدولية والأجنبية في العاصمة السوفياتية، السفير اللبناني في موسكو نعيم الاميوني، [٢] وفريد الصلح مدير عام وزارة الاقتصاد الوطني، وفؤاد أبو صالح وغيرهم من ممثلي رجال الأعمال اللبنانيين فضلاً عن مدير المعرض نبيل لاذقي.

لدى افتتاح المعرض عقد سفير لبنان في موسكو نعيم الاميوني مؤتمراً صحافياً أعلن فيه أن أول معرض صناعي لبناني في موسكو هو حدث هام في تاريخ العلاقات التجارية السوفياتية اللبنانية، وأشار إلى نجاحات تطوير الروابط الاقتصادية بين البلدين. وبعد أن لفت انتباه الحضور إلى واقع أن المصنوعات اللبنانية لا تنقص بشيء عن مثيلاتها من المصنوعات في الغرب أعلن السفير: «إننا نأمل أن يتعاظم باستمرار التبادل التجاري بين لبنان والاتحاد السوفياتي لمصلحة البلدين، وأن يساهم في تطوير الصداقة بين الشعبين السوفياتي واللبناني» [٣].

وفي إطار العلاقات الاقتصادية بين البلدين، قدم الاتحاد السوفياتي إلى لبنان اقتراحات عديدة تهدف إلى تقديم تجهيزات كاملة للاقتصاد اللبناني، وبناء مترو في مدينة بيروت، وتحقيق مشاريع ري الأراضي بمياه الليطاني ومشاريع أخرى. وأعرب الاتحاد السوفياتي عن استعداده لتوسيع استيراد المنتجات الزراعية والسلع التي تنتجها الصناعة اللبنانية إذا وسع لبنان بدوره شراء الماكنات والمعدات السوفياتية. وتجدر الإشارة إلى تطلع الاتحاد السوفياتي إلى المساهمة في توسيع الصادرات اللبنانية، وعبر ذلك في تطوير الاقتصاد الوطني اللبناني. ولا بد من الملاحظة أنه حتى العام ١٩٧٢ كانت قيمة مستوردات لبنان تفوق وتتخطى قيمة صادراته مع المتعاملين

الرئيسيين معه على النحو الآتي: أحد عشر مقابل واحد في التعامل مع الولايات المتحدة الأميركية، سبعة عشر مقابل واحد في التعامل مع بريطانيا العظمى، عشرون مقابل واحد في التعامل مع المانيا الغربية. واحد وثلاثون مقابل واحد في التعامل مع سويسرا، في حين أن تخطي صادرات الاتحاد السوفياتي إلى لبنان لمستورداته منه لم تكن تشكل سوى ثلاثة مقابل واحد. وفي العام ١٩٧١ توسعت العلاقات التجارية بين البلدين ووقعت المؤسسات السوفياتية للتجارة الخارجية في ذلك العام عقوداً مع «شركة المستوردات الشرقية» تنص على بيع لبنان سيارات ركاب ومع شركة «عبد المسيح» لبيعها ثاقبات هوائية لتمديد الأنابيب والاسلاك دون القيام بأعمال الحفر، واشترت مؤسسات «غبريال بدارو»، و«صبحي مزراعي»، و«هاني بيضون» من الاتحاد السوفياتي أسلاك قوة وأنابيب غاز، واشترت مؤسسة «قيصر أسود» كميات من الأخشاب.

وفي ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ وصل إلى بيروت نيقولاي باتوليتشيف وزير التجارة الخارجية في الاتحاد السوفياتي، بدعوة من رئيس الجمهورية اللبنانية سليمان فرنجية، لاجراء مباحثات مع المسؤولين اللبنانيين حول سبل تطوير العلاقات التجارية السوفياتية ـ اللبنانية. وخلال الزيارة بحث الجانبان اللبناني والسوفياتي مسائل التعاون الاقتصادي، وكذلك امكانيات زيادة المبادلات التجارية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان في إطار اتفاق التجارة والمدفوعات الموقع في العام ١٩٧٠ في موسكو. وجاءت زيارة وزير التجارة الخارجية السوفياتية إلى لبنان في نطاق المفاعيل التنفيذية لذلك الاتفاق. فقد ذكر رئيس الوفد اللبناني وزير الاقتصاد سليمان فرنجية، والذي أصبح بعد شهرين من توقيعه للاتفاق الاقتصادي في موسكو رئيساً للجمهورية اللبنانية، ذكر آنذاك، أنه بعد دخول

الاتفاق الجديد حيّز التنفيذ، لن يكون هناك عقبات في طريق توسيع التجارة السوفياتية ـ اللبنانية، فالاتفاق الذي ينص على أشكال جديدة لعلاقات الأعمال يفتح آفاقاً طيبة لتطور المبادلات التجارية اللبنانية ـ السوفياتية [٤].

وفي ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٧٢، أقيم في بيروت، في قصر الأونيسكو برعاية وزير الاقتصاد اللبناني آنذاك أنور الصباح، المعرض التجاري والصناعي السوفياتي عشية الذكرى الخمسين لقيام دولة الاتحاد السوفياتي، تعبيراً عن الرغبة السوفياتية في زيادة تطوير وتعميق العلاقات الاقتصادية والتجارية مع لبنان. وفي حفل افتتاح المعرض أعلن سرفار عظيموف سفير الاتحاد السوفياتي في لبنان آنذاك، أن بلاده تعير أهمية بالغة لتنمية علاقاتها الودية مع لبنان الذي تربطه بالاتحاد السوفياتي منذ سنين عديدة علاقات حسنة في المجالات كافة، وأضاف قائلاً: «وأود أن أذكر بارتياح ذلك الاسهام الكبير الذي أسداه فخامة رئيس الجمهورية سليمان فرنجية في تطوير العلاقات الاقتصادية بين بلدينا. فاثناء زيارته للاتحاد السوفياتي في تموز (يوليو) عام ١٩٧٠ تمّ التوقيع على الاتفاقية حول التجارة والمدفوعات التي فتحت آفاقاً جديدة لتنمية التجارة بين البلدين، وبموجب هذه الاتفاقية يعمل الاتحاد السوفياتي على زيادة حجم مشترياته من الصادرات اللبنانية التقليدية، وبعض منتجات الصناعة الوطنية اللبنانية. وبالمقابل يصدر الاتحاد السوفياتي إلى لبنان البضائع التي يهتم بلدكم بشرائها. إننا نتيح لضيوفنا الكرام، اليوم فرصة الاطلاع على المعروضات التي يتضمنها هذا المعرض والتعرف إلى بلادنا وإلى بعض منجزاتها.

إننا نعتبر تطور التجارة الخارجية وسائر العلاقات الاقتصادية سلاحاً

قوياً في تعزيز السلم والصداقة بين الشعوب، ونعتبرها وسيلة للتقارب وازدياد التفهم بينها. ولذلك نأمل أن يساعد هذا المعرض التجاري والصناعي السوفياتي بدوره، على زيادة تعزيز عرى الصداقة والود بين شعوب الاتحاد السوفياتي ولبنان.

وختاماً أود وأنا أفتتح هذا المعرض أن أشكر في شخصكم، يا معالي الوزير، الحكومة اللبنانية وهذا الشعب المحب للسلام على وده وحفاوته التقليديين» [٥]. هذا وقد تواصل لاحقاً نمو وتوسع المبادلات التجارية بين الاتحاد السوفياتي ولبنان بصورة مطرده رغم سنوات الحرب التي دخلها لبنان. وقد أوضحت مجلة «التجارة الخارجية السوفياتية» في عددها رقم ٣٠ الصادر في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧ أن قيمة التبادل التجاري بين الاتحاد السوفياتي ولبنان خلال الفترة بين شهري كانون الثاني (يناير) وحزيران (يونيو) من العام ١٩٨٦ بلغت ٥،٣ مليون روبل، وقيمة مستوردات لبنان من الاتحاد السوفياتي خلال الفترة ذاتها كانت ٤،٣ مليون روبل، بينما كانت قيمة صادراته إلى الاتحاد السوفياتي ١،٠ مليون روبل. وخلال الفترة ذاتها من العام ١٩٨٧، بلغت قيمة التبادل التجاري بين لبنان والاتحاد السوفياتي ٥،٣ مليون روبل أيضاً، فيما بلغت قيمة الصادرات السوفياتية إلى لبنان في الفترة ذاتها ٤،٤ مليون روبل، وقيمة المستوردات السوفياتية من لبنان ٠،٩ مليون روبل. وفي لقاء مع أحد مسؤولي الملحقية التجارية السوفياتية في بيروت قال: «إن حركة التبادل التجاري بين لبنان والاتحاد السوفياتي مستمرة ومتواصلة، وسيشهد العام القادم ١٩٨٨ مزيداً من توسعها وتطورها، ونحن الآن بصدد اعداد مشروع اتفاق تجاري ـ اقتصادي جديد بين الاتحاد السوفياتي ولبنان، يتجاوب مع النمو الذي عرفته حركة التبادل الاقتصادي والتجاري بين بلدينا خلال السنوات

الأخيرة التي أعقبت الاتفاق الاقتصادي التجاري الموقع بينهما في العام ١٩٧٠. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بعض الأنباء الصحافية كانت قد أفادت في ربيع العام ١٩٨٧ أن الاتحاد السوفياتي قد قام بواسطة إحدى محطاته المدارية في الفضاء الخارجي بعملية تصوير متكاملة وشاملة لجوف الأراضي اللبنانية برمتها، وبات في حوزته ملفاً مصوراً لباطن الأرض اللبنانية ومحتوياتها الممكنة من الثروات المعدنية والمائية وسواها وهو على استعداد لتقديم هذا الملف إلى السلطات اللبنانية الرسمية المعنية إذا ما طلبته منه. وقد تناقلت الصحافة اللبنانية هذا الخبر في حينه غير أن أي موقف رسمي لبناني بهذا الشأن لم يعلن بعد.

والحقيقة أن مستوى العلاقات الاقتصادية والتجارية بين لبنان والاتحاد السوفياتي في نطاق عمليات القطاع الخاص اللبناني متقدمة بكثير عن مستوى تلك العلاقات في نطاق القطاع العام في لبنان. وربما كان ذلك عائداً إلى الموقف السياسي اللبناني الرسمي أو إلى المنحى العام لدى خبراء الدولة اللبنانية الذين تخرج معظمهم من جامعات غربية خارج لبنان أو في داخله، نحو التكنولوجيا الغربية والمواصفات الغربية، فينظمون دفاتر الشروط لهذا المشروع أو ذاك العائد للقطاع العام بما يناسب تكنولوجيا هذا البلد الغربي أو ذاك، أو هذه الشركة الغربية أو تلك بعيداً عن مواصفات التكنولوجيا السوفياتية. وعندما زار في أوائل العام ١٩٧٧ وفد تجاري سوفياتي مؤلف من رئيس شركة «تكنوسبورت» وممثل لجنة الدولة السوفياتية للعلاقات الاقتصادية الخارجية يرافقها الملحق التجاري السوفياتي في بيروت آنذاك، السيد كوجوفنيكوف (والذي أصبح ملحقاً تجارياً سوفياتياً في الولايات المتحدة الأميركية) القصر الجمهوري في بعبدا واجتمعوا مع الدكتور محمد غطالله رئيس مجلس الانماء والاعمار

اللبناني آنذاك. تبيّن لهما أن اصرار المسؤولين في شركة الكهرباء اللبنانية على رفض أي مواصفات بديلة (وكان الحديث يدور حول مولدات معمل الجية الكهرو حراري) حتى ولو استوت تكنولوجيا مع دفتر الشروط أو امتازت عليه، يحول دون مشاركة الشركات السوفياتية في مناقصات القطاع العام اللبناني، بينما يختلف الأمر في القطاع الخاص حيث المصلحة العامة للشركة والمصلحة الخاصة لصاحب الشركة خاصة عندما تكون الشركات فردية أو عائلية كما هي حال معظم الشركات في لبنان، تلتقيان وتتوحدان، فإن مسألة المواصفات لم تقف عائقاً دون توقيع العقود مع الشركات السوفياتية لشراء تجهيزات متكاملة منها. وهذا ما أقدمت عليه شركة «بوليغراف أومبورت كومباني» اللبنانية لصاحبيها السيدين حسين حطيط ومحمد عساف إذ اشترت في أواخر العام ١٩٧٧ من الاتحاد السوفياتي مشروعاً صناعياً متكاملاً بكامل تجهيزاته هو مطحنة قمح، ثم باع الاتحاد السوفياتي عبر الشركة اللبنانية المذكورة اعلاه إلى القطاع الخاص في لبنان مطحنتي قمح ومعمل علف، فكانت هذه تجربة رائدة على امكانية خروج علاقات التبادل التجاري بين لبنان والاتحاد السوفياتي من مجرد شراء البضائع وبعض المواد الخام إلى شراء مشاريع صناعية متكاملة بكامل تجهيزاتها. وكانت بداية التجربة ناجحة في القطاع الخاص، وهذا ما يبشر بامكانية تطوير هذا النوع من علاقات التبادل الاقتصادي بين لبنان والاتحاد السوفياتي، للإفادة من الخبرة السوفياتية في عملية إعادة بناء الصناعة الوطنية في لبنان وتطويرها. الأمر الذي يتطلب تبدلاً في سياسة القطاع العام في لبنان والمشرفين عليه، وهذا التبدل يمكن إحرازه طبعاً تبعاً لمعطيات الموقف السياسي لدى مركز القرار في قمة السلطة السياسية في لبنان. فإن كانت توجهاتها ايجابية بصدد تعزيز التعامل مع الاتحاد السوفياتي، فإن كل «عِقد المواصفات» التكنولوجية

على المستوى التنفيذي تتحلحل وتزول، لأنها في الحقيقة عقد شكلية المقصود منها حصر تعامل لبنان الرسمي مع الغرب وشركاته لأسباب سياسية وغيرها، بعيداً عن المواصفات التكنولوجية المتوافرة ولا شك في نتاج الصناعات السوفياتية بنسب موازية لنتاجات صناعة الغرب وشركاته، إن لم تكن متفوقة عليها في بعض الميادين.

ب ـ العلاقات السياحية بين لبنان والاتحاد السوفياتي

في العام ١٩٥٩ وصل إلى لبنان أول فريق سياحي سوفياتي ومنذ ذلك الحين تطور تبادل الوفود السياحية بين البلدين. وابتداء من العام ١٩٦٨ بدأ مكتب «سبوتنيك» وهو مكتب سوفياتي للسياحة العالمية للشبيبة، تعاونه النشيط مع وكالتي السياحة والسفر اللبنانيتين «بلانت ترافل اندتوريسم» و«جنرال تورز» وقبلها شركة «ترانزاس» السياحية لصاحبها قيصر أسود. ومع تطور المبادلات السياحية بين البلدين، لم تعد الممارسة العملية القائمة للمبادلات السياحية تستجيب للحاجات المتزايدة في هذا المجال. فكان لا بد من تنظيم العمل بين البلدين في الإطار السياحي، ولهذه الغاية وصل إلى موسكو في حزيران (يونيو) عام ١٩٧٠ وفد رسمي لبناني برئاسة النائب خاتشيك بابيكيان وزير السياحة اللبناني آنذاك، وأجرى مباحثات مع المسؤولين السوفيات المعنيين، أسفرت عن توقيع أول اتفاق رسمي حول السياحة بين البلدين وقعه بتفويض من الحكومتين السوفياتية واللبنانية، سيرغي نيكيتين رئيس الإدارة السوفياتية للسياحة الأجنبية، ووزير السياحة اللبناني خاتشيك بابيكيان. وقد قدّر الطرفان أرفع تقدير هذا الاتفاق الذي يفتح آفاقاً جديدة لتطوير العلاقات السوفياتية ـ اللبنانية وتوطيدها. وينص الاتفاق على زيادة

رحلات مواطني البلدين المتبادلة، وتبادل التجربة بين اختصاصيي دوائر السياحة. وقد تم التفاهم حول مهلة العمل بسمات الدخول ومدة الاتفاق سنة واحدة. وهو قابل للتمديد سنوياً بناء على رغبة الطرفين.

قال السيد ليونيد خودوركوف النائب الأول لإدارة شركة «أنتوريست» السوفياتية، الذي اشترك في المحادثات مع الوفد اللبناني، «إن اهتمام السوفياتيين بلبنان لا يكف عن الازدياد، وعدد أولئك الذين يرغبون في زيارة لبنان يتعاظم باستمرار. لذلك فإن الاتفاق حول السياحة الذي وقع بين البلدين هو أساس متين لمبادلات سياحية أوسع بينهما. وسيساهم الاتفاق السوفياتي ـ اللبناني الجديد دون جدال في توسيع الاتصالات مع الرأي العام اللبناني في مختلف الحقول، ذلك لأن الرحلات السياحية تساعد في إقامة الاتصالات الشخصية والاتصالات بين المنظمات»[٦].

أما الوزير اللبناني خاتشيك بابيكيان فقد أعلن: «أن الاتفاق حول السياحة يفتح آفاقاً جديدة لتطوير المبادلات السياحية بين الاتحاد السوفياتي والجمهورية اللبنانية، الأمر الذي يساهم بدوره في توطيد العلاقات بين بلدينا وشعبينا»[٧]. واستشهد السيد خاتشيك بابيكيان بالمثل القائل بأن الانسان عدو ما جهل. وقال الوزير اللبناني: «نريد أن يعرف اللبنانيون الاتحاد السوفياتي معرفة أفضل، وأن يعرف السوفياتيون لبنان، ونحن سنسعى لكي نجعل هذه الاتصالات المتبادلة أوسع، وذلك انطلاقاً من مساهمة كل بلد في تطوير الحضارة العالمية مع أخذ دورهما في توطيد السلم العالمي بعين الاعتبار»[٨].

وأضاف قائلاً «إن الاتحاد السوفياتي يتخذ في مسألة الشرق الأدنى

موقفاً شريفاً ومبدئياً يجد صدى ملائماً في أفئدة جميع العرب، بمن فيهم اللبنانيون. إن المساعدة والدعم اللذين يقدمها الاتحاد السوفياتي إلى العرب، وموقف التأييد للقضايا العربية، كل ذلك يساهم في توطيد الصداقة والتعاون بين الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية »[٩].

وختم بابيكيان، حديثه قائلاً: « خلال زيارة الوفد اللبناني إلى الاتحاد السوفياتي، تسنت لجميع أعضاء الوفد كل امكانيات التعرف على البلاد وعلى أماكنها التاريخية ومنجزاتها. وقد كنا مسرورين بصورة خاصة للقاءاتنا مع السوفياتيين. وسنحتفظ لوقت طويل بذكرى هذه الزيارة »[١٠].

وسرعان ما ظهرت النتائج الايجابية للاتفاق، إذ قام خلال العام ١٩٧٠ أكثر من ١٠٥٠٠ مواطن سوفياتي ولبناني برحلات متبادلة بين بلديهما. وفي العام ١٩٧١ زار موسكو وبعض المدن السوفياتية الأخرى أكثر من ١٢٠٠ شاب وشابة لبنانية. وزار لبنان حوالي ٤٠٠ شاب وشابة سوفياتية في نطاق التبادل السياحي الشبابي بين البلدين الذي تنظمه شركة « انتوريست » ومكتب « سبوتنيك » عبر طائرات ايروفلوت السوفياتية، وسفن الركاب السوفياتية المتنقلة بين مرفأ بيروت ومرفأ أوديسا. وفي سياق تعزيز النتائج الايجابية لتعاون البلدين السياحي، وقعت المنظمات السياحية السوفياتية مع بعض المؤسسات السياحية اللبنانية في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧١ اتفاقية مشتركة للتعاون لعام ١٩٧٢. وقد أرست الاتفاقية أسساً مادية لتطوير العلاقات السياحية بين فتيان كل من الاتحاد السوفياتي ولبنان وشبابها وطلابها، وأقرت تعرفات مخفضة لهؤلاء على خطوط موسكو ـ بيروت ـ موسكو لشركة الطيران السوفياتية

« أيروفلوت »، وتخفيضات في تكاليف الإقامة والرحلات داخل الاتحاد السوفياتي.

وجاءت بعد ذلك زيارة وفد سوفياتي سياحي إلى لبنان في شهر أيار (مايو) ١٩٧٢، برئاسة سيرغي نيكيتين رئيس المديرية العامة للسياحة في الاتحاد السوفياتي، بمثابة تتمة منطقية للتعاون المثمر بين المنظمات السياحية السوفياتية واللبنانية. وقد استقبل الوفد استقبالاً ودياً من قبل رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك سليمان فرنجية الذي أكد على التقدم الهام للعلاقات اللبنانية ـ السوفياتية على مستوى الحكومتين، وكذلك على الامكانيات الكبرى المتوفرة من أجل زيادة المبادلات السياحية بين البلدين. وأعرب عن يقينه بأن زيارة الوفد السوفياتي سيكون لها تأثير حسن على التعاون في هذا المجال.

وقد اشترك في المحادثات مع الوفد السوفياتي من الجانب اللبناني وزير السياحة آنذاك صائب جارودي، ورئيس المجلس الوطني للسياحة حبيب كيروز. وخلال المحادثات أطلع سيرغي نيكيتين محادثيه اللبنانيين على وضع السياحة في الاتحاد السوفياتي وآفاقها، وأشار بصورة خاصة إلى الامكانيات الفعلية لزيادة برامج السياح اللبنانيين في الاتحاد السوفياتي. وفي حديث له مع الصحافيين قال بيوتر سرغييف عضو الوفد، مساعد رئيس الدائرة الآفرو ـ آسيوية في مؤسسة « أنتوريست السوفياتية:

« يسرنا أن نشير إلى النتائج الايجابية للمفاوضات التي أعلن خلالها الجانب اللبناني استعداده لتنظيم استقبال مجموعات مهنية تخصصية من السياح السوفيات. وسيتيح ذلك لسياح الاتحاد السوفياتي دراسة معالم لبنان مع تكوين فكرة كاملة مثلاً عن نظام الصحة العامة، والتربية الوطنية،

وزراعة البلاد، الخ. ووفقاً للقرارات المتخذة في اللقاء بين المسؤولين السوفيات واللبنانيين، سيفتح قريباً في العاصمة اللبنانية مكتب لمؤسسة أنتوريست من أجل الدعاية والمعلومات. وسيتولى هذا المكتب الشرح المفصل لشروط السفر إلى الاتحاد السوفياتي وظروفه.

إن رغبة الطرفين في المساهمة بتوسيع التعاون تتيح توقع استخدام امكانيات تطور السياحة، الأمر الذي سيساهم في التعزيز اللاحق للعلاقات الودية بين الشعبين، السوفياتي واللبناني»[١١].

وفي أيلول (سبتمبر) في العام ١٩٧٣ ورداً على زيارة الوفد السياحي السوفياتي للبنان، زار الاتحاد السوفياتي وفد من المجلس الوطني للسياحة في لبنان، برئاسة رئيس المجلس آنذاك النائب حبيب كيروز، لتبادل الآراء مع المسؤولين عن شؤون السياحة في الاتحاد السوفياتي، وبحث امكانية تعزيز الروابط السياحية بين البلدين وتطويرها. وقد ناقش الوفد مع الإدارة العامة للسياحة الأجنبية التابعة لمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي، خطة عمل من أجل تبادل السياح في المستقبل. وقد صرّح رئيس الوفد اللبناني في ختام زيارته لموسكو قائلاً: «إن المسائل المرتبطة بالسياحة هي التي كانت موضع اهتمامنا بالدرجة الأولى بالطبع. وقد أعجبنا بأهالي موسكو المضيافين واستقبلتنا موسكو في يوم خريفي حار ومشمس. وبالإضافة إلى موسكو زرنا مدينة كييف ومدينة لينينغراد مهد ثورة اكتوبر. إننا نرحب بتوسيع وتعزيز الاتصالات السياحية بين بلدينا، لأننا نعتبر أن السياحة هي مفتاح التفاهم المتبادل بين شعوب العالم والسياحة هي الطريق إلى السلم»[١٢].

هذه الامكانات الرحبة التي فتحت أمام التعاون السياحي بين البلدين

والذي كان مخططاً له أن يبلغ ذروة في نشاطه خلال سنوات قليلة، جاء اندلاع نار الحرب الأهلية في لبنان في نيسان ١٩٧٥ ليغير من مجرى الأمور، ويبدد العديد من الآمال، خاصة في الميدان السياحي الذي كان من أول القطاعات الاقتصادية في لبنان التي تأثرت سلباً بظروف الحرب وتعطلت أعمالها، مما عرقل وجمّد كل خطط التبادل السياحي السوفياتي - اللبناني التي كانت قد وضعت في الفترة بين عامي ١٩٧٠ - ١٩٧٤. فانعكس كل ذلك تراجعاً في النشاط السياحي بين لبنان والاتحاد السوفياتي وكل الدول الأخرى. فالسياحة لا يمكن لها أن تنمو وتزدهر وتتطور إلا في مناخ الأمن والسلام والهدوء والاستقرار، والحرب هي العدو اللدود للسياحة ولكل أنماط التبادل الحضاري بين الشعوب. وزاد من تعطيل دورة النشاط السياحي في لبنان وتخريبها بالإضافة إلى الحرب المحلية وانعدام الأمن والاستقرار، الانهيار الشامل الذي أصاب النقد اللبناني، وانعكس بصورة سلبية جداً على مستوى معيشة اللبنانيين وقدرتهم الشرائية. فبات من الصعب جداً على اللبناني أن يبتاع بطاقة سفر بالطائرة (طبعاً باستثناء كبار المتمولين، وقادة الميليشيات والأحزاب، والنافذين فيها، وكذلك النواب والوزراء، وسواهم من كبار المسؤولين، والمغتربين اللبنانيين من أصحاب الثروات القديمة والحديثة العهد) من بيروت إلى أي عاصمة أخرى. فبطاقة السفر من بيروت إلى موسكو فبيروت، مثلاً، والتي كانت في عام ١٩٨٣ لا تزيد عن خمسة وعشرين ألف ليرة لبنانية أصبحت تكلف في خريف عام ١٩٨٧ ما يزيد على مئة وثلاثين ألف ليرة لبنانية، وهذا ما يعادل ويزيد راتب موظف من الفئة الثالثة والثانية في الإدارات العامة اللبنانية طيلة سنة كاملة، علماً أن هذا السعر هو أقل بكثير من سعر البطاقات إلى جهات أخرى وأن شركة أيرفلوت ما زالت تمنح المجموعات السياحية أسعاراً خاصة كما أن شركة انتوريست تفعل الشيء

نفسه بالنسبة لتكاليف الإقامة في ربوع الاتحاد السوفياتي.

لقد عطلت الحرب الأهلية إذاً، قطاع السياحة في لبنان وكل مبادلاته مع الخارج، ويأمل اللبنانيون ومعهم الأصدقاء الحقيقيون في العالم، وفي مقدمهم الشعب السوفياتي الصديق، أن يحل السلام التام والنهائي في ربوع لبنان في أسرع وقت، ليعود اللبنانيون إلى حياتهم الطبيعية السلمية، ويعود لبنان معهم إلى علاقاته الدولية الطبيعية، بما في ذلك في الميدان السياحي الذي يشكل مرفقاً هاماً من مرافق الاقتصاد الوطني اللبناني وأحد أوسع الجسور التي تربط لبنان بالعالم الخارجي. ويعقد اللبنانيون في هذا الوقت العصيب الآمال العريضة على صداقة الاتحاد السوفياتي وسياسته النزيهة، كأحد العوامل المساعدة التي بامكانها أن تمارس دوراً ايجابياً فعالاً في شق الطريق أمام اللبنانيين للخروج من الأزمة القاتلة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والخروج من حال الحرب إلى مناخ السلام ومن حال النزاع والصراع إلى واقع التفاهم والعيش المشترك.

وفي نطاق الحديث عن التعاون السياحي بين لبنان والاتحاد السوفياتي، لا بد من الإشارة إلى أن مدينة طرابلس اللبنانية تتآخى مع مدينة أوديسا السوفياتية منذ العام ١.٩٥٧ فقد وجدت مدينة طرابلس، الميناء اللبناني على البحر المتوسط، أخاً توأماً لها في مدينة أوديسا الميناء السوفياتي على البحر الأسود. ومنذ ذلك الحين وعلاقات صداقة متينة تربط بين المدينتين المتآخيتين عبر مجلسي بلديتيهما، اللذين غالباً ما تبادلا الزيارات الودية لتعميق عرى الصداقة بين سكان المدينتين التوأمين وتعزيز علاقاتهما وتطويرها لما فيه مصلحة الشعبين الصديقين وقضايا السلام والتفاهم بين الشعوب. وخلال شهر تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٨٧ زار رئيس بلدية طرابلس عشير الداية على رأس وفد من البلدية مدينة أوديسا تلبية

لدعوة من رئيس مجلس بلديتها، أعرب ضمنها عن مشاركة الشعب اللبناني في المحنة التي يمر بها لبنان، وعرض تقديم المساعدة للنهوض من الأزمة. وقد أطلع الوفد الطرابلسي زملاءه أعضاء المجلس البلدي في مدينة أوديسا، على أوضاع مدينة طرابلس وحاجاتها العامة الضرورية والملحة التي يتطلبها تسيير المرافق العامة وتقديم الخدمات اللازمة للمواطنين على الوجه السليم.

وقد أسفرت الزيارة عن توقيع بروتوكول بين المدينتين نص على ما يلي [١٣]:

- تبادل بعثات بين المدينتين خلال عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩، وتنظيم تبادل المجموعات من المتخصصين في الخدمات البلدية وفرق فولكلورية ورياضية.

- إرسال فريق من المتخصصين في الخدمات البلدية إلى مدينة طرابلس من قبل اللجنة التنفيذية لمدينة أوديسا للتوصل إلى تنمية المشاريع، وإلى تحقيق الأمور ذات الطابع الثقافي بما فيه إنشاء فرع للمركز الثقافي السوفياتي في بيروت في مدينة طرابلس.

- يبدأ أطباء العيون والأطفال في مدينة طرابلس بإقامة اتصالات علمية مع معهد الأبحاث العلمية فيلاتوف ومعهد الطب بيروجوف لمدينة أوديسا، ويحضرون المؤتمرات والندوات الدولية للمدن المتوأمة.

- تقوم اللجنة التنفيذية لمدينة أوديسا بمد المجلس البلدي لمدينة طرابلس بالمعدات التقنية في حقل الخدمات البلدية.

- تقوم الهيئة التنفيذية لمدينة أوديسا بدراسة امكانية زيادة عدد

الطلاب في معاهد الدراسات العليا في أوديسا خلال عام ٨٨ ـ ٨٩ الجامعي والمرسلين من قبل مختلف الهيئات في مدينة طرابلس.

وقد أعلن السيد عشير الداية رئيس مجلس بلدية طرابلس في ختام زيارته لمدينة أوديسا، أنه بفضل توأمة مدينة أوديسا مع مدينتنا، كان لا بد وأن تسرع هذه المدينة إلى نجدة أختها مدينة طرابلس، وقد لمسنا الاستعداد الكامل لذلك من المسؤولين في الاتحاد السوفياتي. وكذلك من خلال الاجتماع الذي عقد في موسكو مع جمعية الصداقة السوفياتية ـ اللبنانية، شعرت بارتياح إلى أن الجميع مستعدون لمساعدة طرابلس في المحنة التي تمر بها[١٤].

هوامش

(١) ر. كليكوفسكي: تطور العلاقات الاقتصادية السوفياتية ـ اللبنانية، دراسة نشرتها وكالة أنباء نوفوستي في ١٥/٣/١٩٧٢.

(٢) توالى على تمثيل لبنان لدى الاتحاد السوفياتي منذ إقامة العلاقات الديبلوماسية بين البلدين السادة:

١ ـ خليل تقي الدين ـ ٢٠/٩/١٩٤٦ ـ ٦/٧/١٩٤٩. قائم بالأعمال ووزير مفوض.
٢ ـ عبدالله نجار ـ ١٧/٧/١٩٥٤ ـ ٩/٧/١٩٥٧، قائم بالأعمال ووزير مفوض.
٣ ـ شحاذة غصين ـ ٢٤/٢/١٩٥٨ ـ ٢٢/٧/١٩٥٩. سفير.
٤ ـ ادوار غره ـ ١٨/٨/١٩٥٩ ـ ١٣/٦/١٩٦٣. سفير.
٥ سليم حيدر ـ ٢٦/٨/١٩٦٣ ـ ١١/٦/١٩٦٦. سفير.
٦ ـ نعيم أميوني ـ ٢/٩/١٩٦٦ ـ ٧/٨/١٩٧٢. سفير
٧ ـ أنطوان جبر ـ ١٣/١٢/١٩٧٢ ـ ٢٠/٧/١٩٧٨. سفير.

٨ أنطوان يزبك ـ ١٤/١١/١٩٧٨ ـ توفي في ٢٠/١١/١٩٨٣. سفير.
٩ ـ فريد عبود ـ سبتمبر ١٩٨٤ ـ يناير ١٩٨٥، قائم بالأعمال.
١٠ ـ ربيعه حيدر ـ يناير ١٩٨٥ ـ يونيو ١٩٨٦، سفير.
١١ ـ مصطفى الزين ـ يونيو ١٩٨٦ ـ يناير ١٩٨٦، قائم بالأعمال.
١٢ ـ محمود حمود ـ يناير ١٩٨٦ ـ السفير الحالي.

(٣) وكالة أنباء نوفوستي ٢٩ / ٧ / ١٩٧١.
(٤) جريدة النداء اللبنانية ١٨ / ٧ / ١٩٧٠.
(٥) جريدة النهار اللبنانية ١٤ / ١٠ / ١٩٧٢.
(٦) وكالة أنباء نوفوستي ١٨ / ٦ / ١٩٧٠.
(٧) وكالة أنباء نوفوستي ١٨ / ٦ / ١٩٧٠.
(٨) المصدر السابق.
(٩) المصدر السابق.
(١٠) المصدر السابق.
(١١) جريدة النداء اللبنانية ١٤ / ٥ / ١٩٧٢.
(١٢) صحيفة أنباء موسكو ٢٢ / ٩ / ١٩٧٣.
(١٣) جريدة السفير اللبنانية: ٢٢ / ١٠ / ١٩٨٧.
(١٤) جريدة السفير اللبنانية: ٢٢ / ١٠ / ١٩٨٧.

٣ ـ العلاقات بين مسلمي لبنان والمسلمين السوفيات

منذ أوائل العهد الأموي، أي في أواسط القرن الأول للهجرة (أواسط القرن السابع الميلادي)، بدأ انتشار الدين الإسلامي في بعض المناطق التي تدخل اليوم في نطاق الاتحاد السوفياتي. وقد دخل الإسلام إلى بعض هذه المناطق بحكم الفتح بالقوة العسكرية، وإلى بعضها الآخر بفضل الدعوات التبشيرية. ومن الصعب حالياً إحصاء عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي، ذلك أن القوانين السوفياتية لا تصنف المواطنين من خلال انتمائهم الديني والمذهبي، وإنما تعتبرهم جميعاً مواطنين سوفيات ينتمون إما إلى الجمهوريات المتحدة، وإما إلى الجمهوريات ذات الحكم الذاتي. غير أن انتشار المسلمين في الاتحاد السوفياتي تركز بصورة خاصة وسط أبناء القومية الأوزبكية (جمهورية أوزبكستان)، والقومية التتارية (جمهورية التتار الشمالية ذات الحكم الذاتي)، والقومية الكازاخية (جمهورية كازاخستان)، والقومية الأذربيجانية (جمهورية أذربيجان)، بالإضافة إلى التركمان، والقرغيز، ومسلمي بشكير الشمالية، والقفقاسيين الداغستان (شمال أذربيجان)، والطاجيك المنتشرين في (طاجيكستان). وبصورة أساسية ينتشر المسلمون في الاتحاد السوفياتي في مناطق آسيا الوسطى، والقفقاس وحوض الفولغا بالإضافة إلى وجود عدد آخر من المسلمين في أنحاء مختلفة من فلنو إلى أرخانغلسك ومن القرم إلى سيبيريا. وغالبية المسلمين في الاتحاد السوفياتي هم من أهل السنة والجماعة، وهم إما على المذهب الشافعي وإما على المذهب الحنفي السائد بين أكثريتهم خارج القفقاس. وهناك بعض الشيعة على المذهب الإمامي الاثني عشري في

جمهورية أذربيجان وبعض الإسماعيليين الذين يعيشون في جبل بامير [1].

ويخضع المسلمون في الاتحاد السوفياتي شأنهم شأن سائر المواطنين السوفيات لأحكام الدستور السوفياتي الذي أعلن أنه يضمن لمواطني الاتحاد السوفياتي حرية المعتقد أي الحق في اعتناق أي دين أو عدم الاعتناق وأداء الشعائر الدينية أو القيام بدعاية للإلحاد. وقبل قيام دولة الاتحاد السوفياتي، كان لمسلمي جمهورية روسيا السوفياتية عام ١٩٢١ (قازان وسيبيريا وبلاد باشكيرستان والقرغيز والمدن التي فيها مسلمون من جوار موسكو) كان لهم مجلس إسلامي أعلى مركزه في مدينة (أوفا)، وهذا المجلس كان يتألف من أربعة قضاة يرأسهم المفتي الأعظم العلامة جان بارودي بن محمد بارودي، الذي نفاه القيصر إلى سيبيريا، ولم يعد من منفاه إلا بعد سقوط القيصرية وعين مفتياً في ظل السلطة البلشفية. وكذلك كان لتركستان جمعيات إسلامية على رأسها مفتي أعظم مركزه في طشقند، ومفتي أعظم لمسلمي القفقاس وآخر مثله لمسلمي القرم.

وبعد قيام دولة الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٢٢، تولت إدارة شؤون المسلمين في الاتحاد السوفياتي أربع إدارات دينية مستقلة متساوية الحقوق. يجري انتخاب أعضائها في مؤتمرات إسلامية خاصة تعقد مرة كل خمس سنوات وهذه الإدارات هي:

١ ـ الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفياتي وسيبيريا، ومقر هذه الإدارة في مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشكيريا الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي ضمن إطار جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية (تأسست سنة ١٩١٨).

٢ ـ الإدارة الدينية لمسلمي شمالي القفقاس، ومركزها في مدينة

بويكانسك في جمهورية داغستان الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي ضمن إطار جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية (تأسست سنة ١٩٤٤).

٣ ـ الإدارة الدينية لما وراء القفقاس. مقرها مدينة باكو عاصمة جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفياتية (تأسست سنة ١٩١٨).

٤ ـ الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان، مقرها مدينة طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفياتية (تأسست سنة ١٩٤٣).

ترتبط هذه الإدارات الدينية الإسلامية الأربع بأجهزة الدولة الرسمية عبر هيئة خاصة هي «مجلس شؤون الأديان» الذي أنشىء في تموز (يوليو) عام ١٩٤٤، وهو يرتبط مباشرة بمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي. وللمجلس المذكور ممثلوه المفوضون في الأماكن التي يسكنها المسلمون. وبالإضافة إلى «مجلس شؤون الأديان» هناك «مكتب العلاقات الخارجية للمنظمات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي». وقد تم تأسيس هذا المكتب في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢. ومهمة هذا المكتب تأمين الاتصال بين الإدارات الدينية الإسلامية في الاتحاد السوفياتي، والمؤسسات، والهيئات، والجماعات، والشخصيات الإسلامية في الخارج، بغية تعزيز الصلات والتقارب بين المسلمين الذين يخوضون في صف واحد نضالاً ضد الاستعمار والامبريالية، ومن أجل السلام والسعادة لجميع الشعوب على الأرض.

وهذا المكتب هو الذي يقدم المساعدات للمؤمنين المسلمين في تنظيم الزيارة السنوية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وأداء فريضة الحج،

ويشكل الوفود الإسلامية لزيارة إخوانهم في الدين خارج الاتحاد السوفياتي. فقد مر زمن كان فيه المسلمون السوفيات معزولين عن المسلمين في الدول الأخرى بسبب سياسة الدول الاستعمارية التي لم تشأ أن يقيم المسلمون في الأقطار التي تستعبدها اتصالات مع مسلمي البلاد السوفياتية. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية والنصر الذي حققه الاتحاد السوفياتي فيها وإنهار النظام الاستعماري وتحررت شعوب دول كثيرة، وأقامت دولها المستقلة العلاقات الكاملة مع بلاد السوفيات، وكان من بين هذه الدول لبنان الذي أقام مسلموه علاقات صداقة وطيدة مع إخوانهم المسلمين في الاتحاد السوفياتي، شأنهم في ذلك شأن سائر مسلمي المشرق العربي الذي تحرر من السيطرة الاستعمارية، وأقام مسلموه العلاقات الودية الأخوية مع أشقائهم في بلاد السوفيات، الذين يريدون، كما كل الشعب السوفياتي، العيش في سلام وصداقة مع جميع الشعوب. ولقد ساهمت علاقات المسلمين السوفيات مع المسلمين في الدول الأخرى مساهمة إيجابية في تعزيز العلاقات بين الاتحاد السوفياتي، وتلك الدول رغم اختلاف الأنظمة الاجتماعية.

كان مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد، على رأس أول وفد إسلامي لبناني زار الاتحاد السوفياتي في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧. وقد ضم الوفد بالإضافة إلى رئيسه المفتي الشيخ حسن خالد كلاً من الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس، والشيخ سليم جلال الدين، والشيخ مختار الجندي، والشيخ مأمون البكار، ومدير عام الأوقاف الإسلامية الأستاذ كمال حمادة، والدكتور مصطفى خالد، والكاتب والصحافي محمد أمين دوغان.

«ما كنت أتوقع أن تكون موسكو بمثل ما رأيت من الروعة والجمال،

وقد أثرت على مشاعري ومشاعر إخواني جميعاً، فهي آية من آيات الله ومن أجمل بقاع الأرض»[٢].

هذا هو الانطباع الأولي الذي سجله سماحة المفتي الشيخ حسن خالد لدى وصوله ولأول مرة إلى موسكو.

وفي أول لقاء للوفد مع رئيس «مجلس الشؤون الدينية» كورابيدف الذي استقبل المفتي حسن خالد والوفد المرافق في صبيحة اليوم الأول لزيارتهم موسكو، قال المسؤول السوفياتي: «لقد سمعتم ولا شك الكثير عن بلادنا، ولكن المثل الشرقي يقول، خير لك أن ترى مرة واحدة من أن تسمع عشر مرات... ولا شك في أن زيارتكم هذه سوف تسهم في تقوية العلاقات الأخوية والثقافية بين مسلمي لبنان والاتحاد السوفياتي. وبالتالي، فإنها ستكون فاتحة عهد جديد للتفاهم التام وتقوية أواصر الصداقة بين شعبينا»[٣]. وبعد أن تحدث عن ضرورة توطيد الصلات بين الشعبين العربي والسوفياتي، لمواجهة الأوضاع المضطربة في الشرق الأوسط، والتوتر الناجم عن التدخل الاستعماري ونواياه السيئة تجاه العرب، تحدث بإسهاب عن مهام «مجلس الشؤون الدينية» والأوضاع القانونية للمسلمين في الاتحاد السوفياتي استناداً إلى القانون الأساسي الخاص بفصل الدين عن الدولة، وفصل المدرسة عن الكنيسة الذي وضعه لينين في العام ١٩١٨، رد المفتي حسن خالد بكلمة قال فيها:

«لا ريب عندي في أن الغاية من هذه الزيارة لم تكن تقوية العلاقات بين المسلمين وحسب، بل وكذلك إقامة أحسن العلاقات بين العرب والمسلمين من جهة، وبين شعوب الاتحاد السوفياتي من جهة أخرى، خصوصاً في هذه الظروف العصيبة التي تعانيها الأمة العربية والتي رأينا

فيها الشعب السوفياتي ينشد صداقة الشعوب العربية، ليزداد قرباً وتأييداً لنا في نضالنا المرير ضد العدو المشترك.

لقد كان العدو المستعمر يريد إظهار الاتحاد السوفياتي بالبلد المغلق، المتحفز دائماً لكم الأفواه بالحديد والنار، ومنع الشعوب من ممارسة حرياتها الدينية، وكان يحاول إقناعنا بشتى الوسائل والطرق بأن الاتحاد السوفياتي يمنع المسلمين من ممارسة طقوسهم وعباداتهم، وأنه يعمل على إغلاق مساجدهم وأماكن العبادة عندهم وعند إخوانهم المسيحيين، كما كان الاستعمار يحاول أن يجعل من ذلك حقيقة واقعة. ولكن ثبت لنا بعد ذلك مرتين أن الاتحاد السوفياتي ليس كما صوره لنا الأجنبي المستعمر، مرة حين شعر بالظلم الذي يقع على عاتق العرب، وعندما أراد الصهاينة ومن وراءهم تمزيق العرب وتفتيت قواهم ومنعهم من ممارسة حرياتهم كلها، وقف الشعب السوفياتي إلى جانب العرب، فكان أكثر استجابة لدعوة المظلوم، وبعكس ما كان يدعيه الاستعمار، وكان يريد أن يشيع السلام والأمان، بعكس ما كان يدعيه العدو الأجنبي، وكذلك كان الرئيس عبد الناصر أول مَن تجرأ لشق طريق التعرف على واقع الشعب السوفياتي، وحطم الطوق المضروب حول الاتحاد السوفياتي ودخل إليه، وقد كان محرماً على العرب قبل ذلك، أن يعرفوا حقيقة الشعب السوفياتي، أو الحصول على أية معلومات عنه ما لم تكن خاضعة لمراقبة أجنبية، ولذلك لم يكن الاستعمار ينقل لنا إلا في حدود ما يريد هو أن نعرف عن بلادكم.

ولكن بعد مبادرة الرئيس عبد الناصر، بدأت الصحف العربية تتكلم عن الاتحاد السوفياتي، تكلم العارف، وأصبحنا نتلقى المعرفة بصورة ذاتية لا عن طريق الواسطة، ولذلك قد أصبحت معلوماتنا صحيحة وأصبحنا

نستقي الحقائق من مصادرها، وتعرفنا إلى واقع الحياة الدينية الإسلامية والمسيحية وممارسة شعائرها بكثير من الحرية»[٤].

وتابع المفتي حسن خالد قائلاً: «نحن والاتحاد السوفياتي نلتقي في الدعوة إلى السلام، وكل منا يريد أن يجعل الناس أحراراً، لا هيمنة لأحد على أحد، وقد روى التاريخ كيف أن الإسلام استنكر كل ضروب الاستعمار، وقال كلمته المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». كما أن شعار المسلمين هو السلام في الدنيا والآخرة، حتى في الجنة فإن شعارنا السلام «ألا قيلا سلاماً سلاماً» وتحيتنا هي «السلام عليكم» ولذلك نحن نعتبر أنفسنا ما زلنا في طريق السلام والحرية والاستقلال الذاتي، فنحن وأنتم أخوة أصدقاء نمضي في طريق واحد»[٤].

هذا الكلام الصريح الذي قاله المفتي حسن خالد في أواخر عام ١٩٦٧، يصلح اليوم أيضاً، وفي أواخر عام ١٩٨٧، ليكون كلمة يقولها رئيس أي وفد إسلامي من لبنان يزور موسكو ويخاطب المسؤولين فيها. فسياسة الغرب ما زالت هي هي. تدأب لتشويه صورة الواقع السوفياتي لا سيما حياة المسلمين فيه. والمؤسف أن البعض ما زالت تنطلي عليه، دعايات الغرب وأقواله، وما زال هذا البعض يأخذ بالدعايات المغرضة المشوهة للواقع، مع فارق هو إدخال بعض التعديل على أساليب الدعاية في شكلها دون تبديل في مضمونها لتكون مقبولة أكثر، وباتت تضع الاتحاد السوفياتي والامبريالية الأميركية في مرتبة واحدة لجهة موقف الإسلام والمسلمين منها، مصورة إياهما بأنهما عدو مشترك للإسلام. وفي الماضي القريب كانت تركز دعاية الغرب المعادية لتدخل في وعي جماهير وقادة المسلمين السياسيين والدينيين، أن الصهيونية والشيوعية هما نظرية

واحدة وإيديولوجية واحدة في مواجهة الإسلام ودينه وأمته. وبعدما تحطمت هذه المقولة الدعائية وبان اهتراؤها أمام قوة وقائع الحياة السياسية، جرى استبدالها بأساليب الدعاية التي تساوي بين النظام الاشتراكي والامبريالية العالمية. وفي هذا الإطار جرت في العام ١٩٨٦ عملية استفزاز مدبرة ضد أربعة من المواطنين السوفيات العاملين في السفارة السوفياتية في بيروت، إذ جرى اختطافهم في تشرين الأول (أكتوبر) من العام المذكور في الشطر الغربي من العاصمة بيروت في وضح النهار وقُتل أحدهم. لقد أثار هذا العمل الإجرامي ضد ممثلي الدولة السوفياتية الصديقة موجة عارمة من الشجب والاستنكار لدى اللبنانيين على اختلاف انتماءاتهم السياسية، وحاصر الرأي العام اللبناني والقوى السياسية اللبنانية العملية الإجرامية ومدبريها ومنفذيها مما اضطرهم للإفراج عن المخطوفين الثلاثة... بعد طول معاناة كادت أن تسيء إلى العلاقات التاريخية للصداقة اللبنانية ـ السوفياتية. ولكن افتضاح هوية الخاطفين ومن يقف وراءهم من جهات وتيارات تعمل على أرض لبنان، وهي ليست لبنانية الهوية والانتماء، بالإضافة إلى موجة الشجب العارمة التي عمت لبنان، كل ذلك فوّت على المخططين إمكانية تحقيق هدفهم المتمثل في الإساءة إلى علاقات الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية، فارتدت الفعلة الإجرامية نتائج معكوسة على مخططيها، وتعززت أكثر فأكثر عرى الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية، وفشل الاستفزاز الإجرامي في النيل منها، أو في تشويه صورتها، وإن تمكن من القضاء على أحد مواطني الاتحاد السوفياتي الذي خسره أهله وشعبه والشعب اللبناني، فكان اغتياله بصمة سوداء إضافية في سجل الحرب اللبنانية وما تخللها من عمليات خطف واغتيال طالت العديد من الأبرياء اللبنانيين والأجانب على حد سواء.

ونعود بعد هذا الاستطراد الذي لم يكن منه بد، إلى الوفد اللبناني الإسلامي الموجود في موسكو برئاسة المفتي حسن خالد في أواسط تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧. لقد انتقل الوفد إلى طشقند هذه المدينة التي ضربها الزلزال سبعمئة مرة... ولكن يستحيل على زائر طشقند أن يلمح أي أثر للزلزال، فقد أعيد بناء المدينة بكاملها، وتوسعت أضعافاً مضاعفة في فتره زمنية قصيرة جداً.

استقبل الشيخ ضياء الدين خان باباخان مفتي طشقند وآسيا الوسطى الوفد في مكتبه، مرحباً به موجهاً التحية إليه نيابة عن مسلمي آسيا الوسطى، وكازاخستان، وعن علماء الدين الإسلامي في الاتحاد السوفياتي، قائلاً: «نحن مسلمي كلا البلدين مرتبطون بعضنا بالآخر ارتباطاً وثيقاً، حسب مدلول الحديث النبوي الكريم «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». ولذلك ليس غريباً أن تشعر شعوب بلادنا وخاصة المسلمون منهم في أعماق أنفسهم بالفرح البالغ والسعادة العظيمة بمناسبة زيارتكم الأخوية الكريمة هذه» [٥].

وبعد أن تحدث عن معاني هذه الزيارة ودورها في توثيق العلاقات الأخوية بين الشعبين، انتقل إلى استعراض «الوضع العصيب» في الشرق الأوسط بعد عدوان حزيران الإسرائيلي (١٩٦٧) بتأييد الدوائر الاستعمارية للولايات المتحدة الأميركية، وألمانيا الاتحادية، منوهاً بمشاعر الاعتزاز والفخر لدى المسلمين السوفيات لأن الحكومة السوفياتية قد أبدت التأييد الفعّال للشعوب العربية، مقدمة لها كافة أنواع المساعدات السياسية والاقتصادية والعسكرية والمعنوية في كفاح العرب العادل ضد العدو الإسرائيلي والاستعمار العالمي» [٦]

ثم عرض في لمحة سريعة تاريخ التواجد الإسلامي في آسيا الوسطى ومهمات الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان التي تأسست في العام ١٩٤٣، وجهودها في جمع عشرات المؤسسات الدينية المتفرقة، ونشر تعاليم القرآن والأحاديث النبوية وانشاءها المعهد الديني بمدينة بخاري، وإشرافها على حوالى مئة وخمسين جامعاً كبيراً ومئات المساجد الصغرى، وسوى ذلك من نشاطات الإدارة الدينية خاصة لجهة تنظيمها الرحلات إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة لأداء فريضة الحج وطبع القرآن وكتاب الآثار الإسلامية إلخ.. [٧].

وختم كلمته داعياً الله أن «ينزل النصر المبين ويجعل التوفيق والنجاح حليفاً لإخواننا العرب ولجميع المسلمين» [٨].

وفي كلمته الجوابية شكر مفتي لبنان الشيخ حسن خالد مفتي طشقند الشيخ باباخان على دعوته وكريم استقباله مؤكداً أن لبنان الذي يضم شعباً عربياً أصيلاً يتطلع إلى هذه الديار على أنها ديار أخوة وأصدقاء. ولبنان إذ يوفدنا لنتعرف إليكم ونتصل بكم وبإخوانكم. إنما يقوم بواجب قومي من واجباته العربية التي سيكون لها الفضل الكبير في تعميق الصلات وتركيز العلاقات بين البلدين.

وفي خطبة له في جامع طشقند أمام مئات المصلين وكبار رجال الدين المسلمين قال المفتي حسن خالد:

«أيها الأخوة، قد جئتكم من لبنان، وأنا لا أحس بفرق بين لبنان وطشقند. أعتز بكم كما أعتز بإخواني اللبنانيين، وأحدثكم كما أحدثهم، وإذا نحن تراجعنا اليوم أمام هذه العصابة الصهيونية التي أذلت رقابنا ونالت من مصالحنا وثرواتنا، فإنما كان ذلك لأننا تركنا ديننا جانباً، ولم

نحاول أن نثبت دعائم الإسلام، ولو تمسكنا بتعاليم ديننا وكنا أمة واحدة لأصبحنا كالصخرة تتحطم فوقها رؤوس الأعداء والظالمين »[٩].

وفي خطبة له في مسجد « فوجه زود مراد » في مدينة سمرقند قال المفتي حسن خالد : « أيها الاخوة، إن الاستعمار الأميركي والأجنبي يعمل جاهداً في سبيل القضاء على القرآن والإسلام، وبدأ بإنشاء دولة إسرائيل في أرضنا تمهيداً للقضاء على التراث الإسلامي ودفن معالم الإسلام، ولولا وحدة الكلمة العربية ومساعدة الدولة السوفياتية وما بذلت من جهود كريمة لمؤازرة الشعب العربي لقضي على العرب والمسلمين في تلك المنطقة »[١٠].

وفي ختام زيارته لمدن طشقند وسمرقند وبخاري قال سماحة الشيخ حسن خالد رئيس الوفد الإسلامي اللبناني : « لقد كنت أعرف الكثير عن هذه البلاد، وكنت أتشوق للتعرف عليها وعلى أهلها، وقد تحقق لي ذلك الآن فكنت سعيداً بما رأيت وما سمعت، لقد وجدت الآثار الرائعة ولم أكن أتوقع أن أراها بمثل هذه العظمة لأن القراءة عنها تختلف عن رؤيتها ومشاهدتها. ولقد أعجبت فعلاً بأخلاق الشعب الأوزبكي، لما لمست لديه من تهذيب، وسمو خلق، وحسن معاملة وبخاصة للضيوف العرب الذين يأتون هذه الديار، فيرون الصلات المشتركة القائمة بين الشعب الأوزبكي والشعوب العربية التي لا تزال حية في القلوب والأذهان لغة وتاريخاً وديناً. وقبل أن أزور بخاري وسمرقند وطشقند كنت أظن أن الإسلام لم يعد له من وجود في هذه الديار، ولكن نظرتي تغيرت بعد زيارة المدرسة الشرعية في مدينة بخاري، فبقيام مثل هذه المدرسة يعظم الأمل ويتجدد الرجاء، بفضل الحكومة السوفياتية التي أعطت كل إنسان كامل حريته في أن يدين

بالعقيدة التي يشاء »[١١].

ولدى استقبال رئيس وزراء أوزبكستان سراج الدينوف للوفد اللبناني في مكتب رئاسة الوزراء في طشقند عاصمة أوزبكستان، رد مفتي لبنان الشيخ حسن خالد على كلمة ترحيب رئيس وزراء أوزبكستان، بقوله : « إن المعلومات التي كانت لدينا عن بلادكم قبل زيارتها تختلف عما رأيناه بأنفسنا، فالذي كان لدينا قبل الزيارة من معلومات يدل على أن هذه الديار هي ديار كفرٍ وكبتٍ وإرهابٍ وكمٍ للأفواه ووأدٍ للحريات، ومحاربة لأية نزعة من نزعات الدين.

وقد كان ذلك كله من صنع الاستعمار وقصده الخبيث الذي كان يرغب في إبقاء البلاد العربية والإسلامية بعيدة عن أي بلد يمكن أن تنشأ بينه وبينها صلة صداقة أو تعاون.

ونحن نعلم أن روابط عظيمة كانت تشدنا إلى سكان هذه الديار، روابط عقيدة ودين، وصلات أهداف وأحاسيس، وكانت دعاية الاستعمار تباعد بيننا وبين هؤلاء، وتخلق الشك بيننا وبين الاتحاد السوفياتي.

ولا أخفي عليكم أنني لدى ورود هذه الدعوة الكريمة لزيارة بلادكم والشعب السوفياتي، ترددت كثيراً في قبولها نظراً لما كنا نسمع عنكم، ولا سيما في لبنان.

ولا نستطيع بهذه المناسبة إلا أن نذكر فضل الرئيس جمال عبد الناصر في تمكين العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفياتي الذي شق طريقاً جديدة وحياة جديدة للشعب العربي لم يكن يحلم بها من قبل.

فهو صاحب الفضل الكبير إذ استطاع أن يحطم الجليد ويشق الطريق بين شعب الاتحاد السوفياتي وسائر الشعوب العربية .

لقد كان العرب يخشون السوفيات ، فجاء الرئيس جمال عبد الناصر ليفتح الطريق إليهم ، وليكونوا أكثر اتصالاً بعضهم ببعض ، وخلق مسلكاً جديداً من التفاهم والتعاون والتساند .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فلم يزل بين العرب من يخشى الاتحاد السوفياتي ويتخوف منه .

ولكن في مجيئنا إلى هذه الديار قد خطونا خطوة كبرى في طريق التحرر والتخلص من الاستعمار ، وعندما دخلنا الديار وتجولنا في مناطقها المختلفة وشاهدنا ما شاهدنا في طشقند وسمرقند وبخاري وغيرها من البلدان ، أدركنا أن الاتحاد السوفياتي هو على غير ما كان يريد الاستعمار أن يعرفنا عليه ، فهو دولة قد تركت لجميع الشعوب الحرية التامة في أن تمارس ما تشاء من الدين والعقيدة ، ولم تترك للمسلمين سبيلاً يمكن به أن يستعيدوا دينهم وتاريخهم إلا وسلكته ، ولذلك فإننا نرجع إلى بلادنا ونحن نحمل في أنفسنا انطباعة طيبة تؤكد لنا بأن الاتحاد السوفياتي يقدر العقائد وأصحابها ، ويترك لهم حرية اعتناق أية عقيدة يشاءون .

وإنه ليخيل إلي بالإضافة إلى ذلك ، ما ستتركه هذه الزيارة من أثر كبير في نفوسنا ونفوس إخواننا ، فضلاً عما كان لموقف الاتحاد السوفياتي النبيل من أهمية وفعالية تجاه فلسطين والمحنة الأخيرة التي حلّت بالشعوب العربية .

لقد وقفت دولتكم موقف المؤيد لنا ، وهذا ما كان له أثر كبير في

نفوسنا ، وسنعود لنحمله إلى إخواننا ، مقدرين للشعب السوفياتي الصديق عونه ومساعدته للشعوب العربية ونصرته لها في قضاياها الإنسانية العليا .

وبإمكانكم أن تثقوا أنه بالإضافة إلى ذلك ، فإن ما بين الشعب اللبناني العربي المسلم ، وبين الشعب الأوزبكي وغيره من شعوب آسيا الوسطى من روابط عقيدة وتاريخ بدأ يعود إلى وضعه القديم قبل التقاطع .

وباستطاعتكم أن تثقوا أننا سنعود إلى بلادنا حاملين من الاتحاد السوفياتي والشعب السوفياتي النبيل أطيب الذكريات ، وسنعمل ما بوسعنا لكي نزيل هذا الجليد الذي خلقه الاستعمار بيننا وبين هذا الشعب الصديق .

إنني الآن في داري واعتبر نفسي بين إخواني وأحبائي وأصدقائي ، وأسمح لنفسي أن أنقل إلى سيادتكم صدق ما أحسست به من تقدير لما تفضل به صاحب الفضيلة أخي الشيخ ضياء الدين خان بابا خان ، حين فتح لنا باب الزيارة إلى بلادكم ، ليطلعنا على معالم النشاط الإسلامي والديني الذي أكد لنا المعاني الطيبة عن الاتحاد السوفياتي .

وختاماً ، فإني أتوجه إليكم بالشكر الجزيل بلساني ولسان إخواني ، وأرغب أن أؤكد لكم بأن في لبنان إخوة يتمنون لكم الخير الكثير ، ويتمنون أن يروكم في بلادهم ، وهناك تحلون بين إخوانكم وأصدقائكم » [١٢] .

وقبل أن يغادر الوفد اللبناني عائداً إلى الوطن ، استقبله لدى عودته من لينينغراد في مقر الكرملين بموسكو أروتوتيان نائب رئيس المجلس الأعلى لجمهوريات الاتحاد السوفياتي . كان ذلك يوم السبت الواقع فيه ٢٤

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، وقد جرى بين نائب الرئيس السوفياتي، ورئيس الوفد اللبناني سماحة المفتي حسن خالد ، حوار ودي حار اتسم بالصراحة والموضوعية وأعرب خلاله الطرفان عن الرغبة الأكيدة والثابتة في تعزيز عرى الصداقة بين البلدين، الاتحاد السوفياتي ولبنان، لما فيه مصلحة الشعبين على قواعد المساواة والاحترام المتبادل، وفي ختام الحديث مع نائب رئيس السوفيات الأعلى قدم المفتي حسن خالد إلى نائب الرئيس السوفياتي هدية هي نسخة من القرآن الكريم . فقبلت الهدية بكل احترام وبشكر عميق، ثم قدم مفتي لبنان إلى نائب الرئيس السوفياتي هدية أخرى هي سيف من صنع جزين مطعم بالنقوش الجميلة قائلاً : « هذا السيف يمثل القوة في خدمة الحق وهو بإذن الله سيكون دليلاً على قوة علاقاتنا بكم، وتطويرها لنزداد قوة ومنعة »[١٣] .

وبهذه الزيارة إلى قصر الكرملين، يكون مفتي لبنان سماحة الشيخ حسن خالد من أوائل رجال الدين الذين أتيحت لهم، وفي أول زيارة له إلى الاتحاد السوفياتي، فرصة الدخول إلى قصر الكرملين بعد قيام دولة الاتحاد السوفياتي. ولعلها من المصادفات المعبرة وذات الدلالة أن يكون البطريرك اللبناني الماروني مار نصر الله بطرس صفير قد أتيحت له هو أيضاً في تشرين الأول (أكتوبر) من هذا العام ١٩٨٧ ، وفي أول زيارة له إلى الاتحاد السوفياتي، فرصة زيارة مقر الكرملين وإجراء محادثات مع كبار المسؤولين فيه...

فتحت زيارة الوفد الإسلامي اللبناني برئاسة المفتي حسن خالد عهداً من العلاقات بين مسلمي لبنان وإخوانهم في الاتحاد السوفياتي، ودشنت صفحة جديدة في إطار العلاقات القائمة بين لبنان والاتحاد السوفياتي. ولقد ساهمت هذه الزيارة في محو الكثير من آثار الدعاية الأميركية

والغربية من أذهان العديد من المسلمين اللبنانيين الذين كانت تلك الدعاية قد أوهمتهم بأن المسلمين مضطهدون في الاتحاد السوفياتي ومحرم عليهم ممارسة شعائرهم الدينية. فجاءت زيارة المفتي والوفد المرافق له ومشاهداتهم الحية هناك تنقض كل الدعايات المعادية للاشتراكية السوفياتية، وتقدم دليلاً إضافياً على ديمقراطية النظام الاشتراكي (الحقيقي)، ومناخ الحريات الذي يوفره لمواطنيه في المجالات كافة.

وتعددت فيما بعد الزيارات المتبادلة بين الوفود الإسلامية اللبنانية والسوفياتية. ووصل في زيارة إلى بيروت مفتي الاتحاد السوفياتي ضياء الدين بابا خانوف في العام ١٩٧٢، وجرت له الاستقبالات الدينية والرسمية والشعبية الحافلة. وقلده الرئيس اللبناني سليمان فرنجية وسام الأرز الوطني من رتبة الوشاح الأكبر تقديراً لجهوده في تعزيز علاقات الصداقة بين شعبي لبنان والاتحاد السوفياتي، كما وشاركت وفود إسلامية لبنانية في مختلف المؤتمرات والندوات العالمية التي نظمها المسلمون السوفيات منذ العام ١٩٧٠ لمناسبات دينية ووطنية خاصة أو لمناسبات تتعلق بنضال المسلمين من أجل السلام العالمي ونزع السلاح. ومنها مثلاً، الاحتفال الذي عقد في طشقند في تموز (يوليو) عام ١٩٧٩ بمناسبة مرور عشر سنوات على صدور مجلة « المسلمون في الشرق السوفياتي »، والمؤتمر الإسلامي الذي عقد في باكو من ١ إلى ٣ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٨٦ تحت شعار: « المسلمون في النضال من أجل السلام »، ففي هذا المؤتمر وقبله في مؤتمرات وندوات أخرى شاركت وفود إسلامية لبنانية، وفي كل البيانات الختامية للقاءات والندوات والمؤتمرات الإسلامية المذكورة، جرى التأكيد على المواقف المبدئية الثابتة للمسلمين السوفيات وبلادهم، حيال قضايا الشعوب العربية، وفي المقدمة منها قضية الشعب الفلسطيني وحقه في استرجاع حقوقه الوطنية في الأرض والدولة المستقلة

وحق تقرير المصير، وكذلك تجاه الأزمة اللبنانية والاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على أراضيه واحتلال قسم من أراضيه وضرورة وضع حد للعدوان والاحتلال الصهيوني وضرورة توصل اللبنانيين عبر الحوار السلمي إلى تفاهم وطني يعيد السلام إلى ربوع بلادهم ويكرس وحدتها وسيادتها واستقلالها.

ولم تقتصر زيارات الوفود الإسلامية اللبنانية إلى الاتحاد السوفياتي على أركان الطائفة السنيّة، بل إن القيادات الروحية للطائفة الشيعية قامت هي كذلك مراراً بزيارات إلى بلاد السوفيات. فالإمام موسى الصدر رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى زار الاتحاد السوفياتي، وكذلك الشيخ محمد مهدي شمس الدين قام هو كذلك بزيارة موسكو وبعض المدن السوفياتية الأخرى. غير أن الملاحظ هنا أن أياً من شيوخ عقل الطائفة الدرزية في لبنان لم يقم بعد حتى الآن بزيارة إلى الاتحاد السوفياتي، علماً بأن الزعماء السياسيين من أبناء الطائفة الدرزية وفي مقدمهم مؤسس ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي كمال جنبلاط ومن بعده ابنه وليد جنبلاط، قد زارا الاتحاد السوفياتي مراراً وتكراراً. والحقيقة أن العلاقات بين مسلمي لبنان والمسلمين في الاتحاد السوفياتي تستلزم دراسة خاصة من جذورها إلى واقعها وآفاقها. غير أن المراجع في هذا المجال نادرة جداً، حتى أن دار الفتوى في بيروت لا يوجد لديها أرشيف خاص أو ملف كامل يوثق علاقاتها مع المسلمين في الخارج عامة، ولم أستطع الحصول من دار الفتوى حتى على مجرد لائحة بتواريخ الزيارات التي قام بها مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد إلى الاتحاد السوفياتي. وكذلك فإن الحصول على معلومات في هذا الموضوع من السفارة السوفياتية في بيروت أمر في غاية الصعوبة لأن الأمر يتطلب العودة إلى

مكتبة الإدارة الدينية لمسلمي الاتحاد السوفياتي.

وفي ختام هذا القسم لا بد من البحث عن السبب الجوهري الذي يكمن وراء تطور حياة المسلمين السوفيات المادية والروحية، وكذلك تطور علاقاتهم مع إخوانهم في الدين خارج البلاد السوفياتية. فمن المعروف أن المسلمين في روسيا القيصرية ومستعمراتها السابقة كانوا مضطهدين، وكان الدين الإسلامي مضطهداً في ظل روسيا المقدسة، وكانت تجري روسنة (جعله روسياً) اللغة والثقافة والأسماء والدين والمصالح وطمس المعالم الحضارية غير الروسية وتاريخها. وجاءت ثورة أكتوبر وقيام السلطة السوفياتية في روسيا ثم دولة الاتحاد السوفياتي لتنسف كل أسس سياسة الاضطهاد والروسنة تلك، وترفع القيود عن مستعمرات روسيا السابقة وتطلق حريتها وحقها في تقرير المصير، وتحرر جميع الشعوب التي كانت تضطهدها روسيا القيصرية، وتعيد إليها كرامتها، وتحفظ حضارتها وثقافتها ولغتها وتطورها، وتنبش معالم تاريخها، وتعطيها كل حقوق الشعوب الحرة الكريمة، لتبني من جديد واقعها ومستقبلها، بكل حرية ومساواة مع الشعوب الأخرى. هذه السياسة الجديدة للسلطة الجديدة جمعت المسلمين حولها فمنحوا تأييدهم للثورة وسلطتها، وانطلقوا في بناء حياتهم الجديدة وممارسة تقاليدهم وعاداتهم دون خوف من ظلم أو اضطهاد، وإقامة العلاقات مع إخوانهم مسلمي البلدان الأخرى ومنها لبنان. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى الكنز الثمين للحضارة الإسلامية الموجود في مساجد الاتحاد السوفياتي، ومدارسه، ومكتباته من مخطوطات عربية وإسلامية غير محققة، وإلى الجهد الكبير الذي تبذله أكاديميات العلوم في الاتحاد السوفياتي ومعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية لجرد تلك المخطوطات وتحقيقها

ونشرها. ويمكن للعلاقات بين مسلمي لبنان والمسلمين السوفيات أن تلعب دوراً هاماً في هذا الميدان لجهة إقامة التعاون بين الجامعات ومراكز الأبحاث في لبنان وأكاديميات العلوم في الاتحاد السوفياتي للتعاون في حقل تحقيق ذلك التراث وإحيائه لإغناء الحضارة الإسلامية والحضارة الإنسانية به. وأذكر هنا على سبيل المثال، أن فرع معهد الاستشراق في مدينة لينينغراد يحفظ في مكتبته ما يربو على العشرة آلاف مخطوطة لشعوب الشرق. وقد تيسر لي، خلال زيارة لمدينة لينينغراد أواخر العام ١٩٨٦، أن أزور معهد الاستشراق فيها وأقابل مديره الذي أطلعني على نشاط المعهد وتركيزه المتواصل على البحث في تاريخ العرب ولغتهم وأدبهم في القرون الوسطى. كما عرفني بمكتبة المعهد وما تحويه من ألوف المخطوطات القيمة غير المحققة عن شعوب الشرق. ولقد نشرت مقالة مسهبة عن معهد لينينغراد للاستشراق، ومحتويات مكتبته في مجلة المدار السوفياتية الصادرة باللغة العربية في عددها رقم ٢٨٥ الصادر في ـ أول شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧، وفيه بعض المعلومات الوافية عن المعهد ومحتويات مكتبته من المخطوطات وجداول تصنيفها. وكذلك ما قاله مدير المعهد ونائبه عن رغبة المعهد في التعاون مع المؤسسات العربية العلمية المعنية للتعاون في ميدان تصنيف وتحقيق تلك المخطوطات.

هوامش

(١) هذه الصورة عن المسلمين في الاتحاد السوفياتي مكونة بالاستناد إلى مؤلف الشيخ طه الولي «صفحات من تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد السوفيات». دار الفكر الجديد - بيروت ١٩٨٠.

(٢) محمد أمين دوغان: الرحلة الرائدة، ص١٧، بيروت، منشورات دار الشعب ١٩٦٨.

(٣) وكالة أنباء نوفوستي: ١٧/١١/١٩٦٧.

(٤) محمد أمين دوغان، الرحلة الرائدة، مرجع سابق، ص٢٣ - ٢٤ - ٢٥.

(٥) وكالة أنباء نوفوستي ٢٠/١١/١٩٦٧.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق.

(٩) محمد أمين دوغان: الرحلة الرائدة، مرجع سابق، ص٥٢.

(١٠) وكالة أنباء نوفوستي، ٢٠/١١/١٩٨٧.

(١١) وكالة أنباء تاس، ٢٠/١١/١٩٦٧.

(١٢) جريدة الشعب، ٢/١٢/١٩٦٨.

(١٣) محمد أمين دوغان، الرحلة الرائدة، مرجع سابق، ص١٩٨.

الفصل الرابع

١ـ مواقف الاتحاد السوفياتي حيال أحداث حرب السنتين (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) في لبنان

نظر الاتحاد السوفياتي إلى الأحداث الدامية التي اندلعت شرارتها في لبنان بأطلاق النار على مسيرة صيادي السمك في مدينة صيدا في ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٧٥، ثم حادثة الباص الذي كان يقل فلسطينيين في إحدى ضواحي الشطر الشرقي من العاصمة بيروت (ضاحية عين الرمانة) في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٧٥، بوصفها من نتائج استمرار حال النزاع في منطقة الشرق الأوسط وعدم تسوية أزمته بصورة شاملة وعادلة. وقد انصب الاهتمام السوفياتي آنذاك على سبل إيجاد التوسية الشاملة ومجابهة خطط التسويات الجزئية التي تتم على شكل صفقات ثنائية بإشراف الولايات المتحدة الأميركية وتدبيرها، عبر دبلوماسية الخطوة خطوة الكيسنجيرية التي أدت إلى اتفاقية سيناء الثانية لفصل القوات بين مصر وإسرائيل. ولتدعيم هذا التوجه سعى الاتحاد السوفياتي إلى تلاحم صفوف الدول والقوى العربية المعارضة للسياسة الأميركية، وعزز روابطه مع منظمة التحرير الفلسطينية وضاعف من دعمه السياسي والإعلامي لها، وتوثقت أكثر علاقاته مع سوريا التي زاد من معونته العسكرية لها. وقد اتضحت معالم توجهات السياسة السوفياتية في مجموعة بيانات مشتركة سوفياتية ـ عربية، أكدت على ثوابت الموقف المشترك حيال قضايا المنطقة. ففي بيان مشترك سوفياتي ـ سوري صدر في ٣ شباط (فبراير) ١٩٧٥، في ختام محادثات أجراها في دمشق أندريه غروميكو، عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وزير خارجية الاتحاد السوفياتي مع الرئيس السوري حافظ الأسد، أكد الطرفان

على ضرورة وضع حد لسياسة إسرائيل التوسعية ولاستفزازاتها العسكرية، وعلى ضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني. وأعرب الجانبان عن قناعتهما بأن إقرار السلام العادل والدائم في المنطقة يتطلب أن يشمل حل قضية الشرق الأوسط جميع الأطراف المعنية وأن يشمل حل كافة القضايا الناجمة عن النزاع..

وعبر الجانبان عن «قناعتهما الراسخة بضرورة استئناف أعمال مؤتمر جنيف[1] للسلام في الشرق الأوسط فوراً، وبما لا يتجاوز في كل الأحوال نهاية شهر شباط (فبراير) أو مطلع شهر آذار (مارس) من العام الجاري، وبحضور جميع الأطراف المعنيين بما في ذلك ممثلي منظمة تحرير فلسطين، وذلك من أجل بحث كافة القضايا المتعلقة بإقامة سلام عادل ودائم في المنطقة»[2].

وفي بيان مشترك سوفياتي ـ أردني صدر بنتيجة المحادثات التي أجراها في عمان مع الملك الأردني حسين، وفد مجلس السوفيات الأعلى برئاسة نازار ميتشانوف، نائب رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في جمهورية أوزبكستان السوفياتية، أكد الطرفان على «أن السلام العادل والوطيد في المنطقة لا يمكن أن يقوم إلا على أساس انسحاب القوات الإسرائيلية الكامل من جميع الأراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧ وفي طليعتها القدس العربية، وتأمين الحقوق المشروعة لشعب فلسطين العربي وتطلعاته الوطنية.

وأكد الجانبان ضرورة تنفيذ قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ المؤرخ في

٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ والقرار رقم ٣٣٨ تاريخ ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣.

وأشار الوفد السوفياتي إلى أن استئناف أعمال مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط في أقرب وقت ممكن وباشتراك كافة الأطراف المعنية يحقق دوراً هاماً في إقامة السلام العادل والدائم في المنطقة.

وأشار الجانبان إلى أهمية القرارات التي اتخذها مؤتمر القمة العربي في الرباط لتوطيد وحدة جهود الدول العربية، وشعوبها في نضالها من أجل إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، والتوصل إلى تسوية في الشرق الأوسط وإقرار سلام عادل ودائم في المنطقة.

وأكد الجانب السوفياتي أن الاتحاد السوفياتي سيسير بثبات على نهجه الدائم الموجه إلى مواصلة تعميق الصداقة والتعاون مع البلدان العربية، كما أعرب عن التأييد التام لقضية العرب العادلة ولنضالهم من أجل إزالة آثار العدوان الإسرائيلي»[3].

وبعد حوالي الشهر، صدر بيان مشترك سوفياتي ـ عراقي في ختام الزيارة التي قام بها إلى موسكو الرئيس العراقي صدام حسين ومحادثاته هناك مع القيادة السوفياتية، وفي هذا البيان المشترك: «أشار الجانبان إلى أن الوضع في هذه المنطقة لا يزال معقداً، ويكمن فيه خطر الانفجار، ويرجع الذنب في ذلك إلى السياسة العدوانية التي تتبعها الأوساط الإسرائيلية الحاكمة، بدعم من القوى الإمبريالية التي تؤيدها واستمرار العدوان واحتلال الأراضي العربية وهدر الحقوق الثابتة للشعب العربي الفلسطيني.

وأعلن الاتحاد السوفياتي والجمهورية العراقية بأن السلام العادل والثابت في المنطقة العربية لا يمكن إقامته إلا بشرط تحرير جميع الأراضي العربية المحتلة، وتأمين الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني بما في ذلك حقه في تقرير المصير.

وأكد الجانبان أن تلاحم الدول العربية على أساس معاداة الإمبريالية وتوطيد تعاونها مع الأصدقاء المخلصين لها، وقبل كل شيء مع الدول الاشتراكية هو من أهم العوامل لتأمين النجاح في النضال ضد العدوان الإسرائيلي.

وأكد الطرفان تصميمها على مواصلة تقديم المساعدة والتأييد لحركة المقاومة الفلسطينية التي يعتبرانها جزءاً من حركة التحرر الوطني العربية والعالمية.

وأشارا إلى الانتصارات السياسية التي تحققت في حركة المقاومة الفلسطينية على الصعيد الدولي، ودور الدول المحبة للسلام، وفي مقدمتها الدول الاشتراكية الصديقة للدول العربية » [٤].

وفي بيان مشترك آخر سوفياتي - سوري صدر في ختام زيارة السيد عبد الحليم خدام، عضو قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية السورية، إلى موسكو ومباحثاته مع القادة السوفيات « استعرض الجانبان الوضع في الشرق الأوسط وأكدا أن سبب الوضع القابل للأنفجار في هذه المنطقة هو استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، ورفض إسرائيل الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، وأكدا أن مصلحة السلام العالمي تستلزم تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالشرق الأوسط، ووضع حد لاستفزازات

إسرائيل ضد الدول العربية.

وعبّر الجانبان عن قناعتهما مرة أخرى بأن إقرار السلام العادل والدائم في الشرق الأوسط لا يمكن تحقيقه إلا بانسحاب إسرائيل الشامل من جميع الأراضي العربية المحتلة، واستعادة الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، بما في ذلك حقه في إقامة كيانه الوطني المستقل.

وإن الجمهورية العربية السورية والاتحاد السوفياتي سيستمران في بذل كافة الجهود من أجل بلوغ هذه الأهداف.

وأعلن الجانبان أن الخطوات المنفردة لا يمكن أن تؤدي إلى حل قضية الشرق الأوسط، وأكدا موقف بلديهما بضرورة استئناف أعمال مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط في أقرب وقت ممكن، والإعداد له إعداداً دقيقاً بمشاركة جميع الأطراف المعنية بمن فيهم ممثلو منظمة التحرير الفلسطينية، على قدم المساواة مع بقية المشتركين في المؤتمر، وأكدا أن أية إجراءات جزئية يجب أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الحل الشامل، كما يجب أن يجري إعداد واتخاذ مثل هذه الإجراءات ضمن إطار مؤتمر جنيف » [٥].

ولا بد من الملاحظة هنا أن سوريا التي لم تحضر المرحلة الأولى من مؤتمر جنيف في كانون الأول ١٩٧٣، تطالب في البيان المشترك مع الإتحاد السوفياتي بضرورة استئناف أعمال المؤتمر المذكور. فهل بدلت سوريا موقفها من المؤتمر؟

الواقع أن الاتحاد السوفياتي وسوريا كان لهما فهمهما الخاص للمؤتمر ومهماته، وهو فهم يختلف عن الموقف الأميركي والإسرائيلي والمصري من

المؤتمر، وقد حدد أندريه غروميكو وزير الخارجية السوفياتي في خطابه أثناء جلسة افتتاح المرحلة الأولى من مؤتمر جنيف (١٩٧٣) بصورة دقيقة مهمات المؤتمر على النحو الآتي:

«- ان أية وثيقة تصدر عن المؤتمر يجب أن تشتمل على إلتزام واضح من إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها في عام ١٩٦٧.

- من الضروري أن يضمن حق العيش بسلام وأمن لكل شعوب المنطقة، وهذا ينطبق أيضاً على إسرائيل، كما يفترض تأمين العدالة للشعب الفلسطيني.

- إن الوثائق التي تصدر عن المؤتمر، يجب أن تتحلى بقوة القانون الدولي، وأن الاتحاد السوفياتي مستعد إذا لزم الأمر لتولي مسؤوليات مهمة...» [٦].

على هذا الأساس كانت المطالبة السوفياتية - السورية المشتركة باستئناف أعمال مؤتمر جنيف. غير أن الولايات المتحدة الأميركية كان لها توجه آخر يشاركها فيه إسرائيل ومصر، وهو أن مهمة مؤتمر جنيف تتمثل في هذه المرحلة في الموافقة على الاتفاقية الثانية لفصل القوات في سيناء... ولهذا السبب سيرفض الاتحاد السوفياتي في وقت لاحق تلبية الدعوة لحضور المرحلة الثانية من مؤتمر جنيف والتي كرسها الأميركيون والإسرائيليون والرئيس المصري أنور السادات لمراسم توقيع الاتفاق الثاني لفصل القوات في سيناء.

وبعد البيانات المشتركة مع كل من سوريا والأردن والعراق، صدر بيان مشترك سوفياتي - فلسطيني في مطلع شهر أيار (مايو) ١٩٧٥، نتيجة المحادثات التي أجراها ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في موسكو مع أندريه غروميكو وبوريس بونوماريوف، أشار

فيه الجانبان بارتياح إلى أن شرعية مطالب الشعب العربي الفلسطيني باحترام حقوقه تحظى باعتراف دولي متزايد، بما في ذلك في قرارات الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العمومية للأمم المتحدة أيضاً. وجرى الإعراب عن الرأي الراسخ أنه لا يمكن أن يكون ثمة سلام وهدوء في الشرق الأوسط من دون حل للقضية الفلسطينية، يتجاوب مع مصالح الشعب العربي الفلسطيني، وجرى التأكيد لدى ذلك على أهمية مشاركة ممثلي الشعب العربي الفلسطيني بحقوق متساوية مع الأطراف المعنية الأخرى في الجهود الرامية إلى بلوغ التسوية في الشرق الأوسط، بما في ذلك في مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط.

وأكد المشاركون في اللقاء الأهمية الخاصة التي تتسم بها، في الظروف الراهنة، الجهود المنسقة للدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية في قضية النضال من أجل سلام عادل ووطيد في الشرق الأوسط، وضد أي نوع من الصفقات الثنائية الانفرادية المنفصلة عن التسوية الشاملة للنزاع العربي - الإسرائيلي.

وبالنيابة عن منظمة التحرير الفلسطينية والشعب العربي الفلسطيني بأسره، أعرب ياسر عرفات عن الشكر لموقف الاتحاد السوفياتي الثابت المتمثل في دعم الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني، وكل الشعوب العربية في نضالها من أجل إزالة آثار العدوان الإسرائيلي [٧].

من خلال كل هذه البيانات المشتركة يظهر جلياً تركيز الاتحاد السوفياتي على التسوية الشاملة لأزمة الشرق الأوسط، ودعم نضال الشعب العربي الفلسطيني من أجل حقوقه، كما يتضح أن أية إشارة مباشرة إلى احداث لبنان لم تتضمنها تلك البيانات باستثناء الإعراب عن دعم الاتحاد

السوفياتي لحركة المقاومة الفلسطينية، وهذا يتضمن ضمناً موقفاً من الأحداث في لبنان يتمثل في معارضة محاولات تصفية حركة المقاومة الفلسطينية. وتعبيراً عن التضامن السوفياتي مع الفلسطينيين زار وفد يمثل اللجنة السوفياتية للتضامن الأفرو ـ آسيوي برئاسة نائب رئيس اللجنة فلاديمير كودر يافتسيف المخيمات والمكاتب الفلسطينية في سوريا ولبنان. واجتمع إلى ياسر عرفات.

وبعيد عودة الوفد إلى موسكو كتب كودريافتسيف في صحيفة الأزفستيا يقول: «إن الهدف الرئيسي لسياسة التسويات الجزئية التي تطبق بالتعاون مع الرجعية العربية هو تصفية المقاومة الفلسطينية، وإن حركة المقاومة الفلسطينية هي بمثابة المحرك الذي يمنع حركة التحرر الوطني في المشرق العربي من التوقف عند بعض المراحل الانتقالية. وإن القيادة السياسية المشتركة التي تضم سوريا ومنظمة التحرير والتي اقترحها الرئيس الأسد ترتدي أهمية كبيرة»[٨]. وختم تعليقه بقوله «إن الزعماء الفلسطينيين قالوا له إن صراع المقاومة الفلسطينية مع الرجعية العربية يجب أن يتصاعد، وإن الصدام مع هذه الرجعية أمر حتمي»[٩].

وقد ظهرت بعد ذلك على صفحات الصحف الموسكوبية عشرات المقالات التي تكشف أهداف إسرائيل من وراء إصرارها على عقد اتفاقية جزئية لفصل القوات في سيناء، وسعيها إلى الاستفادة من الصعوبات والخلافات داخل العالم العربي. وتساءلت صحيفة الأزفستيا الناطقة بلسان الحكومة السوفياتية قائلة: «أوليس هذا ما تتحدث عنه الأحداث الدرامية الحالية في لبنان حيث أثير نزاع مسلح مع حركة المقاومة الفلسطينية بالتزامن مع ضربات المعتدي الإسرائيلي؟»[١٠].

وبالعودة إلى تلك البيانات المشتركة الواردة أعلاه، والتي يمكن من خلالها الوقوف على التوجهات الأساسية للسياسة االسوفياتية في الشرق الأوسط، ليس مستغرباً أن لا تتطرق تلك البيانات مباشرة إلى ما يجري داخل لبنان. باعتبار أنها صادرة عن بلدين لم يشارك لبنان في مفاوضاتهما، وهذا من أصول وقواعد العرف الدبلوماسي، غير أن ذلك لا يعني أن الاتحاد السوفياتي لم يكن يعير اهتماماً لما يجري على أرض لبنان. ففي صحافته ووسائل إعلامه الأخرى، أكد الاتحاد السوفياتي مراراً ومنذ الأيام الأولى لبدء الأحداث الدامية في لبنان على ضرورة دعم استقلال لبنان وسيادته ووحدة أراضيه. وأدان حازماً اعتداءات إسرائيل المتكررة على لبنان، وربط بين الأحداث الدامية التي تجري في لبنان ومخططات إسرائيل المتعلقة بالقضاء على حركة المقاومة الفلسطينية، وتحقيق أطماعها الخاصة بلبنان. ولم يرَ الاتحاد السوفياتي أي تناقض بين موقفه الداعم لحركة المقاومة الفلسطينية من جهة، والمؤيد لوحدة لبنان وسيادته واستقلاله من جهة ثانية، بل رأى أن مصلحة لبنان والفلسطينيين على حد سواء تكمن في التعاون فيما بينهما للتصدي للمخططات والاعتداءات الإسرائيلية، وتحقيق المطالب الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني في إقامة دولته الوطنية على أرضه، وهذا أمر بحد ذاته يعود بالفائدة الكبرى على لبنان، لأنه يخفف عنه أعباء الوجود الفلسطيني، ويزيل بالتالي الكثير من العقد المكونة لما يسمى بالأزمة اللبنانية. وهذا التوجه السياسي يتطلب توحيد الموقف العربي في مواجهة إسرائيل وحماتها في واشنطن وعدم الانجرار وراء مخططاتها الرامية إلى تفتيت الصفوف العربية، والتي تمثلت في حينه في مساعي وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر الهادفة إلى توقيع اتفاق منفصل مصري ـ إسرائيلي لفك القوات في سيناء.

وفي هذا الاتجاه كتبت الصحافة السوفياتية محذرة من مغبة انجرار مصر في المخطط الكيسينجري، الرامي إلى توقيع اتفاقية ثنائية جزئية لفصل القوات في سيناء، بمعزل عن مشاركة دول المجابهة العربية الأخرى، وخارج نطاق مشاركة مؤتمر جنيف الدولي وموافقته. ولم تركن موسكو إلى ما أصاب مهمة كيسنجر من فشل في شهر آذار (مارس) ١٩٧٥ أدى إلى تكاثر الحديث في الصحافة الأميركية العالمية عن احتمال تقديم استقالته، وظلت متوجسة من أن ينجر الرئيس المصري إلى التوقيع على اتفاقية منفصلة، وما سيتركه ذلك من أثر على وحدة الصف العربي، والأحداث في لبنان، وزيادة غطرسة التوسع والنزعة العدوانية لحكام تل أبيب. وكانت شكوك الاتحاد السوفياتي في محلها، ففي الأول من شهر أيلول (سبتمبر) تم التوصل إلى اتفاقية لمرحلة ثانية من فصل القوات في سيناء جاءت لتكلل مساعي هنري كيسنجر ومهمته المكوكية وإعادة الحياة لمشروعه ولتضع حداً للجهود التي كانت تبذل في العالم والأمم المتحدة والدول الأوروبية لإيجاد بداية حل لأزمة الشرق الأوسط بإقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، بمبادرة من الإتحاد السوفياتي وسائر الدول الاشتراكية. وانسجاماً مع هذا الموقف المبدئي سلم القائم بأعمال سفارة الاتحاد السوفياتي في بيروت في الرابع من الشهر المذكور رسالة من القادة السوفيات إلى ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، أبلغوه فيها أن الاتحاد السوفياتي تلقى دعوة من وزير الخارجية الأميركية هنري كيسنجر للمشاركة في الاجتماع الذي سيجري في جنيف في ٤ أيلول (سبتمبر) الجاري للتوقيع على الاتفاق المصري- الاسرائيلي. وقد رد القادة السوفيات بموقف الاتحاد السوفياتي المعروف الداعي إلى الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي العربية المحتلة، وضمان الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني. وقالت الرسالة، « كنا

نعتبر أن مؤتمر جنيف سيكون مجالاً للبحث في هاتين القضيتين الأساسيتين وتنفيذهما. لكن الخطوات التي جرت مؤخراً تخالف القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن، والاتفاقات التي تمت بعد حرب تشرين، ولهذا أبلغنا الولايات المتحدة ومصر أن الاتحاد السوفياتي لن يحضر الاجتماع المقترح في جنيف لتوقيع الاتفاق »[١١].

وكتبت جريد البرافدا الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي تقول: « إن الاتفاق لن يعمل إلا على تجميد الموقف في الشرق الأوسط، ولن يساهم في حل المشاكل المتفجرة في المنطقة »[١٢].

واستمر التركيز السوفياتي على الفلسطينيين في الفترة التي تلت توقيع الاتفاقية مباشرة. ففي ٢ أيلول (سبتمبر) بررت إذاعة السلام والتقدم المعارضة الفلسطينية والعربية الشديدة للاتفاقية بكون هذه الأخيرة « ضربة لكرامة العرب القومية »، إذ أنها تتجاهل قرارات مؤتمر الرباط، كما تتجاهل المواقف التي اتخذتها الدول العربية في محافل الأمم المتحدة. ونقلت الإذاعة عن عرفات قوله إن الولايات المتحدة لن تنجح في خططها للتسوية في الشرق الأوسط، وإن « الفلسطينيين سوف يواصلون نضالهم من أجل التحرير حتى يتحقق النصر. والمؤامرة الأميركية التي تسعى إلى تصفية الثورة الفلسطينية سوف تتحطم على صخرة المقاتلين الفلسطينيين ». وجاء كلام السيد عرفات هذا في حفلة جرت في بيروت حيث منح جائزة جوليو ـ كوري للسلام من قبل مجلس السلام العالمي.

ومن الجلي أن المحللين السوفيات شعروا بأن العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والمقاومة الفلسطينية قد أصبحت أوثق من ذي قبل، بسبب معارضة الفريقين لاتفاقية سيناء، كما ظهر ذلك من خلال تعليق لإذاعة

موسكو وصف تعزيز العلاقات بين المقاومة والجناح اليساري لحركة التحرر العربية والأسرة الاشتراكية بأنه « تطور لا رجعة فيه ». وأشار تعليق سوفياتي آخر إلى أن المقاومة الفلسطينية تدافع عن صداقة العرب مع الاتحاد السوفياتي، وتعتمد عليه حلفاً لها، ولذا، فليس مستغرباً، على حد قول التعليق، أن تتعرض المقاومة لهجمات من قبل القوى الرجعية العربية، ويبدو أن هذا التحليل لم يكن إشارة إلى الحرب الأهلية اللبنانية فحسب، إذ أن الإذاعة نفسها مضت تقول إن المقاومة تفضح « مؤامرات القوى اليمينية التي ترغب في التعامل مع المعتدي والإمبريالية ».

ولقد حذر الإتحاد السوفياتي بعيد توقيع اتفاقية سيناء الثانية لفصل القوات، من مخاطر مخططات أصحاب الاتفاقية وانعكاساتها على مجرى الأحداث في لبنان. وبالفعل اشتدت نار الحرب في لبنان مجدداً بعد توقيع الاتفاقية المذكورة وربطت موسكو بين تجدد القتال واتفاقية سيناء. وحذرت بصورة خاصة من محاولات إسرائيل لاستغلال أحداث لبنان لمصلحتها.

وكانت زيارة الرئيس الأسد لموسكو، التي استمرت يومين في مطلع شهر تشرين الأول (أكتوبر)، مناسبة أخرى لتؤكد موسكو مجدداً موقفها مما يجري في المنطقة ولبنان. ففي ٩ و ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥ قام الرئيس الأسد بزيارة مفاجئة لموسكو على رأس وفد سياسي وعسكري كبير.

وقد اكتسبت الزيارة أهميتها كون الوفد السوري قد ضم، بين أعضائه، ممثلين عن الحكومة السورية، وحزب البعث العربي الاشتراكي، منهم وزير الدفاع الفريق مصطفى طلاس ووزير الخارجية عبدالحليم

خدام. وقد أحيطت المباحثات بسرية تامة، إلا أن المصادر الدبلوماسية أكدت أن المباحثات تطرقت إلى خطورة الموقف في الشرق الأوسط، إثر توقيع اتفاقية سيناء، والصدع الكبير الذي تركته هذه الخطوة في علاقات التضامن العربي، خصوصاً بين مصر وسورية، كما أن الحرب في لبنان، وخطر توسعها، وإمكان تدخل إسرائيل وتهديدها أمن سوريا، كانت من بين الموضوعات المطروحة للمناقشة. يضاف إلى ذلك مسألة الاتفاقيات السرية الأميركية الإسرائيلية، والمتعلقة بإمداد إسرائيل بأسلحة متقدمة والتي تشكل خطراً على العواصم العربية. صدر بيان مشترك إثر الزيارة، في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥ يؤكد التفاهم على الخطوات التي يجب اتخاذها حيال التطورات في المنطقة، وتجدر الملاحظة أن وزير الخارجية السوري ووزير الدفاع قد تخلفا في موسكو لاستكمال ما يبدو أنه مناقشات تتعلق بالمسائل العسكرية.

وبعيد تصعيد المعارك في لبنان الذي تلا توقيع اتفاقية سيناء، وصل السيد عبد الحليم خدام إلى بيروت وتمكن، بعد الاتصال بالأطراف المتنازعة، من التوصل إلى اتفاق على وقف إطلاق النار في ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥، كما ساهمت الوساطة السورية في تشكيل « هيئة الحوار الوطني » في ٢٤ أيلول (سبتمبر) من الأطراف اللبنانية كافة، على أن تناقش الموضوعات اللبنانية المختلف عليها دون التعرض للوجود الفلسطيني على الأرض اللبنانية. وقد أعلنت الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية، في بيان لها في ٢٤ أيلول (سبتمبر)، شكرها للوساطة السورية واستعدادها للمساهمة في هيئة الحوار، طارحة مبدأ إصلاح النظام السياسي في لبنان.

ورداً على الاتهامات المصرية بأن سوريا تتدخل في الشؤون الداخلية

اللبنانية، أكدت التصريحات الرسمية السورية أن الأزمة اللبنانية مرتبطة بنتائج اتفاقية سيناء، وأنها جزء من المخطط الإمبريالي الصهيوني لإضعاف الجبهة العربية وإجهاض المقاومة الفلسطينية. فقد قال السيد خدام، في ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥، في بيروت: «إن ما جرى في لبنان مخطط يستهدف لبنان والقضية الفلسطينية وسوريا... الأحداث في لبنان هي إنعكاس لاتفاقية سيناء»[١٣]. كما قال في ٢٧ أيلول (سبتمبر): «إن الاتفاقات السرية حول اتفاقية سيناء بدأت تظهر آثارها، ومنها أحداث بيروت التي هي جزء من مخطط شامل يهدف إلى نقل المعركة من طبيعتها العربية ـ الصهيونية إلى معركة عربية ـ عربية»[١٤]. وأضاف: «وما هو واضح، أن الحكومة المصرية لعبت دوراً مباشراً في اتجاه التصعيد، سواء من جهة الاتصالات، أو الحملة الإعلامية ضد المقاومة الفلسطينية»[١٥].

وإثر فشل اجتماع وزراء الخارجية العرب في القاهرة، في منتصف تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥، تصاعدت الأزمة في لبنان، وطالبت بعض الأطراف اللبنانية بالتدويل فأعلن السيد خدام، في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر)، أن سوريا ترفض تدويل القضية اللبنانية، مؤكداً: «لقد فشل موضوع التعريب، وبالتالي فشل جزء من المخطط. ونحن على قناعة تامة بأن التدويل ليس ممكناً»[١٦]. وقال: «إن الهدف الأساسي من تصعيد الصدام المسلح في لبنان يرتبط باتفاقية سيناء»[١٧]. كما قال الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي السيد عبد الله الأحمر، في كلمة له عند افتتاح اجتماع للجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية، عقد من أجل مناقشة الوضع في لبنان، في ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥، إن الأزمة في لبنان تطورت إلى الشكل الدموي الذي وصلت إليه «للتغطية على اتفاقية سيناء»[١٨]. ومن أجل «تجميد المقاومة وإشغال

سورية»[١٩]. كما ربط بين تحركات كيسنجر في المنطقة وتصاعد الأحداث في لبنان، مؤكداً أن أهداف كيسنجر هي إضعاف التضامن العربي وتقسيم لبنان»[٢٠].

وهكذا توثقت عرى التحالف السوفياتي ـ السوري ـ الفلسطيني على قاعدة الموقف المشترك الرافض لاتفاقية سيناء ونهج الاتفاقات الجزئية، وتكرس الموقف حيال الوضع في لبنان في نطاق هذا التوجه الاستراتيجي، الذي أكد على الصلة الوثيقة بين السياسة المصرية والإسرائيلية والأميركية في المنطقة، واتفاقية سيناء من جهة، وتطورات الوضع في لبنان من جهة ثانية، وفي هذا السياق كتبت «برافدا» في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥ تقول: «إن بعض القوى اللبنانية إذ تؤزم الخلافات الطائفية في البلاد تعمل على صب الماء في طاحونة أعداء الوحدة العربية، وتسهل عملياً للتوسعيين الإسرائيليين تنفيذ مخططاتهم التوسعية المعادية للعرب. وأشارت إلى أن خطط تقسيم لبنان نوقشت بالتفصيل منذ أمد قريب في جلسة قادة أحد الأحزاب اليمينية اللبنانية». وأكدت في ختام تعليقها الذي كتبه بوريس أريخوف «أن المكائد الجديدة لأعداء وحدة لبنان سوف تمنى بالفشل»[٢١].

وهكذا بدأت الصحافة السوفياتية تركز من جديد على وحدة لبنان وسيادته واستقلاله في مجابهة مخططات تقسيمه وشرذمته. وفي ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥ قالت البرافدا إن الوضع في لبنان لا بد وأن يثير قلق جميع أصدقاء الشعب اللبناني، وكل من يسعى إلى إحلال السلام والهدوء في الشرق الأوسط. وأضافت، أن الوضع السياسي غير المستقر في لبنان بدأ منذ اليوم يلحق به أضراراً بالغة، وأن إسرائيل تحاول من جانبها استغلال أحداث لبنان لتشديد التوتر في هذه المنطقة من العالم

ساعية إلى دق إسفين بين الشعوب العربية [٢٢].

أما جريدة الأزفستيا فقد ركزت على دور إسرائيل قائلة: إن أحداث لبنان جزء لا يتجزأ من الموقف العام في الشرق الأوسط. واتهمت إسرائيل بالمشاركة في إثارة الفتنة الطائفية، وأكدت أن إسرائيل لن تتخلى عن مخططاتها العدوانية ضد لبنان. وأوضحت أن ممثلي القوى اللبنانية التقدمية كثيراً ما أكدوا أن «قوى خارجية» تقف وراء الذين أثاروا الاشتباكات الأخيرة. وأخذت «أزفستيا» على بعض القوى اللبنانية اليمينية تحالفها مع القوى الخارجية في محاولة لتصفية منظمة التحرير الفلسطينية تصفية جدية بوصفها تشكل عنصراً سياسياً رئيسياً في المنطقة [٢٣].

وقد لفت القادة السوفيات، كلاً من رئيس الجمهورية اللبنانية سليمان فرنجية، ورئيس الوزراء رشيد كرامي إلى حقيقة الأوضاع المحيطة بلبنان، وأطلعوهما على الفهم السوفياتي لمجرى الأحداث في لبنان، في رسالة شفوية أبلغها سفير الاتحاد السوفياتي في لبنان الكسندر سولداتوف إلى الرئيسين فرنجية وكرامي في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥. وقد صرح السفير سولداتوف إثر مقابلته للرئيس فرنجية أنه نقل إليه رسالة شفوية من القادة السوفيات يعبرون فيها عن تمنياتهم الطيبة، ويتمنون الازدهار والرفاه للشعب اللبناني، وأن يبقى ويعيش في ظل السلام وفي بلد مستقل واحد ذي سيادة [٢٤].

وفي مقال لوكالة أنباء نوفوستي كتبه معلقها السياسي يوري بوتوموف خصيصاً لجريدة النداء اللبنانية، كتب يقول: «تندد الأوساط الاجتماعية السوفياتية بمساعي الأوساط المعادية للشعوب العربية لإشعال نزاع دموي

في لبنان. وهناك قوى خارجية معينة تريد استغلال هذا النزاع القاتل لتفريق الصفوف العربية، ولإذكاء المواجهة بين البلدان العربية. ولهذا السبب بالذات ورغماً عن الجهود الدؤوبة للحكومة، والقوى الوطنية في لبنان لوقف الدمار الدموي الذي لا معنى له، فقد اكتسبت الأزمة اللبنانية الحالية طابعاً مأساوياً للغاية. ويلفت النظر هنا حقيقة تعاطف المدافعين عن اتفاقية سيناء مع القوى اليمينية في لبنان المسؤولة عن إراقة الدماء في هذا البلد، والتي تفكر في إنزال ضربة بحركة المقاومة الفلسطينية. وهذا الاتفاق في المصالح بينها له معنى كبير» [٢٥].

وفيما كانت زيارات الوفود الفلسطينية تتكرر إلى موسكو خلال تلك الفترة، فإن أي وفد أو شخصية رسمية لبنانية لم تقم بزيارة لموسكو في العام ١٩٧٥، وهذا بحد ذاته أمر يوضح مدى الفارق الذي كان سائداً آنذاك بين مستوى العلاقات الرسمية اللبنانية ـ السوفياتية من جهة والعلاقات السوفياتية مع منظمة التحرير الفلسطينية من جهة أخرى. وقد بلغت العلاقات السوفياتية الفلسطينية ذروة في توثقها في الدورة الثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث اتخذت عدة قرارات في مصلحة منظمة التحرير الفلسطينية، بمساهمة الدعم السوفياتي الذي كان مهماً جداً باعتراف الفلسطينيين انفسهم، مما حمل ياسر عرفات على الإدلاء بحديث لإذاعة موسكو عشية زيارة جديدة له إليها، وصف فيه الاتحاد السوفياتي بأنه صديق حميم وقوي، ووصف العلاقات الفلسطينية بالاتحاد السوفياتي بأنها استراتيجية لا تكتيكية.

وفي ختام زيارته إلى موسكو التي دامت من ٢٤ إلى ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ على رأس وفد فلسطيني، صدر بيان مشترك سوفياتي ـ فلسطيني يحمل محصلة محادثات عرفات مع غروميكو وبونوماريوف،

ويؤكد على اتفاق وجهتي نظر الطرفين حيال سبل تسوية أزمة الشرق الأوسط، ورفض الحلول الجزئية، والإصرار على الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني. وأعرب ممثلو منظمة التحرير الفلسطينية عن امتنانهم العميق للاتحاد السوفياتي على تأييده الثابت للنضال العادل للشعب الفلسطيني في سبيل أمانيه الوطنية، وضد دسائس الإمبريالية والصهيونية والرجعية. كما أكد الجانب السوفياتي الخط المبدئي والثابت في مواصلة تقديم مثل هذا الدعم باعتباره جزءاً لا يتجزأ من سياسة الإتحاد السوفياتي الرامية إلى تلطيف المناخ الدولي وصيانة السلام في العالم [٢٦].

في هذا الوقت واصلت الصحافة السوفياتية نشر التعليقات حول الأحداث في لبنان، مركزة على الأبعاد الإقليمية لهذه الأحداث والأهداف البعيدة الكامنة خلفها، وفي هذا الصدد كتبت صحيفة «سوفياتسكايا أندوستريا» أن أعداء لبنان ينهمكون في وضع خطط وراء الستار لتقسيم البلاد إلى منطقتين إسلامية ومسيحية، وهذا لا يتفق أبداً مع المصالح الأساسية لشعب لبنان، أو مع مصالح البلدان العربية الأخرى. وأضافت أن الأوساط الأمبريالية والعدوانيين الإسرائيليين يحرضون على عداء مصطنع بين الطائفتين المسيحية والإسلامية، ويرفضون التوقف عن محاولاتهم الاستفزازية لإثارة الاشتباكات بين اللبنانيين والفلسطينيين الذين يعيشون على الأرض اللبنانية، وهم يبذلون كل ما في وسعهم لتحويل المنازعات السياسية إلى حرب أهلية داخلية وخلق جو من العنف والفوضى. وختمت بقولها: «إن ثمة اعتقاداً متزايداً في لبنان بأن مشاكل البلاد لا يمكن حلها إلا بالوسائل السلمية وبتنفيذ برنامج للإصلاح السياسي والإقتصادي» [٢٧].

وكان الوضع في لبنان موضوع بحث في لقاء جرى في مقر اللجنة

المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، بين وفد شيوعي لبناني ضم السيدين نديم عبد الصمد، وكريم مروة، عضوي المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني من جهة، وأندريه كيرلينكو عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وبوريس بونامريوف المرشح لعضوية المكتب السياسي من جهة أخرى. وقد أذيع بلاغ عن المباحثات تضمن تقدير الحزب الشيوعي اللبناني تقديراً عالياً لتضامن الحزب الشيوعي السوفياتي مع الشيوعيين، وكافة القوى الوطنية والتقدمية في لبنان، في جهودهم الرامية إلى بلوغ تسوية سلمية للأزمة الداخلية في لبنان على أساس برنامج ديمقراطي واسع يؤمن وقف إراقة الدماء والتوصل إلى الوحدة الوطنية للشعب اللبناني وتوطيد استقلال ووحدة وسلامة أراضي الجمهورية اللبنانية لمواجهة الدسائس العدوانية لإسرائيل والأوساط الإمبريالية والرجعية [٢٨].

وفي أواخر العام ١٩٧٥ كتب معلق البرافدا السياسي فلاديمير بيريسادا حول تصريح رئيس اركان الجيش الإسرائيلي مردخاي غور، والذي تحدث فيه عن إمكانية تدخل إسرائيل في الأزمة اللبنانية، كتب مشيراً إلى أن تل أبيب تبحث عن ذريعة لتدخل من شأنه أن يلحق ضرراً لا يعوض بالمصالح الوطنية اللبنانية، وقضية النضال المشترك للشعوب العربية ضد العدوان الإسرائيلي، واعتبر هذا التصريح بأنه «تهديد وقائي» جديد من جانب إسرائيل في حالة إذا ما تطورت الأحداث في لبنان باتجاه ليس في صالح تل أبيب. وهذا يعني إبراز مصلحة الأوساط الحاكمة الإسرائيلية في أن تستمر الاشتباكات الدموية في لبنان. هذه الاشتباكات التي تجري على فترات متقطعة منذ حوالي نصف عام. ومضى تعليق البرافدا يقول: «إن المعلقين الأجانب إذ يشيرون فعلاً إلى أن

إسرائيل تتدخل فعلاً منذ أمد بعيد في الأحداث اللبنانية، وتشن عملياً حرباً غير معلنة على الحدود الجنوبية من هذا البلد، يرون أن تل أبيب ترمي بتأجيج لهيب الأزمة السياسية الداخلية في لبنان إلى خدمة مخططات تقسيم البلد وإقامة دولة مسيحية منفصلة فيه. وأن الزعماء الإسرائيليين يسعون إلى استغلال كون قوى معينة في لبنان، وهو بلد سكانه من المسلمين والمسيحيين، تحاول زيادة حدة الخلافات السياسية الداخلية عن طريق تسعير الخصومات الطائفية»[٢٩].

سيظهر لاحقاً مدى جدية هذه الإشارات السوفياتية المتكررة والمبكرة إلى دور إسرائيل في أحداث لبنان وأزمته، ومدى أهميتها في كشف أحد أبرز أسباب استعصاء الأزمة في لبنان، منذ العام ١٩٧٦، عام الدخول العسكري السوري إلى لبنان الذي قيل في تبريره إنه تم لمنع دخول إسرائيل إلى لبنان بحجة حماية المسيحيين فيه من انتصار تحالف اليسار والفلسطينيين عليهم، وما سيجره ذلك من انعكاسات طائفية مدمرة تشكل ذريعة «رائعة» لتدخل إسرائيلي لحماية مواطنين عرب من إبادة مواطنين عرب آخرين لهم.. إلى العام ١٩٨٢، عام الاجتياح الإسرائيلي للبنان الذي هدف إلى تدمير البنية السياسية والعسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وترتيب أوضاع لبنان السياسية الدستورية بما يكفل تطبيع العلاقات بينه وبين إسرائيل في نطاق اتفاق ثنائي بين البلدين وعزل ومحاصرة سوريا البلد العربي الوحيد المتبقي في ساحة المواجهة مع إسرائيل بعد خروج مصر إلى اتفاقات كمب ديفيد وسياسة الصلح المنفرد مع إسرائيل. فكيف تطور الموقف السوفياتي خلال هذه الفترة، وخاصة في العامين ١٩٧٦ و١٩٨٢ حيال الأحداث في لبنان وهل استمر على ثوابته التى انطلق منها في العام ١٩٧٥؟

في كانون الثاني (يناير) ونيسان (إبريل) وتشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٧٦، أصدر الاتحاد السوفياتي ثلاثة بيانات عن سياسته تجاه موضوع التسوية في الشرق الأوسط. وكان كل من البيانين الأولين على شكل تصريح حكومي علني. أما الثالث فقد أتى على شكل اقتراح قدمه الاتحاد السوفياتي إلى حكومات كل من مصر وسوريا والأردن وإسرائيل والولايات المتحدة وإلى منظمة التحرير الفلسطينية.

وعلى الرغم من اختلاف الشكل والمضمون في ما بين هذه الوثائق الثلاث، فإنها تحتوي على موضوعين رئيسيين يمكن الأخذ بهما على أنهما يشكلان أساس السياسة السوفياتية تجاه التسوية في الشرق الأوسط طوال سنة ١٩٧٦. أما الموضوع الأول فهو التأكيد أن هناك مشكلات رئيسية ثلاثاً يرتبط بعضها ببعض بشكل عضوي، ويجب حلها إذا كان للسلام أن يستتب في المنطقة. وقد تم تحديد هذه المشكلات الثلاث على النحو التالي: إنسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها سنة ١٩٦٧، تحقيق المطالب الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني، بما فيها حقه غير القابل للتصرف في إنشاء دولته الخاصة به، ضمان أمن جميع دول الشرق الأوسط وحقها في أن تحيا حياة مستقلة. وفيما يختص بالنقطتين الأولى والثانية، فقد تم ربط هذه المبادىء ربطاً صريحاً بقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة كأساس للتسوية.

أما الموضوع الثاني، فيختص بدور الفلسطينيين بالتسوية، فهذه الوثائق الثلاث جميعها، تنص على ضرورة اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في جميع مراحل مؤتمر جنيف عندما يعقد مجدداً. وقد وصفت الوثائق هذا المؤتمر بأنه المكان الصالح الوحيد لإيجاد تسوية. أما التصريحان الأول والثاني فيؤكدان أن القرارات الأخيرة للجمعية العامة للأمم المتحدة

(وهما على الأخص القراران ٣٢٣٦ و ٣٢٣٧ اللذان لم يشر إليهما مباشرة) قد اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً لشعب فلسطين، فيما تم تأكيد حق هذا الشعب في إنشاء دولته الخاصة به. أما الاقتراح السوفياتي الذي صدر في تشرين الأول (أكتوبر)، فقد اقترح لائحة مفصلة بأعمال مؤتمر جنيف في حالة عقده مجدداً، لكنه لم يشر إلى قرارات الجمعية العامة، بل كرر النقطة التي وردت في تصريح كانون الثاني (يناير) من أن أشتراك منظمة التحرير الفلسطينية يجب أن يتم على قدم المساواة ومنذ البداية. لكن هذا الاقتراح ينفرد بكونه يشير في معرض الحديث عن جدول الأعمال المقترح، إلى ضرورة «إنهاء حالة الحرب» بين الدول العربية وإسرائيل.

ويمكن القول بوجه عام إن هذه التصريحات هي بمثابة محاولة لإعادة الزخم إلى عملية التسوية المتوقفة، ولإدخال عناصر جديدة على هذه العملية. ومن أهم هذه العناصر تأكيد جديد لأهمية القضية الفلسطينية وإشراك منظمة التحرير، في مجلس الأمن كما في جنيف، في المحاولات المبذولة كافة لإيجاد تسوية.

وبينما قام الاتحاد السوفياتي بعدد من التحركات الدبلوماسية الثانوية خلال سنة ١٩٧٦، كدعم محاولات مجلس الأمن في كانون الثاني (يناير) وآذار (مارس) وحزيران (يونيو). من أجل تأكيد الحقوق الفلسطينية وإدانة الاحتلال الإسرائيلي المستمر للأراضي العربية، فإن هذه الجهود، مثلها في ذلك مثل المبادرات المذكورة أعلاه، قد طغت عليها الأحداث في الشرق الأوسط. فبعد أن وصلت العلاقات السوفياتية ـ المصرية إلى أدنى المستويات إطلاقاً، وبعد أن حدث تباعد متزايد خلال السنة بين حليفي السوفيات: سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية، في مثل هذه الحالة

فقد بدا وكأن أي مبادرة سوفياتية تهدف إلى التسوية، إن في مجلس الأمن أو في أي مجال آخر، باتت مبادرة غير مؤاتية في أحسن الأحوال أو فاشلة في أسوئها.

وقد انعكس كل ذلك على مجريات الأحداث في لبنان، أفلم يعلن الإتحاد السوفياتي مراراً وتكراراً أن أحداث لبنان الدامية إنما هي من نتائج انعدام التسوية الشاملة لأزمة الشرق الأوسط؟ لقد كانت هذه الأحداث منذ بدايتها واضحة المعالم بالنسبة للاتحاد السوفياتي. وفي نطاق رؤيته كان الاتحاد السوفياتي في موقفه من الأحداث في لبنان إنما يكمل موقفه من أزمة المنطقة بشكل عام، والتسويات الجزئية، ويقدم على خلفية هذا الموقف الدعم السياسي والمعنوي والإعلامي والمادي لحلفائه في مواجهة سياسة الصفقات المنفردة، وهم ذاتهم حلفاؤه على الساحة اللبنانية، أي سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية والقوى التقدمية اللبنانية. وقد جدد الاتحاد السوفياتي إعلان موقفه من الأحداث في لبنان عبر جريدة البرافدا الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، في مقال حمل توقيع «مراقب» نشر في نيسان (إبريل) ١٩٧٦ وجاء فيه:

«منذ عام تقريباً ولبنان، هذا البلد الصغير المحب للسلام على ساحل البحر الأبيض المتوسط، مسرح لصدامات دموية مسلحة. وقد قضت الأحداث المأساوية على حياة الألوف وسببت أضراراً مادية هائلة وشلت الاقتصاد اللبناني إلى حد كبير. ويعيش عشرات الألوف من الناس في وضع بائس بعدما فقدوا المأوى ووسائل العيش. وتكمن الأسباب الحقيقية للأحداث أول ما تكمن في سعي القوى الإمبريالية والرجعية الداخلية إلى صرف العرب عن النضال لأجل تحرير الأراضي العربية التي تحتلها إسرائيل، وضرب حركة المقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية في

لبنان، وبالتالي الحؤول دون تعزيز جبهة القوى التي تناضل ضد العدوان الإسرائيلي المستمر.

إن الذين أثاروا النزاع في لبنان ويسعرونه بأعمالهم التخريبية، يرسمون أهدافاً سياسية بعيدة المدى لا تمت بأي صلة إلى مصالح الشعب اللبناني، وهم لا يخفون رغبتهم في شق لبنان وتقسيم أراضيه وبالتالي القضاء على الجمهورية اللبنانية، الدولة المستقلة ذات السيادة.

إن من السذاجة اعتبار الأحداث في لبنان مظهراً للعداء الديني الطائفي بين شطري السكان المسيحي والمسلم، علماً بأن أوساطاً معينة في لبنان والخارج تحاول اعطاءها هذه الصورة بالضبط.

لقد تحقق في لبنان من جديد الآن، عن طريق الوساطة السورية، وقف إطلاق النار، وتجري مشاورات بين الأطراف اللبنانية المعنية. وهذا عنصر جديد وإيجابي في تطور الوضع في لبنان، لكن الوضع في البلاد لا يزال متوتراً. وما زالت حدة التناقضات قائمة، وقد تراكم الكثير من المواد القابلة للاشتعال، إذا لم يقض على خطر انفجار جديد مشحون بعواقب أوخم على لبنان والشرق الأدنى بأكمله.

إن الأنباء الواردة من مختلف الأنحاء تشهد على أن القوى الرجعية الداخلية والخارجية لم تتخل عن نواياها العدوانية، وأنها تواصل القيام بمحاولات جديدة وجدية في هذا الاتجاه. وقد اتجهت سفن الأسطول السادس الأميركي نحو الشواطىء اللبنانية، كما دعا السناتور الأميركي جاكسون المعروف بعدائه المسعور للانفراج الدولي، إلى إنزال مشاة البحرية الأميركية في لبنان. ولا تزال إرداة العودة الخطرة إلى السياسة التي أفلست تماما سياسة «مواقع القوة» التي يحلم بعض الأوساط السياسية

بإحيائها متجاهلة أن الظروف على الصعيد الدولي قد تغيرت تغيراً كبيراً في السنوات الأخيرة.

ويُستشعَر في الاتحاد السوفياتي قلق عميق من جراء الأحداث في لبنان، فبلادنا تمارس منذ وجودها نهجاً مبدئياً ودائباً ضد كل تدخل إمبريالي في شؤون الدول الأخرى، وتدافع عن كل شعب في تقرير مصيره بنفسه.

إن الاتحاد السوفياتي يقف إلى جانب القوى اللبنانية التي تناضل لأجل تحقيق الوحدة الوطنية والحفاظ على سلامة الجمهورية اللبنانية الإقليمية، كما يدعم دعماً كاملاً طموح الشعب اللبناني المشروع إلى أن يكون سيد مصيره، وأن يحل طبقاً لمصالحه الجذرية الوضع المتأزم الحالي بالوسائل السلمية.

إن تطبيع الوضع في لبنان هو عامل هام في طريق تلاحم جبهة القوى العربية التي تناضل لأجل إزالة آثار العدوان الإسرائيلي، وإقامة سلم عادل ووطيد في الشرق الأدنى.

إن أصدقاء الشعب اللبناني يتمنون له النجاح في نضاله لأجل تحقيق السلام، وسلامة الجمهورية اللبنانية الإقليمية وسيادتها واستقلالها»[٣٠]

لقد طرحت مقالة «البرافدا» هذه الموقف السوفياتي حيال الوضع في لبنان من كافة جوانبه، ولم تكتف بمجرد التركيز على المؤامرة التي تتعرض لها حركة المقاومة الفلسطينية، بل إنها أكدت على استقلال لبنان وسيادته وعلى حق الشعب اللبناني في أن يكون سيد مصيره وعلى الحل السلمي للوضع المتأزم. فالاتحاد السوفياتي كان يدرك مدى الخلافات التي بدأت

تنشب على الساحة اللبنانية بين المقاومة الفلسطينية وحلفائها من الأحزاب اللبنانية من جهة وسوريا من جهة ثانية. وفي محاولة منه لتدارك العواقب الوخيمة لمثل هذه الخلافات بين أطراف الصف الواحد، حلفائه في مواجهة السياسة الأميركية ـ الإسرائيلية ـ المصرية، شجع تسوية الوضع في لبنان بالطرق السلمية، تلافياً لنشوب صراع بين حلفائه. وما سيخلفه ذلك من انعكاسات سلبية على الصراع الدائر في المنطقة. لذلك حذر راديو موسكو في أوائل شهر أيار (مايو) ١٩٧٦ في تعليق له من محاولات ترمي إلى الإيقاع بين القوات الفلسطينية، والوطنية اللبنانية، والسورية بهدف إخراج دمشق من الخط المعادي للإمبريالية، وتحطيم المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. كذلك أكد بيان صدر عن المؤتمر الثالث لجمعية الصداقة السوفياتية ـ العربية، على أهمية تضامن الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وسوريا في التصدي لمحاولات الإمبريالية والرجعية الرامية إلى إلهاء العرب عن الصراع مع إسرائيل وإلى ضرب المقاومة الفلسطينية [٣١].

في هذه الاثناء كان قد جرى انتخاب الياس سركيس رئيساً للجمهورية اللبنانية لولاية دستورية تبدأ في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٦ وتستمر ست سنوات. وقد أمل الاتحاد السوفياتي كما اللبنانيون، أن يكون هذا الانتخاب بداية مرحلة جديدة في لبنان يسودها السلام. وقد أعرب الرئيس السوفياتي نيكولاي فيكتوريوفيتش بودغورني عن ذلك في برقية تهنئة بعث بها إلى الرئيس اللبناني المنتخب في ١٢ أيار (مايو) ١٩٧٦ جاء فيها:

« لمناسبة انتخابكم رئيساً للجمهورية اللبنانية، نتقدم من فخامتكم بأحر التهاني وأطيب التمنيات، واسمحوا لي أن أعبر عن تقديري إلى هذا

المقام السامي والتأكيد على الجو الأخوي بين الاتحاد السوفياتي ولبنان.
أتمنى للشعب اللبناني الصديق النجاح التام للوصول إلى النتائج الخيرة، والحفاظ على الوحدة الوطنية، والاستقلال والسيادة التامة لهذا البلد » [٣٢].

وبعد هذا التأكيد السوفياتي المتكرر على سيادة لبنان واستقلاله ووحدة أراضيه، عادت جريدة البرافدا إلى تحليل الوضع في لبنان، وتفسير أسباب الصدامات فيه بالوضع الملتهب لأزمة الشرق الأوسط، وانعكاساتها في لبنان الذي يدفع ثمناً باهظاً نتيجة للمماطلة بمسألة التسوية في منطقة الشرق الأوسط، مما جعل من هذا البلد الصغير أداة للسياسة المغرضة التي تهدف إلى تشتيت الصفوف العربية، وأعربت البرافدا عن تأييدها لنداء ممثلي القوى الوطنية والتقدمية اللبنانية إلى جامعة الدول العربية لبذل مساعيها من أجل تسوية الأزمة اللبنانية. ووصفت هذا النداء بأنه شعاع من الأمل في بدء حوار سياسي [٣٣].

وفي هذا التحول من القوى التقدمية اللبنانية نحو التعريب بعدما كانت في السابق ترفضه وتصر على حصر المبادرات العربية بسوريا فقط، بدأت تتضح، أكثر فأكثر، معالم الخلافات بين سوريا من جهة، والفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين من جهة ثانية. وسيعرف الرئيس المصري أنور السادات كيف يذكي حدة هذه الخلافات، ليس حباً بالفلسطينيين وحلفائهم بل إرباكاً للجبهة المعارضة لاتفاقية سيناء وإلهاء لأقطابها، ليفتح ثغرة في بوابتها اللبنانية، تتيح له لاحقاً العودة إلى صفوف الزعامة القومية تحت مظلة صنع السلام في لبنان دون التخلي طبعاً عن توجهاته الخاصة بالسلام المنفرد والتسويات الجزئية، وكل ذلك في نطاق سياسته المرتبطة بعجلة السياسة الأميركية، والتي أملت عليه إلغاء معاهدة الصداقة المصرية ـ السوفياتية وقيادة حملة العداء للسوفيات في المنطقة العربية.

في ذلك الوقت وتحديداً في الأول من حزيران (يونيو) ١٩٧٦ وصل رئيس الوزراء السوفياتي الكسي نيكولايفيتش كوسيغين إلى دمشق بعدما كان قد أنهى زيارة للعراق اختتمت ببيان مشترك عراقي سوفياتي أدان المحاولات التي ترمي إلى ضرب المقاومة الفلسطينية وإلى هدم الحركة التقدمية اللبنانية [٣٤].

وقبل وصول كوسيغين إلى دمسق بيوم واحد فقط كانت قد دخلت قوات سورية تساندها الدبابات إلى منطقتي عكار والبقاع اللبنانيتين، وقد قدرت مصادر صحفية غربية في حينه تلك القوات بأربعة آلاف جندي ومئة وخمسين دبابة. غير أن أي إشارة إلى هذا الدخول، أو الخلافات السورية ـ الفلسطينية لم ترد ولو بصورة ضمنية لا في البيان المشترك الذي صدر في ختام الزيارة في ٤ حزيران (يونيو) ولا في الكلمة التي ألقاها كوسيغين في المأدبة التي أقيمت في دمشق على شرفه. ولكنه في حديث أدلى به في اليوم الثاني لوصوله إلى دمشق، أعرب عن تأييد الاتحاد السوفياتي للقوى اللبنانية التي تناضل من أجل الوحدة الوطنية، ووحدة الأراضي، ووقف نزف الدم، وتسوية الأزمة الحالية بالطرق السلمية وفق المصالح الأساسية للشعب اللبناني. وأشار إلى أن القوى الاستعمارية تستغل الأحداث الدامية في لبنان لتدفع بالعرب إلى حرب بين الأشقاء بزرعها الشقاق والخلافات بينهم من أجل الإساءة إلى المقاومة الفلسطينية [٣٥].

وبعد يومين من انتهاء زيارة رئيس الوزراء السوفياتي إلى دمشق قالت صحيفة «البرافدا» إن الصراع المسلح بين الأطراف المتنازعة في لبنان قد أوشك على الانتهاء بفضل التدخل العسكري السوري. وأوردت ما جاء في صحيفة الثورة السورية من أن سوريا أرسلت قواتها إلى لبنان انطلاقاً من مشاعر إنسانية تحس بها نحو ضحايا إراقة الدماء بين الأخوة العرب،

معربة في الوقت ذاته عن تأييدها للقوى اللبنانية التي تتطلع إلى الوحدة الوطنية وتسوية الأزمة الحالية بالوسائل السلمية [٣٦].

وعندما نشب القتال بين القوات المشتركة الفلسطينية ـ اللبنانية والجيش السوري ليل يوم الأحد ٦ حزيران (يونيو) ١٩٧٦، أشارت التقارير الصحفية السوفياتية بمرارة إلى ذلك القتال وطالبت مجدداً بتضامن القوى المعادية للإمبريالية. وهنا دخل الاتحاد السوفياتي في مرحلة حرج شديد تجاه تطور الأحداث في لبنان. فالقوى الحليفة له والتي ظلت حتى الأمس القريب دعائم أساسية ثلاث في الجبهة المواجهة لسياسة التسويات الجزئية، تمزقت وحدتها وبدأ الصدام بينها على أرض لبنان، المقاومة الفلسطينية، والقوى التقدمية اللبنانية من جهة وسوريا من جهة ثانية، فمن بقي مع الاتحاد السوفياتي من قوى المواجهة في سياسته المعادية لمحور واشنطن ـ تل أبيب ـ القاهرة! وإلى من سيوجه الدعم السوفياتي من حلفاء الأمس متقاتلي اليوم وعلى أي منها ستقع ملامته؟

في بداية الأمر فسر العديد من المراقبين الموقف السوفياتي بأنه إلى جانب سوريا في تدخلها في لبنان، وإلى جانبها في المعارك التي يخوضها جيشها ضد القوات المشتركة، إنطلاقاً من عدم إعلان رئيس الوزراء السوفياتي كوسيغين خلال وجوده في دمشق أي موقف أو حتى إشارة توحي بمعارضة التدخل السوري في لبنان، وانطلاقاً مماتناقلته الصحافة السوفياتية من أخبار عن الوضع في لبنان، بالاستناد إلى المصادر الصحفية السورية، لا سيما الموقف السوري القوي الحجة والذي خلص إلى وضع الرأي العام أمام خيارين لا ثالث لهما في لبنان. فإما أن يستمر القتال وينتصر أحد الأطراف وما سيرافق ذلك من أعمال طائفية دموية، سترى فيها إسرائيل حجة وذريعة ملائمة للتدخل في لبنان وضرب المقاومة

الفلسطينية وتحويله إلى محمية إسرائيلية، وإما أن يدخل الجيش السوري ويمنع حدوث ذلك، ويعيد السلام إلى لبنان، ويقطع على إسرائيل طريق تدخلها، فأي الخيارين أفضل؟ سوريا من جهتها أخذت بالخيار الثاني، وإسرائيل أربكت في بداية الأمر ثم وضعت خطاً أحمر حذرت على القوات السورية تجاوزه في لبنان، هو مجرى نهر الأولي شمالي مدينة صيدا، أما القوى اليسارية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط وحركة المقاومة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات فقد عارضت وجابهت الدخول السوري سياسياً وعسكرياً. وهذا ما أحرج السوفيات الذين وجدوا أنفسهم بين حليفين يتصارعان على أرض لبنان. وفي الوقت نفسه يحاول البعض خارج حدود لبنان استغلال الفرصة للتدخل مباشرة في الأحداث. وهنا أذاعت وكالة أنباء تاس السوفياتية الرسمية بياناً في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٧٦ قالت فيه إن منطقة الشرق الأوسط أقرب بكثير إلى الاتحاد السوفياتي منها إلى أولئك الذين يطلقون التهديدات بالتدخل. وفي جميع الأحوال فإن الاتحاد السوفياتي على أقل تقدير يهتم قدر اهتمامهم بتطور الموقف في لبنان، وحول هذا البلد، ولا يجوز لأي شخص أن يغيب ذلك عن باله. وحذّر البيان من مغبة تحويل الأحداث اللبنانية إلى نزاع دولي واسع النطاق. ومن أجل هذا من الضروري أن توقف الأطراف المعنية بالأحداث اللبنانية بهذا الشكل أو ذاك النار من دون إبطاء. وأشار البيان إلى أن الجمهورية العربية السورية قد صرحت مراراً أن قواتها قد ذهبت إلى لبنان لإيقاف سفك الدماء، لكن من الواضح أن سفك الدماء ليس فقط لم يتوقف بل قد ازداد حدة [٣٧].

وبذل السوفيات خلال الأشهر الخمسة اللاحقة كل ما بوسعهم لوقف المجابهة بين السوريين ـ والفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين، ولم توفق

موسكو في مساعيها واستمرت المواجهة مما أثار ابتهاجاً لدى أوساط المراقبين الغربيين ولم يكن بوسع الاتحاد السوفياتي في هذا الوضع الدقيق والحرج أن يفعل شيئاً إلا العمل لوقف المجابهة بين حلفائه المتحاربين بأسلحة سوفياتية.

لم يقتصر الموقف السوفياتي على مراقبة الأحداث وإطلاق الدعوات لوقف إطلاق النار بل تخللته نشاطات سوفياتية مكثفة، سواء عبر المباحثات أم عبر رسائل القيادة السوفياتية إلى القيادتين السورية والفلسطينية. وحذرت الصحافة السوفياتية من مغبة استمرار المواجهة بين الأشقاء في لبنان. معتبرة ذلك من نتائج الاتفاق الجزئي المصري ـ الاسرائيلي الذي اعتبرته الولايات المتحدة الأميركية على حد تعبير، صحيفة «سيلزكايا جيزن» في تعليق لها يوم ١٩ حزيران (يونيو) ١٩٧٦، بمثابة تمهيد لا غنى عنه لاستخدام القوة في الأراضي اللبنانية لتصفية الحركة الفلسطينية وتدمير الوحدة الوطنية. وأشارت الصحيفة إلى أن الدماء تراق بدرجة أكبر منذ أن بدأ الدخول السوري الى لبنان، وأن الأزمة تحولت إلى حرب حقيقية بين الجيش السوري والمجموعة الفلسطينية «الصاعقة» وفصائل الكتائب، والشمعونيين من ناحية، والحركة الفلسطينية، وقوى اليسار الوطنية، والجيش العربي اللبناني من ناحية أخرى [٣٨].

ولا بد من الملاحظة هنا أن الرئيس المصري أنور السادات الذي سبق له أن أدار ظهره للمصالح الوطنية المصرية والقومية العربية، وسار في نهج كيسنجر للصفقات المنفردة، وعطل مسيرة الصداقة المصرية ـ السوفياتية، تحول فجأة إلى «مدافع عنيف» عن المقاومة الفلسطينية للمزيد من إرباك القوى المواجهة والمعارضة لاتفاقية سيناء ولفتح ثغرة في الموقف العربي

تتيح له الخروج من عزلته، واستئناف سياسته الخاصة بأزمة الشرق الأوسط، والمرتبطة تماماً بالسياسة الأميركية في المنطقة.

وفي مواجهة السياسة الأميركية ـ الإسرائيلية ـ المصْرية التي هللت للصدام السوري ـ الفلسطيني ـ اللبناني، كرر الاتحاد السوفياتي مطالبته الملحة بوقف القتال. وفي هذا الإطار أصدرت اللجنة السوفياتية للتضامن الأفرو ـ آسيوي بياناً في العاشر من شهر تموز (يوليو) ١٩٧٦ قالت فيه إن الأزمة اللبنانية إنما هي مؤامرة خسيسة جديدة تحوكها الإمبريالية والأوساط الحاكمة الإسرائيلية. وأشار البيان إلى أن أحداث لبنان اتسمت في الآونة الأخيرة بطابع درامي أكثر كما أن الدم أخذ يراق في غزارة أكثر. ودعت اللجنة بأسم الرأي العام السوفياتي إلى وقف إطلاق النار وإراقة الدماء فوراً من دون مماطلة، معربة عن ثقة المواطنين السوفيات من أن الأزمة اللبنانية يمكن بل ويجب حلها من دون أي تدخل أجنبي ومن قبل اللبنانيين أنفسهم مع مشاركة الأطراف المعنية على أساس ضمان استقلال لبنان وسيادته ووحدة أراضيه. وجاء في مقالة نشرتها البرافدا في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٦ بتوقيع مراقب: «مهما تكن المعطيات التي حدت دمشق على إرسال قواتها إلى لبنان، فإن هذا القرار قد انقلب ضد الحركة الفلسطينية، وأتاح لليمينيين أن يوجهوا ضربات موجعة إلى بعض فصائل القوات الفلسطينية واللبنانية القومية والوطنية». وادانت البرافدا في مقالها بعض القوى اليسارية المتطرفة الفلسطينية واللبنانية التي ترفض كل حل [٣٩].

بالإضافة إلى هذه المواقف كان قد تم خلال شهر حزيران (يونيو) ١٩٧٦ افتتاح مكتب لمنظمة التحرير في موسكو، وتعددت زيارات كبار المسؤولين الفلسطينيين إليها. وهكذا حافظ الاتحاد السوفياتي على موقفه

الداعم للفلسطينيين والقوى التقدمية اللبنانية. وحافظ على علاقته مع سوريا ولم يقطع معونته العسكرية والاقتصادية لها، مواصلاً جهوده لوقف الصدام بالوسائل السياسية الأجدى. وقد برهنت هذه السياسة في نهاية الأمر على نجاحها أذ توقف القتال في أواخر العام ١٩٧٦ بين حلفاء موسكو فوق الساحة اللبنانية ـ السوريين والفلسطينيين واللبنانيين.

ومن هنا فإن انتهاء القتال، وبالتالي الحرب في لبنان آنذاك، وفقاً لقرارات قمة الرياض السداسية، وقمة القاهرة، كان مصدر ارتياح كبير بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي، لأن ذلك الصراع كان من الامتحانات الصعبة التي واجهتها السياسة السوفياتية في العالم العربي.

ولقد قوّم الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٦ الحرب الأهلية في لبنان «كنتيجة لمحاولة الإمبريالية العالمية الجديدة، أي الولايات المتحدة وبلدان الحلف الأطلسي الأخرى، توجيه ضربة لقوى الثورة المعادية للإمبريالية في الشرق الأوسط. والمحافظة على مواقعها هنا وتعزيزها. وأشار الاجتماع الكامل في سياق إبراز خصائص تكتيك الإمبريالية الحالي حيال حركة التحرر الوطني العربية إلى أن الإمبريالية تسلك طريق إثارة وافتعال النزاعات بين العرب. كما أشار إلى سبب مهم آخر من أسباب الأزمة اللبنانية هو بروز تمايزات طبقية داخل البلدان العربية ونمو الاختلافات الاجتماعية ـ السياسية بينها [٤٠].

لقد توقف القتال وتصالحت دمشق مع كل من القاهرة والفلسطينيين ولكن إلى متى؟ لقد اعتقد اللبنانيون أن الوفاق المصري ـ السوري سينعكس خيراً على بلدهم لجهة الوقف النهائي للحرب وإعادة تعمير

لبنان. غير أن السياسة الأميركية لم تفسح المجال أمام اللبنانيين لرؤية أحلامهم تتحقق. فكما أن اتفاقية سيناء الثانية جرّت وراءها القتال الدامي في لبنان خلال عام ١٩٧٦، كذلك فإن زيارة الرئيس المصري أنور السادات الشهيرة للقدس في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ وما تلاها من سياسات أميركية ـ إسرائيلية ـ مصرية سرية وعلنية، بلغت اتفاقيتي كمب دايفيد في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧ ثم اتفاقية الصلح المنفرد المصرية ـ الإسرائيلية في آذار (مارس) ١٩٧٩، كل ذلك قد عطل الجهود الدولية التي بذلها الاتحاد السوفياتي لتسوية أزمة الشرق الأوسط، وألغى مفاعيل البيان المشترك السوفياتي ـ الأميركي في العام ١٩٧٧ والذي أعلن اتفاق الجبارين على ضرورة تسوية أزمة الشرق الأوسط في مؤتمر دولي خاص وفقاً لقرارات هيئة الأمم المتحدة، وأعاد خلط الأوراق في المنطقة من جديد، وعادت أجواء الخلافات والانقسامات العربية التي ظهرت نتيجة سياسة السادات، ونهج كمب دايفيد، عادت تنعكس بصورة سلبية على أرض لبنان الذي عاد الاقتتال إليه بين القوات السورية من جهة، والقوات اللبنانية اليمينية من جهة ثانية، بالإضافة إلى الصراعات اللبنانية ـ اللبنانية والفلسطينية ـ اللبنانية، وتلبدت أجواء لبنان من جديد بدخان المعارك ونيران المدافع، إلى أن توفرت كل الفرص والمناخات الملائمة لتنفذ إسرائيل مخططها القديم، والذي طالما حذر الإتحاد السوفياتي منه، مخطط استغلال الأحداث في لبنان، للتدخل في هذا البلد وتنفيذ سياستها الرامية إلى اقتلاع منظمة التحرير الفلسطينية منه، وفرض سيطرتها التامة عليه عبر اتفاقية صلح منفرد تجعل منه البلد العربي الثاني بعد مصر على سكة نهج كمب دايفيد.

وبدأ الاجتياح الإسرائيلي للبنان في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ في

الذكرى الخامسة عشرة لعدوان ١٩٦٧ وبحجة واهية هي الاعتداء على دبلوماسي إسرائيلي في لندن. بعد قصف الطائرات الحربية الإسرائيلية التمهيدي قبل يومين والذي طال بعض المواقع الفلسطينية في مدينة بيروت بالذات. فكيف كان موقف الاتحاد السوفياتي من الغزو الإسرائيلي للبنان، وهل تبدلت صورة السياسة السوفياتية في المنطقة بعد هذا الاجتياح الذي بلغ ولأول مرة في تاريخ وجود الدولة العبرية عاصمة عربية هي بيروت؟

هوامش

(١) مؤتمر جنيف إنعقد في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣ أي بعد شهرين وثلاثة أسابيع من حرب تشرين العربية ـ الإسرائيلية برعاية الأمم المتحدة ورئاسة وإشراف الدولتين الكبريين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي.

ترأس الوفد المصري إلى المؤتمر إسماعيل فهمي وزير خارجية مصر. وترأس زيد الرفاعي رئيس وزراء الأردن الوفد الأردني. وترأس أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلية وفد إسرائيل، ومثل منظمة الأمم المتحدة في المؤتمر أمينها العام كورت فالدهايم، وتمثل الاتحاد السوفياتي بوزير خارجيته أندريه غروميكو وكذلك تمثلت الولايات المتحدة الأميركية بوزير خارجيتها هنري كيسنجر. وقد إمتنعت سوريا عن حضور المؤتمر. إقتصرت أعمال المؤتمر في يومه الأول على جلسة الافتتاح حيث ألقيت كلمات رؤساء الوفود. وفي اليوم الثاني. السبت ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) عقد المؤتمر جلسة ثانية خلف أبواب مغلقة استمرت ربع ساعة فقط، حيث أعلن انتهاء المرحلة الأولى لمؤتمر جنيف وتم الاتفاق على أن تبدأ لجنة عسكرية خاصة، العمل فوراً على فك إرتباط القوات المصرية والإسرائيلية في جبهة قناة السويس، كما تم الاتفاق على تأليف لجان أخرى تبحث في الشؤون المختلفة.

(٢) جريدة الثورة السورية ١٩٧٥/٢/٤

(٣) جريدة الدستور الأردنية ١٩٧٥/٣/١١

(٤) جريدة الجمهورية العراقية ١٩٧٥/٤/١٦

(٥) جريدة الثورة السورية ١٩٧٥/٤/٢٧

(٦) عادل مالك، من رودس إلى جنيف ص ٣٤٨ - بيروت، دار النهار ١٩٧٤

(٧) جريدة النهار اللبنانية ١٩٧٥/٥/٥

(٨) اليوميات الفلسطينية لسنة ١٩٧٥ ص ٥٢٥، مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت

(٩) المرجع السابق

(١٠) جريدة الأزفستيا ١٩٧٥/٧/٨، تعليق كتبه غريغوريانتس.

(١١) جريدة النداء اللبنانية ١٩٧٥/٩/٤

(١٢) جريدة البرافدا ١٩٧٥/٩/٨

(١٣) جريدة السفير ١٩٧٥/٩/٢٢

(١٤) جريدة النداء ١٩٧٥/٩/٢٨

(١٥) المرجع السابق

(١٦) جريدة الثورة السورية ١٩٧٥/١٠/٢٢

(١٧) المرجع السابق

(١٨) جريدة البعث السورية ١٩٧٥/١٠/٢٣

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) المرجع السابق

(٢١) جريدة النداء اللبنانية ١٩٧٥/١٠/١٥

(٢٢) نشرة وكالة أنباء تاس ١٩٧٥/١٠/٢٠

(٢٣) وكالة الصحافة الفرنسية ١٩٧٥/١٠/١٣

(٢٤) أنطوان خويري: أحداث لبنان ١٩٧٥، المجلد الأول ص ٤٠٣

(٢٥) جريدة النداء اللبنانية ١٩٧١/١١/١٥

(٢٦) جريدة النداء اللبنانية ١٩٧٥/١١/٢٨

(٢٧) أنطوان خويري، حوادث لبنان ١٩٧٥، مرجع سابق، ص ٥٠٦ و ٥٠٧

(٢٨) جريدة النداء اللبنانية ١٩٧٥/١٢/١٤

(٢٩) جريدة البرافدا: ١٩٧٥/١٢/٢٦

(٣٠) وكالة أنباء نوفوستي، عن جريدة البرافدا ١٩٧٦/٤/٧

(٣١) الكتاب السنوي لمؤسسة الدراسات الفلسطينية ص ٤٠٩ - (١٩٧٦).

(٣٢) جريدة النهار ١٩٧٦/٥/١٢

(٣٣) جريدة البرافدا ١٩٧٦/٥/١٤

(٣٤) جريدة الجمهورية العراقية ١٩٧٦/٦/١

(٣٥) جريدة النهار اللبنانية ١٩٧٦/٦/٣

(٣٦) أنطوان خويري، الحرب في لبنان، ١٩٧٦، الجزء الثاني، ص ٣٣٩

(٣٧) وكالة أنباء تاس ١٩٧٦/٦/٩

(٣٨) أنطوان خويري، الحرب في لبنان، ١٩٧٦، الجزء الثاني، ص ٤٨٦

(٣٩) جريدة البرافدا ١٩٧٦/٩/٨

(٤٠) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٧٦/١٠/٢٠

٢ ـ موقف وسياسة الاتحاد السوفياتي تجاه الاجتياح الاسرائيلي للبنان (١٩٨٢)

سبق ورأينا في الأقسام السابقة كيف حذر الاتحاد السوفياتي عشرات لا بل مئات المرات منذ الأيام الأولى لاندلاع الأحداث في لبنان من محاولات اسرائيل استغلال الوضع في لبنان، والافادة منه من أجل تنفيذ مخططاتها التوسعية. ورأينا كذلك كيف عجز الاتحاد السوفياتي في السابق عن وقف الاقتتال بين حلفائه الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين، رغم نداءاته المتكررة وجهوده المكثفة لوقف اقتتال الأخوة، وتوحيد صفوف قوى المواجهة العربية المعادية والرافضة لسياسة الصفقات الجزئية المنفردة. وتكررت متصاعدة تحذيرات الاتحاد السوفياتي حتى أن وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية كانت قبل وقوع الاجتياح الاسرائيلي بنحو عام وأكثر، قد أعلنت أن قيادة الأركان الاسرائيلية قد أنهت لتوها وضع اللمسات الأخيرة على مخطط عملية « الليطاني ـ ٢ » القاضي باجتياح الجنوب اللبناني. وقد تناقلت في حينه معلومات الوكالة السوفياتية هذه وسائل الاعلام اللبنانية والعربية على نطاق واسع. وعشية الاجتياح وقبل بدئه بأشهر عديدة كانت القيادات الفلسطينية واللبنانية في معظمها تنبىء به وتتحدث عن احتمال وقوعه بين يوم وآخر، ولطالما أعلنت تلك القيادات في تصريحاتها وخطبها أنها بانتظار قوات بيغن على أرض الجنوب اللبناني، غير أن هذا الوعي المسبق لاحتمال قيام اسرائيل بعملية اجتياح واسعة النطاق، لم يسفر عن وضع خطة عمل مشتركة فلسطينية ـ سورية ـ لبنانية، ولم تجر دراسة متطلبات مثل هذه الخطة المشتركة ومستلزماتها في ما بين الأطراف المعنية من جهة ولا مع حلفائهم وفي مقدمتهم الاتحاد

السوفياتي، من جهة ثانية بل تركت الأمور كالعادة تسري على « بركة الله ».

كما أن علاقة حركة المقاومة الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية مع جماهير اللبنانيين كانت قد وصلت إلى أسوأ أحوالها، نتيجة الممارسات التي قامت بها المنظمات الفلسطينية، والتي تعاملت مع أبناء الجنوب اللبناني وكأنهم « شعب معادٍ » تحت سمع وبصر حلفائها في الحركة الوطنية اللبنانية الذين لجمتهم تبعيتهم الكاملة لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية بمختلف فصائلها، لجمتهم عن انتقاد تلك الممارسات ودفعتهم إلى التغاضي عنها وحتى التواطؤ من قبل بعض الأطراف الوثيقي الارتباط بالفلسطينيين. كل ذلك، بالاضافة إلى الصدامات شبه اليومية بين بعض الأطراف الفلسطينية وكذلك بين بعض الاطراف والقوى اللبنانية داخل صفوف الحركة الوطنية اللبنانية وفي خارجها، على أرض الجنوب وفي مدنه وقراه حيث يجري تبادل إطلاق النار بين « أبناء الصف الوطني الواحد » من فوق رؤوس السكان الآمنين وبين بيوتهم ومزارعهم، وتقطع طرقاتهم إلى مراكز أعمالهم وموارد رزقهم. كل هذه الممارسات « الوطنية اللبنانية ـ الفلسطينية » حملت أبناء الجنوب الذين سبق لهم أن تعاطفوا مع المقاومة الفلسطينية وحلفائها واحتضنوها وقدموا لها البيوت « قواعد »، وشاركوا في صفوفها وقدموا عشرات ومئات الضحايا في مواجهة اسرائيل واعتداءاتها، حملتهم إلى التحول عن تأييد الفلسطينيين وحلفائهم، والتطلع إلى يوم يرتفع فيه عنهم كابوس هذه الممارسات، فضلاً عن كابوس الاعتداءات الاسرائيلية على مدنهم وقراهم، والتي تكثفت كماً ونوعياً تحت ستار الرد على عمليات الفدائيين الفلسطينيين، والتي تركزت بصورة أساسية في اطلاق صواريخ «الكاتيوشا» عبر الحدود اللبنانية على المستعمرات الاسرائيلية في الجليل الأعلى بشمالي فلسطين، فيأتي الرد

قذائف تمطرها الطائرات والمدفعية الاسرائيلية فوق رؤوس سكان القرى اللبنانية التي انطلقت منها « الكاتيوشا » أو من جوارها. وهكذا حوصر أبناء الجنوب لا سيما أبناء قراه الأمامية بين نار الممارسات السلبية من الفلسطينيين وبعض حلفائهم من جهة ونار الغارات الاسرائيلية وقصف مدفعيتها من جهة ثانية.

وفي ظل هذا المناخ من انعدام الثقة بين حركة المقاومة الفلسطينية وحلفائها من جهة، وجماهير الشعب من جهة ثانية، وانعدام التنسيق الجدي بين المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وبينهما وبين القوات السورية الموجودة في لبنان، بدأ الاجتياح الاسرائيلي في اليوم السادس من شهر حزيران (يونيو) ١٩٨٢ وبدأت غارات الطيران الاسرائيلي، وبدأ زحف المدرعات والمشاة الاسرائيلية باتجاه لبنان. جوبه العدوان بمقاومة ضارية في بعض المواقع، ولم يواجه بأية مقاومة في مواقع أخرى، مدن وقرى بكاملها سلمت دون اطلاق رصاصة دفاع واحدة، ومدن وقرى أخرى جرت فيها معارك مواجهة ضارية. الوضع السياسي البائس لقوى المواجهة على الأرض، وكذلك أوضاعها العسكرية العديمة التنسيق، انعكست فوراً على مستوى ونوعية المواجهة، مما أفقد أعمال المواجهة البطولية المتفرقة لأفراد هذا الفصيل أو ذاك من مداها الفاعل وتناثرت محصلتها في فراغ انعدام الخطة المركزية للمواجهة المشتركة. فكان من الطبيعي والحالة هذه أن يصل الجيش الاسرائيلي إلى مشارف بيروت بعد أقل من ثمانية أيام على بدء عملية الاجتياح، بعدما كان فيليب حبيب، مبعوث الرئيس الأميركي رونالد ريغان قد نجح في التوصل إلى اتفاق لوقف اطلاق النار بين القوات الاسرائيلية والجيش السوري بعد خمسة أيام فقط من المواجهة بينهما التي كانت قد بدأت في

اليوم الثاني للاجتياح، أي في السابع من شهر حزيران (يونيو) وتوقفت، بناءً لاتفاق فيليب حبيب، في الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ١١ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، وفق تصريح ناطق رسمي سوري قال فيه: « لدى استقبال الرئيس حافظ الاسد المبعوث الأميركي السيد فيليب حبيب لمناقشة الأفكار التي طرحها والمتعلقة بوقف النار، أوضح الرئيس أن سوريا توافق على وقف النار على أساس الانسحاب الاسرائيلي الشامل من الأراضي اللبنانية وأعطيت التوجيهات لجميع التشكيلات السورية الموجودة في لبنان لتطبيقه اعتباراً من الساعة الثانية عشرة ظهر هذا اليوم الموافق ١١ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ »[١].

وقد أوضحت سوريا أن موافقتها على وقف اطلاق النار جاءت بعد حصولها على وعود وتأكيدات أميركية، بأن هذه الخطوة ستؤدي إلى حصر العدوان بعملية تأديبية ليس أكثر. ورأى البعض أن اسرائيل اضطرت للموافقة على قرار وقف اطلاق النار مع سوريا نتيجة الضغوط السوفياتية على الولايات المتحدة الأميركية، وتهديد موسكو بأنها ستتصرف وفقاً لنص ومضمون معاهدة الصداقة التي تربطها بسوريا إذا ما استمر الهجوم الاسرائيلي على القوات السورية. كما قيل أيضاً أن سوريا فضلت الخروج من حرب لم تحدد هي توقيتها ومكانها. غير أن اسرائيل وإن أعلنت من جانبها في الوقت نفسه وقف اطلاق النار مع سوريا. فقد شددت على أن الاتفاق ليس مع منظمة التحرير الفلسطينية التي ستستمر العمليات ضدها[٢].

وبالفعل استمرت الحرب وحوصرت بيروت التي تجمعت فيها قيادات المقاومة الفلسطينية وحلفائها من الأحزاب اللبنانية، وكذلك كوادرها ومعظم عناصرها المقاتلة. ومع بدء حصار بيروت، كانت الفائدة قد

بدأت تظهر من تجارب ودروس أيام المواجهة المعدودة في الجنوب بكل سلبياتها وايجابياتها، فتراصت الصفوف من جديد تحت وطأة شراسة الهجوم، والتقى خلف متراس الدفاع عن بيروت عناصر أمل والشيوعيين وسواهم الذين كانوا بالأمس القريب يتنازعون في بعض قرى الجنوب، وجمعت المصيبة بينهم. وكذلك توثقت مجدداً عرى لحمة مقاتلي حركة المقاومة الفلسطينية، وغدت بيروت في شطرها الغربي كتلة دفاع متراصة، تناست كل القروح والجروح وراحت تبحث عن الجهد المفيد الذي ينقذ أطفالها ونساءها وشيوخها، وتطلعت بأمل وثقة إلى المقاومين الذين يتصدون لهجمات الجيش الاسرائيلي على مداخلها الجنوبية. وكانت لهؤلاء المدافعين وقفة دفاع بطولية اعترف بها العدو والصديق على حد سواء، وكذلك كان لصمود سكان بيروت الغربية تحت وابل القذائف الاسرائيلية وقع طيب أثار عطف واعجاب العالم، وعزز الثقة بالنفس لدى المدافعين عن بيروت، ووطد وحدتهم خلف متاريس المواجهة في آخر خطوط دفاعهم...

منذ اليوم الأول لبدء عملية الاجتياح، وفيما كانت الطائرات الحربية الاسرائيلية (الأميركية الصنع) تقصف التجمعات السكنية في بيروت وبعض ضواحيها، تولد انطباع عفوي لدى الناس بأن هذه الغارات غير الاعتيادية والمتواصلة ليل نهار ربما كانت التمهيد العملي لدخول القوات الاسرائيلية إلى بيروت بالذات هذه المرة. وتعزز هذا الانطباع وأطبقت صورته على أذهان العديدين مع التقدم السريع لقوات الجيش الاسرائيلي التي بلغت بعبدا والحدث والشويفات على أبواب بيروت في ١٣ حزيران (يونيو) أي بعد سبعة أيام من بدء عملية الغزو، وهذا الانطباع لدى المراقبين، وعامة الشعب، والمتصدين للغزاة في خلدة على مدخل بيروت

الجنوبي، لم يكن يحد من هواجسه السوداء المخيفة إلا الثقة العفوية المطلقة بأن الاتحاد السوفياتي لن يسمح بإبادة جماعية في بيروت الغربية للبنانيين والفلسطينيين، وهو لا بد سيبادر إلى اتخاذ موقف تاريخي حازم يضع حداً للغزاة وعدوانهم، ويعيدهم من حيث أتوا، تماماً كما حصل في العام ١٩٥٦ عندما وجه الاتحاد السوفياتي إنذاره الشهير إلى المعتدين الاسرائيليين والفرنسيين والانكليز في عدوانهم الثلاثي على مصر. فهل برر الاتحاد السوفيات هذه الثقة العفوية عند قطاعات واسعة من أبناء الشعبين اللبناني والفلسطيني؟ مما لا شك فيه أن هناك اختلافاً كبيراً بين ظروف عدوان ١٩٥٦ وظروف عدوان ١٩٨٢. ففي العام ١٩٥٦ كانت مصر كلها تقف جيشاً وشعباً وقفة واحدة في وجه الغزاة خلف قيادة الرئيس عبد الناصر. وكانت الأمة العربية كلها تساند مصر وتدعمها، واتخذت موقفاً موحداً في وجه المعتدين. بينما في العام ١٩٨٢ اختلفت الظروف اللبنانية والعربية وتباينت، فلبنان البلد المعتدى عليه يتعاطف قسم من أهله وأحزابه مع المعتدين الاسرائيليين إلى حد التنسيق المسبق، وليس هناك وقفة واحدة في وجه الغزاة خلف قيادة وطنية واحدة تتصدى للعدوان ولا تضامن عربي عملي فاعل، مما سهل على اسرائيل حرية التحرك في ظل انعدام الشروط والمعطيات التي كانت سائدة في العام ١٩٥٦، عندما اطلق الاتحاد السوفياتي إنذاره الشهير للمعتدين على مصر، مما حدا بالرئيس الأميركي أيزنهاور إلى طلب انسحاب قوات العدوان الثلاثي ووقف عدوانهم على مصر. غير أن الظروف اللبنانية والعربية التي حالت دون توجيه إنذار سوفياتي بالتدخل الفعلي الحاسم لردع المعتدين، لم تمنع الاتحاد السوفياتي من ممارسة دوره في دعم حلفائه على الساحة اللبنانية في مواجهة المعتدين وحماتهم في واشنطن، عبر السبل الدبلوماسية والسياسية والاعلامية، وكل ما تيسر له من قنوات يمكن

عبرها ممارسة الضغوط على اسرائيل، ومنعها من تحقيق الأهداف التي من أجلها قامت بعملية اجتياح لبنان وأطلقت عليها اسم «عملية سلامة الجليل». فقد حاول حكام تل أبيب في بداية الأمر أن يوهموا الرأي العام المحلي والعالمي، أن عمليتهم ضد مواقع الفلسطينيين في لبنان، إنما هي رد على محاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في لندن شلومو آرغوف، وأنها ترمي إلى ابعاد الفدائيين الفلسطينيين مسافة ٤٠ ـ ٤٥ كلم شمالي الحدود الاسرائيلية مع لبنان. ولكن محاولة اغتيال آرغوف في لندن لم تكن في الحقيقة إلا الستار الذي استخدمته اسرائيل لتنفيذ مخططات معدة سلفاً للبنان وقبل محاولة الاغتيال بزمن بعيد. ففي أواخر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ دعا مناحيم بيغن مجلس الوزراء الاسرائيلي للانعقاد في منزله، لأنه كان مصاباً بكسر في وركه، و«خلال ذلك الاجتماع أطلع بيغن مجلس الوزراء على خطة العملية العسكرية في لبنان «الصنوبرة الكبيرة» وتولى شارون وزير الدفاع الحديث في ذلك الاجتماع عن العملية المذكورة وشرحها تفصيلياً على خارطة عليها سهم أسود يشير إلى طريق بيروت دمشق، تساءل يوسف بورغ وزير الداخلية، وهل من الواجب التقرير الآن؟ أجابه بيغن «نعم إنه لأمر ضروري لأن الخطة قد توضع موضع التنفيذ في أية لحظة» [٣].

ويروي الكاتب الصحافي الاسرائيلي شيمون شيفر في كتابه كرة الثلج أن شارون قال لبشير الجميل قائد القوات اللبنانية في لقاء عقد بينهما في بيروت في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢ (أي قبل الاجتياح بخمسة أشهر) قال له: «عندما يقوم الجيش الاسرائيلي بالتحرك ضد المخربين فإنه سيوجه إليهم ضربة تضمن زوال الوضع الذي ساد في أعقاب عملية الليطاني ١٩٧٨ إلى غير رجعة، إننا سنجتث بنية الارهاب التحتية في

لبنان من جذورها، لا نية لدينا للعمل ضد السوريين على الاطلاق، لكن إذا ما تم توجيه ضربة نهائية إلى المخربين وأقدمتم أنتم على استغلال هذه الفرصة التاريخية للسيطرة على بيروت كلها، ومهدتم بذلك لانتخابات حرة فإن النتيجة يمكن أن تكون خروج السوريين بالطرق السياسية، وهو ما تفضله واشنطن أيضاً. على أية حال وما دام السوريون يرفضون الخروج من لبنان، فإنكم تستطيعون أن تقيموا لأنفسكم دولة حرة، تتأسس على تواصل إقليمي في الجنوب في المناطق التي سنحتلها، وفي المناطق التي تسيطرون عليها اليوم وفي عاصمتكم التي ستحرر على أيديكم» [٤]

وفي الرابع من شهر حزيران (يونيو) ١٩٨٢ أي قبل بدء الاجتياح بيومين فقط أعلن وزير الخارجية الاسرائيلي إسحق شامير «أن اتفاقات كمب دايفيد عطلت بدرجة كبيرة الوزن السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكن هذا لا يكفي بل يجب أن يتم إلغاء كلي للمنظمة ككيان سياسي وارهابي لأن ذلك فقط هو الذي يهيء الأساس لتقدم العملية التي بدأت في كمب دايفيد ويسمح بتوقيع اتفاقات سلام مع باقي جيران اسرائيل» [٥].

هذه الأهداف الواضحة التي يمكن استخلاصها من كلام كل من بيغن وشارون وشامير، والتي حاولت اسرائيل طمسها والتعتيم عليها في الأيام الأولى للاجتياح، لم تكن خافية أبداً على موسكو التي طالما حذرت من خطر استغلال اسرائيل للأحداث في لبنان، ومن مخططاتها المعادية لهذا البلد، ومن إمكانية قيامها بعدوان عسكري واسع النطاق في لبنان، يرمي إلى أهداف متعددة آنية وبعيدة. فقبل بدء عملية الاجتياح وتعقيباً على غارات الطيران الاسرائيلي على بعض المواقع في بيروت يومي ٤ و ٥ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ قالت صحيفة «البرافدا» السوفياتية الناطقة

بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، « إن العمليات العسكرية الاسرائيلية تهدف إلى سحق المقاومة الفلسطينية وإبعادها واضعاف سوريا وإقامة نظام في لبنان يتعاون مع تل أبيب » [٦] .

وانطلاقاً من تحديد موسكو المسبق لأهداف العدوان الاسرائيلي، وهي الأهداف التي أعلنتها اسرائيل عملياً في وقت لاحق، وبالترافق مع تقدم قواتها داخل الأراضي اللبنانية نحو العاصمة بيروت وعلى لسان مناحيم بيغين الذي وعد بأن تهدأ اسرائيل أربعين عاماً ويتم توقيع اتفاق سلام مع لبنان وأن يقام حلف ثلاثي يضم اسرائيل ومصر ولبنان، وضعت موسكو أمامها مهمة دعم المتصدين للعدوان من أجل احباط أهدافه. فإضعاف سوريا وهو الهدف الثاني للعدوان، لم تتمكن اسرائيل من تحقيقه، لأن الاتحاد السوفياتي حذر بأنه سيضع مفاعيل معاهدة الصداقة التي تربطه مع سوريا موضع التنفيذ. وهكذا اضطرت اسرائيل للتخلي عن أحد أبرز أهداف عدوانها، وركزت على الهدفين الآخرين المتمثلين بسحق المقاومة الفلسطينية وإقامة حكم في لبنان متعاون مع اسرائيل. فهل نجحت اسرائيل في تطلعاتها وكيف تصرف الاتحاد السوفيات حيال ذلك؟

ركز الاتحاد السوفياتي جهده على كشف أهداف العدوان وإدانة المتعدين والمطالبة بوقف عدوانهم وانسحابهم الفوري من الأراضي اللبنانية التي احتلوها. كما كثف حملته الاعلامية وجهوده الدبلوماسية لتعبئة الرأي العام العالمي ضد المعتدين، وكشف الدور الأميركي في مساندتهم ودعمهم خلافاً لكل مبادىء القانون الدولي وميثاق منظمة الأمم المتحدة. وفي إطار هذه السياسة أدان الاتحاد السوفياتي في جلسة مجلس الأمن الدولي بتاريخ ٧ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ العدوان الاسرائيلي، وطالب

بانسحاب الغزاة فوراً. وأقر مجلس الأمن الدولي في جلسته تلك وبإجماع أعضائه القرار رقم ٥٠٨ القاضي بالانسحاب الإسرائيلي فوراً من لبنان. واضطرت الولايات المتحدة الأميركية أمام الإدانة الشاملة للعدوان إلى الموافقة على القرار المذكور. غير أن اسرائيل التي تعرف حقيقة الموقف الأميركي تجاهها، لم تكترث للقرار الدولي، وتابعت عدوانها بدعم ومساندة الولايات المتحدة الأميركية التي لم يغير موقفها التكتيكي المناور في مجلس الأمن الدولي من سياستها العملية في دعم اسرائيل واجتياحها للبنان، وهي أي الولايات المتحدة الأميركية وإن اضطرت تحت ضغط اجماع الرأي العام العالمي إلى الموافقة على القرار ٥٠٨، غير أنها تعرف كيف تحبطه وتمنع المنظمة الدولية من وضعه موضع التنفيذ. وحتى الموقف التكتيكي المناور لن يطول التزام واشنطن الشكلي به. فبعد ثلاثة أيام فقط أي في العاشر من حزيران (يونيو) ١٩٨٢ استخدمت الولايات المتحدة الأميركية في مجلس الأمن الدولي حق النقض (الفيتو) ضد مشروع قرار قدمته اسبانيا يطالب مجدداً بأن تسحب اسرائيل قواتها من لبنان فوراً ومن دون شروط. وباستخدامها حق النقض كشفت واشنطن كل الأقنعة عن حقيقة موقفها المؤيد للاجتياح والضالع مع الغزاة في عدوانهم. وهذا ما كان الاتحاد السوفياتي قد كشفه مراراً، وأكد عليه تكراراً موضحاً حقيقة الدور الأميركي في الاجتياح الاسرائيلي للبنان. فقد اتهمت وكالة تاس السوفياتية الرسمية منذ اليوم الأول للاجتياح اسرائيل والولايات المتحدة الأميركية « بشن الحرب الخامسة ضد العرب، وأعلنت، أن العدوان الاسرائيلي كان موضوع محادثات في إطار الاتفاقات العسكرية السرية بين اسرائيل والولايات المتحدة » [٧] . وقالت صحيفة النجم الأحمر الناطقة باسم الجيش السوفياتي « إن واشنطن وقعت على بياض لاسرائيل لتهاجم لبنان، وإن عملية الاجتياح أعدت بالتعاون مع الولايات

المتحدة [٨] . وقالت صحيفة « البرافدا » في هذا الصدد : « في الوقت الذي يراق فيه دم الشعب العربي لا تكتفي الادارة الأميركية بعدم إدانة ذلك ، بل على العكس تحاول بشتى السبل تبرير ساحة حلفائها الاسرائيليين الذين يزرعون الموت والدمار في الأرض اللبنانية المعذبة » [٩] ، وتابعت تقول: « إن الولايات المتحدة تتحمل المسؤولية المباشرة لاشتراكها في الحرب الاجرامية في لبنان ، كما تتحمل مسؤولية العدوان الاسرائيلي ولن يتمكن ريغان بأي كلام من تبرير هذه المشاركة الدامية ، ومن غسل العار الذي ألحقه بالولايات المتحدة تأييد إدارة ريغان الفعلي لعدوان اسرائيل الهمجي » [١٠] .

وواصلت موسكو حملتها الاعلامية والدبلوماسية المكثفة ضد المعتدين وحلفائهم في واشنطن ، موظفة كل ثقلها السياسي والمعنوي لوقف الاجتياح وإحباط أهدافه ، وبعدما تأكد أن الموقف الأميركي سيبقى عقبة تحول دون تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي ووفاء المنظمة الدولية لميثاقها والتزاماتها ، تابع الاتحاد السوفياتي جهوده ونشاطه على أكثر من صعيد ، وعبر أكثر من قناة ، وأصدرت الحكومة السوفياتية في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ بياناً مسهباً كشفت فيه مجدداً أهداف العدوان والدور الأميركي فيه ، وأكدت مجدداً على الموقف السوفياتي محذرة اسرائيل من مغبة مواصلة عدوانها على لبنان. وقد نشرت وكالة تاس هذا البيان الذي جاء فيه :

« يتواصل عدوان اسرائيل على لبنان ، وعلى رغم وقف اطلاق النار المعلن فإن القوات الاسرائيلية تواصل العمليات الحربية ضد اللبنانيين والفلسطينيين ، وتفيد الأنباء أنه يجري التحضير للهجوم على العاصمة اللبنانية بيروت .

وتمارس اسرائيل عمل إبادة اجرامياً في لبنان ، وتقوم قوات المعتدي في الواقع ، ومن دون أن ترحم أحداً بقتل جميع الفلسطينيين ، كما ويلقى آلاف اللبنانيين مصرعهم ، وتحاول قوات الاسرائيليين أن تغرق بالدم نضال الشعب الفلسطيني من أجل حريته واستقلاله .

ويثير الغضب في الاتحاد السوفياتي ، وكذلك في العالم أجمع ، الطغيان الوقح لاسرائيل ، ومن الجلي أن العدوان الاسرائيلي ينفذ ضمن إطار ما يسمى بالتعاون الاستراتيجي بين تل أبيب وواشنطن .

ويتعرض مصير لبنان للخطر كدولة مستقلة وموحدة ، ويتعرى أكثر فأكثر مخطط تقسيم لبنان ، ووضع ما يسمى بالقوات متعددة الجنسيات في الأراضي اللبنانية والتي تشكل القوات الأميركية العصب الرئيسي لها .

إن أعمال اسرائيل وحماتها تولد خطراً على الدول العربية الأخرى أيضاً . ويبدو الهدف نفسه واضحاً في إخضاع الأقطار العربية الواحد تلو الآخر لإملاء الارادة الامبريالية علماً بأنه يجري الرهان عندئذ على تفرق شمل العرب وعلى أنه لن يكون في استطاعتهم توحيد الجهود لإغاثة الضحية الجديدة للعدوان .

إن مصلحة السلام في الشرق الأوسط والمصالح الواسعة للأمن الدولي تتطلب اتخاذ تدابير فعالة وعاجلة لإيقاف العدوان ، وايقاف اطلاق النار ، وسحب القوات الاسرائيلية من الأراضي اللبنانية ، وهو ما طالبت به القرارات التي أصدرها مجلس الأمن الدولي بالاجماع والتي لا بد من تنفيذها وهو ما يعتبر اليوم أمراً حيوياً .

إن الاتحاد السوفياتي يقف فعلاً وليس بالاقوال إلى جانب العرب ،

ويعمل على أن يخرج المعتدي من لبنان، وكان ينبغي على من يوجه حالياً سياسة اسرائيل أن لا ينسى بأن الشرق الأوسط منطقة تقع بالقرب من الحدود الجنوبية للاتحاد السوفياتي، وأن الأحداث فيه لا بد وأن تمس مصالح الاتحاد السوفياتي وأننا نحذر اسرائيل في هذا الصدد...

وتطرح الحرب، التي تشنها اسرائيل في لبنان بكل حدة، مسألة الوضع في الشرق الأوسط عموماً، والذي تحوّل الآن إلى بؤرة للتوتر الدولي أكثر خطورة، وتطالب الحكومة السوفياتية بايقاف هذا العدوان الوقح، وسيعمل الاتحاد السوفياتي كل ما في وسعه لاحلال السلم الوطيد في هذه المنطقة»[١١].

وانتقدت وكالة تاس في تعليق لها الدول العربية التي لم تقدم الدعم الكافي للفلسطينيين وقالت «إن اسرائيل استغلت واقع أن عدداً من الدول العربية لا يكترث بما يجري في لبنان»[١٢]. واعتبر كلام الوكالة هذا اشارة سوفياتية إلى الواقع العربي السلبي الذي يتيح للولايات المتحدة الأميركية أن تتمادى في دعمها لحلفائها الاسرائيليين دون خوف من أية ردة فعل عربية جماعية (قطع العلاقات الدبلوماسية مثلاً أو وقف امدادات النفط العربي إلى الولايات المتحدة الأميركية إلخ...) ولربما كانت فيه اشارة أيضاً إلى أحد العوامل التي تحول دون عمل حاسم يردع المعتدين. ومن هنا كان تأكيد أندريه غروميكو، وزير الخارجية السوفياتية في نيويورك، «بأنه لو تحركت واشنطن قيد أنملة لوقف عمليات الاعتداء لما تابعت تل أبيب تحدي الأمم المتحدة»[١٣]. وعلقت موسكو على دعوة اسرائيل إلى تشكيل قوة متعددة الجنسيات ترابط في لبنان بقولها:

«أوضح الاقتراح الاسرائيلي الصفيق حول مرابطة ما يسمى «القوات المتعددة الجنسيات»، التي يراد أن يتكون جزؤها الرئيسي من القوات الأميركية في الأراضي اللبنانية التي احتلتها الصقور الصهاينة، أوضح من جديد لصالح من عملت تل أبيب إذ شنت عدوانها ضد لبنان. وفسر تصرف واشنطن التي لم توقف توريدات الأسلحة والذخائر للمعتدي، بل فعلت كل ما في وسعها بغية المماطلة في اتخاذ القرار الذي يدين تل أبيب في هيئة الأمم المتحدة - أولاً - ومن ثم احباط اتخاذه، وطمحت الادارة الأميركية إلى أن تضمن لاسرائيل أقصى توغل ممكن في عمق الأراضي اللبنانية، بحيث لا تصفي مقاتلي المقاومة الفلسطينية عملياً فحسب بل وكذلك تهيىء رأس الجسر لمرابطة القوات المسلحة الأميركية في الأراضي الكثيرة المعاناة لهذه البلاد العربية»[١٤].

في هذا الوقت كانت بيروت المحاصرة تعزز صمودها في وجه محاصريها، فيما غارات الطيران الاسرائيلي وحمم مختلف أنواع الأسلحة الإسرائيلية تتساقط عليها بصورة يومية، بما في ذلك بعض أنواع السلاح المحرم دولياً، كالقنبلة الفراغية والعنقودية وبعض أنواع الأسلحة الكيمائية، ولم تجدِ نفعاً البيانات والنداءات السوفياتية، فالعدوان متواصل والأبرياء يتساقطون بالعشرات يومياً داخل الشطر الغربي من بيروت المحاصرة، و«الفيتو» الأميركي يعطل كل قرارات مجلس الأمن الدولي، ويكبل الارادة الدولية، والدعم الأميركي متواصل في زخمه، بينما حركة إدانة المعتدين وحماتهم التي يقودها الاتحاد السوفياتي تتسع لتشمل العالم بأسره. وشهدت الجمعية العامة لهيئة الأمم يوم ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ أضخم حركة احتجاج ومقاطعة في تاريخها، وذلك حين غادر قاعتها أكثر من مائة سفير ومندوب يمثلون دولاً اشتراكية وعربية

وإفريقية وغير منحازة احتجاجاً على وجود رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن الذي يغزو جيشه لبنان منذ ١٤ يوماً [١٥] .

وبتأثير حملة الإدانة والشجب العالمية هذه والتي شملت قطاعات واسعة من الشعب الأميركي وفي إسرائيل ذاتها، انقسم الرأي العام داخل اسرائيل، وداخل الحكومة، والكنيست، وقامت المظاهرات تطالب بعودة الجنود الإسرائيليين من لبنان، وتعددت حالات رفض الانصياع داخلَ الجيش الذي عجز عن تحقيق انتصار حاسم (خلال أربعة أيام على الأكثر كما وعد شارون) على مقاومة شعبية، فارتبكت القيادة الحاكمة في تل أبيب وبدأت بالتخلي عن بعض أهدافها، فأصبحت تقبل أن يخرج الفلسطينيون من بيروت ومعهم أسلحتهم الفردية، ولم تعد تصر على اعتقال قادة منظمة التحرير الفلسطينية وإعدامهم... وفي واشنطن لم يسلم الوضع الحكومي من تأثيرات حملة الادانة العالمية، فدخل العديد من مستشاري الرئيس الأميركي ووزرائه في خلاف مع وزير الخارجية الكسندر هيغ المتشدد في دعم إسرائيل، وتحقيق أهدافها كاملة في اجتياحها للبنان، فاضطر هذا «الصقر» إلى الاستقالة في ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، بينما بات مبعوث الرئيس الأميركي فيليب حبيب على عجلة من أمره لتحقيق المهمة التي انتدب إليها، وهي التوصل إلى اتفاق لمغادرة رجال المقاومة الفلسطينية بيروت، حتى ولو اضطر للموافقة على بعض الشروط الفلسطينية في هذا الاطار... فالوقت بدأ يعمل ضد المعتدين وحماتهم وحملة الادانة العالمية الشاملة التي يقودها الاتحاد السوفياتي بدأت تتكثف مفاعيلها وتتسارع نتائجها... وها هي جريدة «البرافدا» الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي بعد تحليلها لمجريات العدوان وخلفياته تصل وبصورة مبكرة إلى الاستنتاج «بأن عدوان إسرائيل

يتحول بالنسبة لها إلى هزيمة سياسية ومعنوية كبرى» [١٦] .

غير أن هذا المسار السياسي للقضية، لم يروِ غليل أولئك الذين انتظروا وراهنوا على تدخل سوفياتي فعلي بوقف الاجتياح ويعيد جيوشه من حيث أتت، وارتفعت بعض الأصوات المشككة والمنتقدة للموقف السوفياتي، بعضها من موقع الصداقة وبعضها الآخر عن سوء نية. ولكن كيف يمكن للاتحاد السوفياتي أن يتدخل مباشرة في لبنان إذا كانت سلطات لبنان الشرعية لا تريد ذلك ولم تطلبه؟ وكيف يمكنه التدخل في وقت تصمت فيه كل الجبهات العربية المحاذية لإسرائيل؟ وتساءلت الصحافة السوفياتية في هذا السياق عن الحكومات العربية التي طلبت المساعدة من الاتحاد السوفياتي ولم تجدها. ووجهت صحيفة البرافدا النقد إلى السلطة اللبنانية، وقالت إنها تضغط على المقاومة الفلسطينية لانتزاع تنازلات منها لصالح إسرائيل [١٧] . وأعربت وكالة تاس عن أسفها لموقف القادة اللبنانيين الذين تحت ضغوط الولايات المتحدة الأميركية يضغطون على المقاومة الفلسطينية لانتزاع تنازلات منها لصالح إسرائيل [١٨] .

أشارت وكالة أنباء نوفوستي في تعليق لها بصورة غير مباشرة إلى العراقيل التي حالت دون خطوة عملية سوفياتية بقولها: «لقد حذر الاتحاد السوفياتي مراراً بشأن الخطر المحدق وبشأن الإعداد الإسرائيلي للتدخل في لبنان بغية توجيه الضربة إلى حركة المقاومة الفلسطينية وسوريا وسيادة بلد عربي، وهو أكد مراراً الأهمية الحيوية لتوحيد جميع جهود البلدان العربية في هذه اللحظة الحرجة من أجل مجابهة المعتدي بموقف موحد وإرادة موحدة» [١٩] . وأضافت «إن هذا الموقف الموحد، والجبهة العربية الموحدة يمثلان العامل الرئيسي في مجابهة المخططات الاجرامية للإمبريالية والصهيونية في لبنان، والشرق العربي بأسره. إن قيام مثل هذه

الجبهة ييسر على أصدقاء وحلفاء العرب تقديم المساعدة الفعالة لهم في حين أن غياب هذه الجبهة يهيء الظروف لكي يصبح أي قطر عربي آخر بعد لبنان غنيمة سهلة للإمبريالية والصهيونية »[٢٠].

وأشارت إلى الدعم الذي قدمه السوفيات للعرب لرد العدوان الإسرائيلي حيث أن الأسلحة السوفياتية في أيدي المحاربين المصريين والسوريين قد بددت في عام ١٩٧٣ الأساطير حول التفوق العسكري الإسرائيلي الدائم.

وقالت « ... والآن، فإن البعض يحاول ضرب ستار من الصمت حول مسألة غياب هذا العامل الرئيسي ـ وحدة الصف العربي ـ وصرف الانتباه عنه بالكلام على « عدم كفاية المساعدة » السوفياتية، إنها ليست إلا محاولة دنيئة لتشويه الحقائق »[٢١].

ولدى استقباله الوفد الوزاري العربي الذي ضم رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية فاروق القدومي ووزير الخارجية المغربي محمد بوسته، ووزير الخارجية الكويتي الشيخ صباح الأحمد الصباح، في موسكو في ٥ تموز (يوليو) ١٩٨٢، أكد وزير الخارجية السوفياتي أندريه غروميكو، أن بلاده تستخدم ثقلها ونفوذها من أجل التوصل إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان[٢٢]. وهذا ما أكده أيضاً رئيس الوزراء السوفياتي نيقولاي تيخونوف لدى استقباله في الكرملين لوفد لجنة وزراء خارجية دول عدم الانحياز الخاصة بالقضية الفلسطينية، مضيفاً التأكيد على أن الاتحاد السوفياتي سوف يواصل، مستقبلاً أيضاً، تقديم المساعدة والدعم إلى الشعبين الفلسطيني واللبناني وإلى كل من يقاوم المعتدي[٢٣].

وأعادت تاس التأكيد مجدداً على أحد جوانب أهداف إسرائيل في لبنان بقولها: « إن العدوان الإسرائيلي على لبنان يؤكد الأطماع التوسعية للزعماء الصهاينة التي تهدف إلى مد حدود إسرائيل الكبرى شمالاً حتى نهر الليطاني جنوب لبنان »[٢٤].

وأشارت الوكالة إلى أن الصهيونية، التي ولدت في نهاية القرن الماضي كتيار سياسي يعبر عن مصالح البرجوازية اليهودية، كانت تهدف، ضمن ما كانت تريد تحقيقه من أهداف كبرى، إلى إقامة دولة يهودية لها نفس الحدود التي جاءت في التوراة.

وانتهت « تاس » إلى أنه « طبقا للمفاهيم التقليدية للزعماء الصهاينة، فإنه يتعين أن تمتد حدود إسرائيل الشمالية عبر نهر الليطاني أي أن إسرائيل الكبرى ينبغي أن تشمل جنوب لبنان وهو دولة عربية ذات سيادة »[٢٥].

وعندما بات واضحاً أن المبعوث الأميركي فيليب حبيب قد أتم صيغة الاتفاق الذي جاء من أجله في مهمته، والخاص بخروج رجال المقاومة الفلسطينية من بيروت، قالت « البرافدا » إن هذا كله لا يمكن أن يصرف الأنظار عن جوهر المشكلة، أي انسحاب المعتدين من لبنان فوراً ومن دون أية شروط. وذكَّرت البرافدا بأحد العوامل الرئيسية التي مكنت إسرائيل من مواصلة عدوانها قائلة: « إن استمرار الغزو الإسرائيلي للبنان يعود بوجه خاص إلى انقسام الدول العربية وعجزها عن اتخاذ موقف موحد في مواجهة الأعمال التوسعية لاسرائيل »[٢٦]. وقبل أن تبدأ عملية الانسحاب الفلسطيني من بيروت، كانت وكالة أنباء تاس قد قالت إن إسرائيل تستغل الانتخابات الرئاسية لممارسة ضغوط سياسية على النواب

اللبنانيين بهدف التوصل إلى تعيين رئيس يعقد اتفاقاً بين لبنان وإسرائيل (٢٧).

وحول بدء عملية مغادرة رجال المقاومة الفلسطينية لبيروت تنفيذاً للاتفاق الذي توصل إليه فيليب حبيب في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٨٢، قالت موسكو: « إن الفلسطينيين يغادرون بيروت بكرامة، وإن اسرائيل التي عجزت عن فك طوق الصمود البطولي للفلسطينيين واللبنانيين والسوريين لم تتمكن من كسب الحرب ضدهم » (٢٨)، أما عن وصول القوات الأميركية إلى بيروت، والتي كان الرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف قد حذر الرئيس الأميركي من إرسالها في الثامن من شهر تموز (يوليو)، فقد اتضح أن الولايات المتحدة لم تكترث للتحذير المذكور وأرسلت قواتها إلى لبنان بناءً للاتفاق الذي أنجزه فيليب حبيب والمتعلق بانسحاب مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت. قالت جريدة الأزفستيا « إن مشاة الأسطول الأميركي الذين أرسلوا إلى لبنان قد أقاموا رأس جسر بالقرب من حدود الاتحاد السوفياتي وإن الحكومة السوفياتية لا يسعها أن تظل غير مكترثة بذلك » (٢٩)

وقال بافيل ديمشينكو نائب رئيس تحرير « البرافدا » في تعليق وزعته وكالة أنباء نوفوستي إن إرسال ٨٠٠ من جنود المشاة الأميركيين إلى لبنان « يزيد من حدة المواجهة في العلاقات بين الدولتين العظميين، وهي علاقات كانت اكفهرت قبل ذلك » (٣٠).

وقال ديمشينكو « إن إنزال المشاة في لبنان الذي تم بالرغم من المعارضة المعروفة من موسكو لهذه الخطوة.. هو عمل غير ودي جديد تجاه الاتحاد السوفياتي، ويجب أن تؤخذ عواقبه بعين الاعتبار » (٣١).

وقال « إن المشاة الذين تسلموا الاشراف على ميناء بيروت كجزء من القوات الدولية المشرفة على انسحاب الفدائيين الفلسطينيين من العاصمة اللبنانية، قد أقاموا « رأس جسر » بالقرب من الحدود السوفياتية » (٣٢).

وأضاف ديمشينكو يقول « إن الحكومة السوفياتية لا يسعها أن تظل غير مكترثة بذلك » (٣٣).

أما عن انسحاب المقاتلين الفلسطينيين من بيروت فقد قالت البرافدا إن منظمة التحرير الفلسطينية تغادر بيروت دون أن تهزم، ورغم أن إسرائيل تعد « سيدة الموقف » فإنها قد منيت بهزيمة معنوية وسياسية (٣٤).

وأشارت الصحيفة إلى أن منظمة التحرير « صمدت أمام زحف المعتدي، وكسبت في هذه الحرب اعترافاً دولياً حقيقياً » (٣٥)، وأضافت « إن التدخل الإسرائيلي أثار من جديد وبالحاح مسألة الموقف في الشرق الأوسط في مجملها » (٣٦)، وقالت « إن التجربة التاريخية أظهرت أن التسوية الشاملة هي الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى إقرار السلام في الشرق الأوسط » (٣٧).

وأعلنت أن الاتحاد السوفياتي « قد اقترح عقد مؤتمر دولي بهذا الشأن، وهو على استعداد للعمل في هذا الاتجاه والتعاون بصدق مع كل الذين يريدون المساهمة في إقرار سلام فوري في الشرق الأوسط » (٣٨).

وحول المبادرة الخاصة بأزمة الشرق الأوسط، والتي سارع الرئيس الأميركي ريغان إلى إعلانها في اليوم التالي لمغادرة آخر دفعة من المقاتلين الفلسطينيين لبيروت فقد تساءلت صحيفة الأزفستيا عن « الأسباب التي حدت بالرئيس ريغان للتقدم بمبادرته في اللحظة الراهنة بالذات؟ فمن

جهة انقلبت مؤازرة المعتدي إلى خسارة معنوية ـ سياسية جوهرية بالنسبة لأميركا في العالم العربي. فالصديق في وقت الشدة صديق حقيقي لكن العدو في وقت الشدة عدو حقيقي أيضاً. وهذا العدو بالذات هو الذي رآه العرب في شخص أميركا، ولذا سارعت إلى ترميم سمعتها السياسية بشكل ما في الشرق العربي وبين البلدان غير المنحازة عموماً»[٣٩].

«ومن جهة أخرى لم يكن الصف العربي يوماً بمثل هذا التمزق والضعف كالذي تجلى في أيام حصار بيروت الغربية وأسابيعه، حينما كان المحاصرون ينتظرون مساعدة فعلية من البلدان العربية الأخرى ولم يظفروا بها. وفي هذه الظروف يبدو التأوه الأميركي المرئي بشأن ضرورة حل مشكلة التشرد الفلسطيني وما تقترحه الولايات المتحدة من حل وسط بخصوص مصير الضفة الغربية، وقطاع غزة على بعض الأنظمة العربية الراجحة الميل إلى الغرب، مخرجاً من المأزق السياسي الذي تعانية واشنطن. فما دامت العصافير العشرة ـ بعد الذي جرى في لبنان ـ لا ترى على الشجرة فخذوا العصفور الذي في اليد»[٤٠].

وعن الوجود الأميركي في لبنان قالت موسكو إن الولايات المتحدة الأميركية تسعى لتنفيذ صيغة خطة جديدة لمبدأ أيزنهاور في لبنان، من خلال خطط الولايات المتحدة التي ترمي إلى توسيع تواجدها العسكري في منطقة الشرق الأوسط بصورة تفوق كثيراً كل ما خطط له مبدأ أيزنهاور السيء الصيت[٤١].

وهكذا نتبين أن إسرائيل التي تمكنت من إخراج رجال المقاومة الفلسطينية من بيروت، لم تتمكن رغم ذلك من القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية كطرف في معادلة القوى في المنطقة، وفشلت في تحقيق هدفها

المتمثل في إحياء الشق الثاني من اتفاقيات كمب دايفيد المتعلق بالفلسطينيين، أي مسألة الحكم الذاتي لفلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة. فرغم خروج رجال المقاومة الفلسطينية من بيروت غير أن منظمة التحرير استمرت كطرف سياسي، وبقيت محافظة على صفتها كممثل شرعي وحيد للشعب العربي الفلسطيني، ولم تتمكن إسرائيل من «تفريخ» قادة فلسطينيين داخل الأراضي المحتلة يرفضون منظمة التحرير ويستأنفون مسيرة كمب دايفيد لجهة تطبيق الشق المتعلق بالفلسطينيين منها. بل على العكس من ذلك فإن حركة الفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة ضد السيطرة الإسرائيلية تصاعدت وتكثفت، وأصبحت تشكل الثقل الأساسي في خط نضال حركة المقاومة الفلسطينية، بدل العمليات عبر الحدود التي كانت هي الثقل الرئيسي قبل الاجتياح الاسرائيلي وخروج رجال المقاومة الفلسطينية من بيروت. أما محاولة إسرائيل القضاء على ما تبقى من الفلسطينيين المدنيين داخل مخيماتهم في بيروت بعد خروج رجال المقاومة الفلسطينية، ومغادرة القوات الأميركية والمتعددة الجنسية لها، من خلال المجزرة الجماعية التي دبرتها ونفذتها إسرائيل وبعض عملائها ضد سكان مخيمي صبرا وشاتيلا تحت ستار شكلي هو الانتقام لمقتل قائد «القوات اللبنانية» بشير الجميل الذي كانت المخابرات الإسرائيلية قد روجت بين اللبنانيين وقبل مقتله بأسبوع أن الفلسطينيين يخططون لاغتياله، فهذه أيضاً كانت جريمة جماعية جديدة في سجل جرائم إسرائيل. وقد أدانها الاتحاد السوفياتي بحزم شديد وندد بالتواطؤ الأميركي مع المجرمين قتلة النساء والأطفال. وكتبت الصحافة السوفياتية عشرات المقالات والريبورتاجات التي تسلط الضوء على مدى همجية الغزاة وحماتهم مدعي «حماية حقوق الانسان» ونظمت مئات اللقاءات الجماهيرية لشغيلة الاتحاد السوفياتي وكتابه وأدبائه وعلمائه احتجاجاً على

الجريمة البربرية التي يندى لها جبين الانسانية، والتي راح ضحيتها ألوف الناس من نساء وأطفال وشيوخ. وأكد الاتحاد السوفياتي استمرار مناصرته للشعب الفلسطيني في كفاحه، وللبنانيين المناضلين ضد الغزاة الصهاينة، وضد القوات الأميركية والمتعددة الجنسيات، وسوف نرى تفاصيل ذلك في القسم الآتي، وكذلك أعادت موسكو التأكيد مجدداً على الهزيمة السياسية والمعنوية للغزاة وحماتهم، فهم لم يتمكنوا من سحق وتدمير منظمة التحرير رغم خروجها من بيروت، ولم يتمكنوا من إخماد شعلة نضال الشعب العربي الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة وفي خارجها، وفشلوا بالتالي في تنفيذ الشق الفلسطيني من اتفاقيات كمب دايفيد. ولم يتمكنوا من إضعاف سوريا وتبديد قوتها العسكرية، ولم يتمكنوا من فرض اتفاقية جائرة على لبنان، ليصبح البلد العربي الثاني بعد مصر الذي يدخل في صلح منفرد ويطبع علاقاته مع إسرائيل - وهذا ما سيكون موضوع بحث القسم الآتي - والقوات الأميركية والمتعددة الجنسية التي دخلت لبنان تحت مظلة الاجتياح الإسرائيلي لم تتمكن من البقاء فيه، واضطرت للعودة من حيث أتت. وعرضت موسكو عبر وكالة أنباء نوفوستي تقويماً شاملاً للوضع في لبنان بعد مرور أربعة أشهر على بدء عملية الاجتياح جاء فيه بصورة خاصة:

« إن إسرائيل فشلت في تحقيق، معظم أهدافها من غزو لبنان. لقد كانوا يريدون تصفية المقاومة الفلسطينية، وإعدام قادة منظمة التحرير الفلسطينية، وإقامة نظام طيع لهم في لبنان يوافق على عقد معاهدة مع إسرائيل، واضعاف سوريا، وإرغامها على سحب قواتها من لبنان. وخططت إسرائيل لانجاز هذه الأهداف في حرب تستمر ثلاثة أو أربعة أيام، إلا أنه مضى على العدوان سبعة أشهر وأصيبت مخططات الحرب

الخاطفة الإسرائيلية بالفشل. فما الذي منع اسرائيل من تحقيق مخططاتها المدروسة »؟ أجابت الوكالة على هذا التساؤل قائلة:

« إن السبب في ذلك هو الاعمال البطولية لفصائل حركة المقاومة في لبنان، ولا سيما عند مشارف بيروت... تلك الأعمال التي أحبطت استراتيجية الحرب الخاطفة الصهيونية، فقد سجل مقاتلو المقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية الآيات في الصمود والبسالة في مواجهة الجيش الاسرائيلي الذي تكفله وترعاه الامبريالية الأميركية، والمجهز بأحدث الأسلحة الأميركية، والذي تغذيه الأموال الأميركية، ويحظى بالدعم المعنوي والسياسي من جانب الولايات المتحدة الأميركية، وتمكن جيش حركة المقاومة الفلسطينية الذي يضم تسعة آلاف مقاتل فدائي ويحظى بدعم الوطنيين اللبنانيين، والمجهز عموماً بالأسلحة الخفيفة، من إبداء المقاومة اللائقة ضد وحدات القوات الإسرائيلية المؤلفة من مئة ألف عنصر والمسلحة بمئات الدبابات والمدفعية الثقيلة والطائرات، وأظهر المقاتلون الفلسطينيون في معارك الدفاع عن بيروت التي دامت حوالي شهرين ونصف، تفانياً عظيماً في النضال من أجل قضيتهم العادلة، وبسالة فائقة وجرأة وبطولة خارقتين »[٤٢].

وأضافت تقول: « إن أعمالهم تقارن بما أبداه المدافعون عن ستالينغراد في الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ - ١٩٤٥)، لقد كان المدافعون عن بيروت يستشهدون، ولكنهم حالوا دون دخول العدو المدينة، والأمثلة على هذه البطولة بالمئات »[٤٣].

وتابعت الوكالة أنه « وبرغم الهجمات الضارية من جانب المعتدين، وحصار الأحياء الغربية من العاصمة اللبنانية، والنقص الحاد في المواد

الغذائية والطاقة الكهربائية، وانعدام الاتصالات الهاتفية والمحروقات، صمدت المدينة وقاتلت، وصدت هجوم المتدخلين المرة تلو الأخرى، وأقيمت فيها المتاريس، وجددت مواقع الدفاع، وأنشئت الحواجز المضادة للدبابات، ولغمت قطاعات معينة من الشوارع والطرق، وتحولت عمارات سكنية كثيرة إلى قلاع حقيقية... واستمرت وتستمر مقاومة المحتلين في الأراضي المحتلة حيث ينفذ الوطنيون عمليات جريئة»(٤٤).

وقبل التوصل إلى اتفاق لبناني - إسرائيلي بمشاركة أميركية في ١٧ أيار (مايو) ١٩٨٣، قبل ذلك بأكثر من شهرين كانت موسكو بلسان هيئة تحرير صحيفة البرافدا قد حذرت من أن لبنان مهدد بالتجزئة وبفقدان استقلاله، وأكدت أن مصدر هذا الخطر هو سياسة الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل، وصنائعهما تجاه لبنان، واللتان تريدان جعله مسرحاً للعمليات الحربية ضد سوريا، وبؤرة دائمة للتوتر، في المنطقة(٤٥). وخلال المفاوضات الاسرائيلية - اللبنانية أوضحت موسكو بطلان هذه المفاوضات التي تجري في ظل الحراب الإسرائيلية والأميركية وقالت: «مهما كانت ذرائع وحجج وثرثرات المعتدين الإسرائيليين، فإنهم شأن حماتهم أيضاً لا عمل لهم في الأرض اللبنانية وعليهم مغادرتها فوراً»(٤٦). وفي نداءات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي إلى الشعب السوفياتي، وشعوب العالم بأسره، عشية الاحتفال بعيد العمال العالمي في أول أيار (مايو) ١٩٨٣ وجه النداء الآتي: «طالبوا بالانسحاب الفوري الكامل وغير المشروط لقوات المحتلين الإسرائيليين من لبنان، ومن كل الأراضي العربية التي تم الاستيلاء عليها». وبما أن هذه النداءات تعكس عادة القضايا الأساسية في توجه السياسة السوفياتية الداخلية والخارجية، فإن إدراج هذا النداء بينها يعني أن قضية لبنان احتلت مكاناً بارزاً في

السياسة السوفياتية. وهذا ما تأكد لاحقاً من خلال معارضة موسكو لاتفاق ١٧ أيار (مايو) بين لبنان وإسرائيل ودعمها لمعارضيه في معركتهم ضد القوات الأميركية والإسرائيلية، هذه المعركة التي كان لدعم الاتحاد السوفياتي السياسي والمادي الأثر الفاعل في نتائجها التي توجت بسقوط اتفاق ١٧ أيار (مايو)، وإرغام القوات الأميركية والأطلسية على مغادرة لبنان، وكذلك فرض الانسحاب على قوات الاحتلال الإسرائيلي من القسم الأكبر من الأراضي اللبنانية التي كانت تحتلها. ماذا كان موقف الاتحاد السوفياتي من اتفاق ١٧ أيار (مايو)، ومن المعارك التي سبقت اسقاطه والتي شارك فيها الأميركيون وبوارجهم الحربية؟ وماذا كان موقفه من إلغاء الاتفاق المذكور، وتشكيل حكومة الوحدة الوطنية في لبنان، وما هي آفاق العلاقات اللبنانية السوفياتية؟ كل هذه القضايا هي محور القسم الآتي والأخير في هذا الكتاب.

---

(١) جريدة النهار اللبنانية ١٩٨٢/٦/١٢.
(٢) جريدة السفير ١٩٨٢/٦/١٢.
(٣) زئيف شيف: حرب إسرائيل في لبنان. ص ٤٨. بيروت ١٩٨٥ دار المروج.
(٤) شيمون شيفر: كرة الثلج. ص ٢٠. بيروت ١٩٨٤.
(٥) جريدة السفير اللبنانية ١٩٨٢/٦/٥.
(٦) جريدة النداء، عن جريدة البرافدا. ١٩٨٢/٦/٦.
(٧) جريدة النهار ١٩٨٢/٦/٧.
(٨) جريدة النهار ١٩٨٢/٦/٨.
(٩) وكالة نوفوستي ١٩٨٢/٦/٩.
(١٠) المرجع السابق.
(١١) عن جريدة السفير ١٩٨٢/٦/١٥.
(١٢) عن جريدة السفير ١٩٨٢/٦/١٥.
(١٣) جريدة السفير ١٩٨٢/٦/١٦.
(١٤) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٢/٦/١٩.

(١٥) جريدة السفير ١٩/٦/١٩٨٢.
(١٦) جريدة البرافدا ٢٢/٧/١٩٨٢.
(١٧) جريدة النداء ٢٧/٧/١٩٨٢.
(١٨) جريدة النهار ٣٠/٦/١٩٨٢.
(١٩) وكالة أنباء نوفوستي ٩/٧/١٩٨٢.
(٢٠) المرجع السابق.
(٢١) المرجع السابق.
(٢٢) جريدة النهار ٦/٧/١٩٨٢.
(٢٣) جريدة النداء ٧/٨/١٩٨٢.
(٢٤) جريدة السفير ١٢/٨/١٩٨٢.
(٢٥) المرجع السابق.
(٢٦) جريدة السفير ١٦/٨/١٩٨٢.
(٢٧) جريدة النهار ١٧/٨/١٩٨٢.
(٢٨) النهار ٢١/٨/١٩٨٢.
(٢٩) جريدة النداء ٢٢/٨/١٩٨٢.
(٣٠) عن جريدة النداء ٢٧/٨/١٩٨٢.
(٣١) المرجع السابق.
(٣٢) المرجع السابق.
(٣٣) المرجع السابق.
(٣٤) النداء ٢٧/٨/١٩٨٢.
(٣٥) النداء ٢٧/٨/١٩٨٢.
(٣٦) المرجع السابق.
(٣٧) المرجع السابق.
(٣٨) المرجع السابق.
(٣٩) جريدة النداء ١٥/٩/١٩٨٢.
(٤٠) المرجع السابق.
(٤١) وكالة أنباء نوفوستي ٣/١١/١٩٨٢.
(٤٢) عن جريدة السفير ٦/١/١٩٨٣.
(٤٣) المرجع السابق.
(٤٤) المرجع السابق.
(٤٥) جريدة البرافدا ٢/٣/١٩٨٣.
(٤٦) جريدة البرافدا ٢/٣/١٩٨٣.

٣ ـ العلاقات اللبنانية ـ السوفياتية بعد مرحلة اتفاق ١٧ أيار اللبناني ـ الاسرائيلي وافاقها

العلاقات بين الاتحاد السوفياتي ولبنان لا تقتصر، كما سبق ورأينا، على العلاقات الرسمية الدبلوماسية والثقافية والاقتصادية والتجارية، بل تشمل أيضاً علاقات من نمط آخر، لها طابع شعبي تنظمها جمعيتا الصداقة بين البلدين، في نطاق ما يسمى بالدبلوماسية الشعبية، والتي تتضمن شتى الصلات والروابط بين الاتحادات، والمنظمات الثقافية، والنقابية، والنسائية، والطلابية وغيرها بين البلدين، بالإضافة إلى العلاقات الحزبية القائمة بين الحزبين الشيوعيين السوفياتي واللبناني، وكذلك بين الحزب الشيوعي السوفياتي وسائر الأحزاب اللبنانية، واليسارية منها بصورة خاصة. وهناك أيضاً العلاقات الدينية القائمة بين الكنيسة الروسية والكنيسة في لبنان، والعلاقات بين مسلمي لبنان، والادارات الدينية لمسلمي الاتحاد السوفياتي، والعلاقات بين الصحافتين السوفياتية واللبنانية والتي يؤمن قيامها واستمرارها المركز الصحفي التابع للسفارة السوفياتية في بيروت، والذي تصدر عنه نشرة إعلامية يومية وفقاً لمواد وكالة أنباء نوفوستي توزع على الصحف والمجلات والمؤسسات الإعلامية وبعض رجال السياسة والأحزاب في لبنان.

تقوم هذه العلاقات الشاملة والمتنوعة والمتشعبة بين الاتحاد السوفياتي ولبنان على أساس المبادىء الراسخة للسياسة الخارجية السوفياتية، هذه المبادىء التي أعلنت منذ اليوم الأول لقيام السلطة السوفياتية في روسيا والتي تضمنها مرسوم السلام الذي مهر بيد فلاديمير ايليتش لينين، قائد

ثورة أكتوبر ومؤسس الدولة السوفياتية، والذي صدر في الثامن من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧، وهي مبادىء أدانت الحرب الامبريالية باعتبارها أكبر جريمة في حق البشرية، ودعت إلى عدم الاستيلاء على أراضي الغير أو ضم الأقوام والشعوب الأخرى، كما دعت إلى التساوي في السيادة، والتكافؤ التام بين الأمم في الحقوق، وحقها في تقرير المصير، والعيش في كيان دولة مستقل بها، والدبلوماسية العلنية. وقد أعلن مرسوم السلام اللينيني أسس السياسة الخارجية للدولة السوفياتية، ألا وهي الأممية البروليتارية، والتضامن مع الشعوب التي تخوض النضال ضد الامبريالية ومبدأ التعايش السلمي مع الدول ذات النظام الاجتماعي المغاير. ولقد تكرست هذه المبادىء والأسس في المادة الثالثة والعشرين من دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية التي تنص على «أن السياسة الخارجية السوفياتية موجهة نحو ضمان الظروف الدولية المؤاتية لبناء الشيوعية في الاتحاد السوفياتي، وحماية مصالح دولة الاتحاد السوفياتي، وتقوية أوضاع الاشتراكية العالمية، وتأييد ومناصرة نضال الشعوب من أجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي، ودرء الحروب العدوانية، وبلوغ نزع السلاح الشامل والكامل، والتنفيذ المتتابع لمبدأ التعايش السلمي بين الدول المنتمية إلى النظامين الاجتماعيين المتباينين»[1].

وانطلاقاً من هذه المبادىء والأهداف تحددت سياسة الاتحاد السوفياتي ومواقفه تجاه لبنان، سواء في رفضه لنظام الانتداب، وإعلانه لا شرعيته (١٩٢٣) أم في دعمه لنضال اللبنانيين من أجل الاستقلال (١٩٤١ - ١٩٤٣)، أم في اعترافه بلبنان الدولة السيدة المستقلة، وإقامته العلاقات الدبلوماسية الكاملة معها (١٩٤٤)، أم في موقفه الحازم والفاعل إلى جانب لبنان في طلبه جلاء القوات الأجنبية الفرنسية

والانكليزية عن أراضيه (١٩٤٦)، أم في شجبه واستنكاره للتدخل الأميركي العسكري في لبنان (١٩٥٨ و١٩٨٢ - ١٩٨٣) أم في دعمه لنضال لبنان ضد الاجتياح والاحتلال العسكري الإسرائيليين (١٩٨٢ وما بعدها). ولا تتأثر سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه لبنان بسياسة هذا العهد السياسي اللبناني أو ذاك، بل إنها ثابتة في منطلقاتها وجذورها، ولا تتغير بتغير العهود والسياسات في لبنان. وفي هذا بالذات يكمن سبب التناقض الذي يحصل بين حين وآخر بين سياسة ومواقف الاتحاد السوفياتي من جهة، وسياسة ومواقف الحكم اللبناني وبعض الأطراف اللبنانية الأخرى من جهة ثانية. وهذا ما حصل مثلاً في العام ١٩٨٣ عندما كان الحكم اللبناني مندفعاً بتأثير السياسة الأميركية نحو توقيع اتفاق مع الدولة الصهيونية، هذا الاتفاق الذي تم التوصل إليه في ١٧ أيار (مايو) من العام المذكور، ودافع عنه الحكم اللبناني آنذاك، وبعض القوى اللبنانية باعتباره من أجدى الوسائل الممكنة لتحقيق الانسحاب الإسرائيلي من لبنان، بينما عارضته قوى وأطراف لبنانية وعربية متعددة. فهل التزم الاتحاد السوفياتي الصمت حيال الاتفاق المذكور نظراً لتباين مواقف اللبنانيين منه؟

إنطلاقاً من المبادىء الراسخة في سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية والتي سبقت الإشارة إليها أعلاه، انتقد الاتحاد السوفياتي اتفاق ١٧ أيار (مايو) وعارضه، استكمالاً لمعارضته وشجبه الاجتياح الإسرائيلي للبنان. فالاتحاد السوفياتي الذي أدان بحزم وقوة الاجتياح الإسرائيلي، وجرائمه البربرية ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني، لم يكن بوسعه أن يكون منسجماً مع موقفه إذا وقف ملتزماً الصمت تجاه الاتفاق الذي أرادت إسرائيل عبره جني ثمار عدوانها على لبنان، وتكريسها شرعياً ودستورياً. لذلك

سارعت وكالة تاس السوفياتية الرسمية وقبل تـوقيـع الاتفـاق المذكـور بضعة أيام ـ بعدما كانت بنوده قد باتت معلومة ـ إلى وصف الاتفاق بأنه خطة لاستعباد لبنان، وهو اتفاق سلام موهوم المقصود منه تحقيق المطالب الأميركية ـ الإسرائيلية التي تقتضي فعلاً تقسيم لبنان، والحفاظ في القسم الجنوبي منه على قوات الاحتلال الإسرائيلية ومفرزة من مشاة البحرية الأميركية [٢].

وسواء في صحافتها ووسائل إعلامها الأخرى أم في المواقف المعلنة لكبار المسؤولين في الحزب والدولة، فقد اتضح جلياً أن موسكو تعتبر اتفاق ١٧ أيار (مايو) اللبناني ـ الإسرائيلي، اتفاقاً تم التوصل إليه تحت ضغط الجبروت الموحد للسلاح الأميركي والإسرائيلي، وهدفه لم يكن إحلال السلام والأمن في لبنان، بل تحويل هذا البلد العربي إلى محمية أميركية ـ إسرائيلية، واعتبرت وكالة أنباء نـوفـوستي السـوفيـاتيـة أن التحالف الامبريالي الصهيوني يحاول من خلال الاتفاق أن يتنازل لبنان عن استقلاله وسيادته [٣].

وفي بيان مشترك صدر في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٣ إثر اختتام مباحثات وفد لبناني برئاسة جورجْ حاوي، أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني مع قسطنطين تشيرننكو الأمين العام للجنـة المركـزيـة للحـزب الشيوعي السوفياتي في موسكو، اعتبر الجانبان أن الاتفاقية الاستسلامية الجائرة التي فرضتها الولايات المتحـدة الأميركيـة وإسرائيلي على لبنـان تشكل خطراً على وجوده كدولة عربية موحدة وذات سيادة [٤].

وعلى خلفية هذا الموقف السوفياتي من اتفاق ١٧ أيار (مايو) تجدد الدعم السوفياتي للقوى اللبنانية وللمقاومة الفلسطينية وسوريا الذين وقفوا

وقفة مجابهة للاتفاق ومعارضة له، واستمر السجال السياسي والعسكري بينهم وبين الولايات المتحدة الأميركية، وإسرائيـل، والقـوى اللبنـانيـة المؤيدة لاتفاق ١٧ أيار (مايو)، حتى لجأت الحكومة اللبنانية بعد سلسلة التطورات المتلاحقة منذ أيار (مـايـو) ١٩٨٣ وحتى شبـاط (فبرايـر) ١٩٨٤ إلى إلغاء الاتفاق في ٥ آذار (مارس) ١٩٨٤. وقالت موسكو يومها، لقد تحدى الشعب الشجاع في لبنان الصغير المعتدي وحاميه الجبار، واعتبرت إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو) نجاحاً ضخماً للقـوى التقـدميـة الوطنية في لبنان، والعالم العربي كله وعاملاً إيجابياً في انتصار إرادة النضال لدى شعوب المنطقة في صمودها ضد الامبريالية الأميركية [٥].

وكررت موسكو عبر وسائل إعلامها الإشادة بقرار الحكومة اللبنانية، إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو)، وقالت إن ذلك يضع تسعة وتسعين بالمئة من أوراق الحل في أيدي الشعوب العربية، مشيرة بذلك إلى سقوط مقولة السادات الشهيرة والتي طالما رددها مبرراً ارتماءه في أحضان الامبريالية الأميركية وهي ان تسعة وتسعين بالمئة من أوراق الحل هي بيد أميركا.

دعت وكالة أنباء نوفوستي الأنظمـة العـربيـة «المعتـدلـة» الى اتخاذ مواقف أكثر وطنية، لأنها أيقنت على مثال لبنان بأنه لا يمكن لحاملات الطائرات ولا البارجات المتعددة الجنسية ولا أي سلاح فظيع آخر تحطيم إرادة الشعب [٦].

واعتبرت الوكالة يوم ٥ آذار (مارس) ١٩٨٤، يوماً مجيداً في تاريـخ حركة التحرر الوطني العربية، لأنه في هذا اليوم أعلنت بيروت عن إلغاء ما يسمى «باتفاقية السلام» اللبنانية ـ الإسرائيلية التي فرضتها تل أبيب وواشنطن على لبنان بالقوة في ١٧ أيار (مايو) عام ١٩٨٣.

وقالت الوكالة إنه « تم فسخ هذه الاتفاقية الجائرة بفضل الموقف الصلب الذي اتخذته القوى الوطنية اللبنانية، التي قاومت بالاشتراك مع سوريا الضغط الأميركي ـ الإسرائيلي مقاومة شديدة »[٧] .

وذكّرت بالموقف السوفياتي الرافض للاتفاق، وأكدت الدعم السوفياتي للقوى الوطنية اللبنانية. . واعتبرت إلغاء الاتفاق صفعة كبيرة لإدارة ريغان في الشرق الأوسط التي كانت تطمح إلى خلق « مصر جديدة » ودول أخرى مشابهة لها على خريطة الشرق الأوسط.

وأشارت إلى انسحاب قوات المارينز من بيروت إلى البحر باعتباره « انهياراً للمخططات الأميركية الرامية إلى توسيع تواجدها في الشرق الأوسط »[٨] .

واعتبر كارين بروتنس نائب رئيس قسم العلاقات الدولية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، أن إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو) ، ومجمل التطورات التي جرت في لبنان، لها أهمية تتجاوز بعيداً حدود هذا البلد ، وتدل على أن المشروع الأميركي بما فيه التدخل العسكري قد مني بالفشل. وإن أحداث لبنان سيكون لها صدى مدوٍ في العالم العربي وليس فيه فحسب ، فقد أظهرت هذه الأحداث باعتقادي غلطتين رئيسيتين ارتكبتها واشنطن في الشرق الأوسط.

أولاً، الإيمان المتغطرس بأن في مقدور القبضة العسكرية أن تحل مشكلة الشرق الأوسط البالغة التعقيد ، ولكن اتضح أن القضية ليست كذلك ، لأن سائر المشاكل المعقدة في هذه المنطقة لا يمكن حسمها بالعصا الغليظة.

ثانياً، الاستخفاف بمصالح العرب القومية، ورفض الاقرار بحقهم ـ واحترام هذا الحق ـ في العيش مثلما يريدون ، ومراعاة كرامتهم بل وربما الأهم من ذلك ، سوء تقدير قدراتهم في الدفاع عن مصالحهم الوطنية.

وباعتقادي أن هناك كل المسوغات لتوكيد ترسخ مواقع سوريا ، والقوى الوطنية اللبنانية ، والفلسطينيين المناهضين للامبريالية ، باختصار ، تعزز مواقع كل الدول والأحزاب والتيارات السياسية التي تؤيد التصدي الثابت للمشاريع الامبريالية.

وعلى صعيد آخر يمكن القول بتزعزع مواقع من سار سيراً أعمى في فلك السياسة الأميركية وآمن بكلية الجبروت الأميركي ، واعتمد على الصيغة التي ابتكرها السادات والزاعمة بأن تسعة وتسعين بالمئة من أوراق مسألة الشرق الأوسط في جيب الأميركان[٩] .

خلال ذلك عبرت موسكو عن دعمها الأكيد للمقاومة الوطنية اللبنانية التي كانت قد انطلقت في عمليتها الأولى ضد القوات الإسرائيلية في بيروت ، في ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ ، ثم تلاحقت وتكثفت عملياتها البطولية بعد أن اضطر الجيش الإسرائيلي للانسحاب من بيروت ، وشملت عملياتها مناطق تواجد قوات الاحتلال في الجنوب والبقاع وصيدا وسواها . وتحولت إلى تيار جماهيري مقاوم ، ولم تعد مقتصرة على نخبة من الفدائيين وحسب ، بل شملت قطاعات واسعة من سكان المناطق اللبنانية المحتلة الذين هبوا لمقاومة المحتلين الإسرائيليين بكل ما لديهم من أسلحة ، وأدوات ، وحتى بالحجارة ، والزيت المغلي. وأشادت موسكو مراراً بالعمليات البطولية لرجال المقاومة الوطنية اللبنانية وقالت صحيفة البرافدا : « تحت ضرباتها يتدحرج الجيش الإسرائيلي دون

توقف نحو الهاوية »[١٠]. ومما لا شك فيه أن إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو) رفع من معنويات رجال المقاومة، وعزز إيمانهم بالنصر، وثقتهم بالنفس، فتوالت أعمالهم البطولية المتلاحقة ضد المعتدين والتي تضمنت فيما تضمنته القيام بهجمات انتحارية على قوات الاحتلال بسيارات مفخخة شاركت في البعض منها بعض الفتيات من صفوف المقاومة الوطنية اللبنانية، وقد نالت تلك العمليات البطولية تقدير الرأي العام وإعجابه.

وبعدما توحدت كلمة اللبنانيين على إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو) وتشكيل حكومة الوحدة الوطنية التي شاركت فيها الأطراف اللبنانية الأساسية، أعلنت وكالة أنباء نوفوستي إثر كل هذه التطورات، « أن إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو) ثم تشكيل حكومة الوحدة الوطنية برئاسة رشيد كرامي، كان بمثابة الضربة التي أربكت مخططات واشنطن الشرق أوسطية. وتحاول إسرائيل بدورها الآن، بعدما تجرعت كأس الهزيمة السياسية في لبنان بإلغاء الاتفاق، الذي أرادت من خلاله تحويل لبنان إلى مجرد تابع سياسي واقتصادي، تمزيق لبنان من الداخل باللعب على بعض التناقضات الطائفية وتعزيزها، وتحويل الصراع برمته إلى صراع بين طوائف لا يخدم في أي من نتائجه في المدى القريب والبعيد إلا مخططات الدولة الصهيونية ومراميها في لبنان وسواه من الدول المجاورة »[١١].

وأضافت الوكالة تقول: « ومن هنا تصبح ملحة جداً مهمة توحيد القسم الأكبر من اللبنانيين، إن لم يكن كلهم في سبيل مصلحة بلدهم، وفي مواجهة الإسرائيليين وحماتهم في واشنطن، لإعادة السلام والهدوء إلى وطن الأرز، واستعادة الرخاء والأمان لشعبه »[١٢]. وأوضحت الوكالة: « أن اللبنانيين في وحدتهم في النضال ضد المحتلين الإسرائيليين بإمكانهم الاستناد إلى الدعم السوفياتي المعنوي والمادي وإلى صداقة ودعم الشعب

السوفياتي. وفي هذا الاطار تدخل مسألة بناء لبنان وإعادة تعميره وإعادة تشكيل وتجهيز جيشه الوطني »[١٣]. وختمت بقولها: « آن الأوان بعد التجارب المريرة التي مرّ بها لبنان خلال السنوات العشر الأخيرة، كي يخلع بعض ملابسه القديمة، ويخرج من دوامة الحرص على العلاقة المتميزة مع ما يسمى « بالعالم الحر »، ويقلع عن الارتهان لأولئك الذين يسعون وراء محو لبنان كدولة سيدة مستقلة من خارطة المشرق العربي، واستبداله بدويلات طائفية ممزقة ومتناحرة وخاضعة في نهاية المطاف للسيطرة الصهيونية والامبريالية. ولا بد في هذه المرحلة بالذات من التوجه الصادق والجدي نحو الجهات الحريصة فعلاً على إنقاذ لبنان وضمان مستقبله »[١٤].

ولقد أشار كتاب: « الرفاق » الذي صدر في بيروت عام ١٩٨٤ لمجموعة كتاب لبنانيين، في مقطع خاص تحت عنوان: « لبنان والتمزق والثوب القديم في العلاقات » إلى أن « مقال الوكالة السوفياتية المذكور أحدث ضجة في أكثر من مجال وتناقلته معظم الصحف اللبنانية والعربية، واعتبره المراقبون انطلاقة « « للهجمة السوفياتية » بعد إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو)، وربطوه بتحسن علاقات السوفيات بعدة دول عربية وبالمأزق الأميركي في المنطقة »[١٥].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو)، كان بمثابة النصر الكبير الذي تحقق على أرض لبنان، وقد قوّمت موسكو هذا الانتصار وثمنته عالياً، واعتبرته تحولاً هاماً أنجز على أرض لبنان، وستكون له آثاره المباشرة على مجمل السياسة الأميركية في منطقة الشرق الأوسط خاصة، وفي العالم قاطبة بصورة عامة. وبالفعل ترك هذا التحول آثاره المباشرة فأعادت بعض قوى لبنان المحلية التي كانت تراهن على جبروت القوة الأميركية، النظر في مراهنتها هذه وفتحت خطوطاً

لعلاقات مع بلاد السوفيات، بعدما أدركت أنه يصعب إن لم يكن يستحيل تحقيق أي تحول سياسي في المنطقة بالاستناد إلى السياسة الأميركية والعسكرية الأميركية، وتجاهل موقف ودور الاتحاد السوفياتي الذي جاء إلغاء اتفاق ١٧ أيار ثم هزيمة القوات الأميركية والأطلسية المتعددة الجنسيات ورحيلها عن لبنان، ليبدد أوهامها ويفتح عيونها على مدى قوة وفاعلية الموقف السوفياتي في المنطقة.

وخلال وجودي في موسكو في تموز (يوليو) من العام ١٩٨٤ تسنّى لي اللقاء مع رئيس قسم الشرق الأوسط وأفريقيا في وكالة أنباء نوفوستي الأستاذ ألكسندر كراسنوف، ولدى الحديث حول هذا المقال والضجة التي أثارها في بيروت، قال إذا كان السبب هو الاعراب عن استعداد لتجهيز جيش لبنان الوطني، فإن ذلك أمر، كما هو واضح في المقال، مرهون بوحدة اللبنانيين حيال هذا الموضوع، فإذا نجحت حكومة الوحدة الوطنية في وضع صيغة وفاق نهائي بين اللبنانيين، وهي الحكومة التي تضم القوى اللبنانية الأساسية المتنازعة، وإذا أجمعت تلك الحكومة على طلب مساعدة سوفياتية، فالاتحاد السوفياتي لن يتوانى عن الاستجابة في مثل هذه الحالة، وهذا بالتحديد ما هو مقصود في المقال، أما إذا كانت الخلافات بين اللبنانيين وأقطاب الحكومة ما زالت قائمة، فعندها يختلف الأمر، وفي مثل هذه الحالة لن يكون هناك مثل ذلك الطلب من لبنان إلى الاتحاد السوفياتي.

وفي حوار أجراه معه مراسل جريدة «السفير» اللبنانية في موسكو، قال ألكسندر كراسنوف حول الوضع في لبنان وأزمته وموقف الاتحاد السوفياتي من أسبابها وسبل حلها: «أعتقد أنه لا يمكن نفي وجود علاقة وثيقة بين الأحداث اللبنانية والصراع في الشرق الأوسط عموماً، وأريد

أن أعيد إلى الأذهان تحليل طبيعة وأسباب الأزمة اللبنانية الذي قام به الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٦ حيث قوّم الحرب الأهلية في لبنان كنتيجة لمحاولة الامبريالية العالمية الجديدة، أي الولايات المتحدة وبلدان الناتو [١٦] الأخرى، توجيه ضربة لقوى الثورة المعادية للامبريالية في الشرق الأوسط، والمحافظة على مواقعها هنا وتعزيزها، وأشار الاجتماع الكامل في سياق إبراز خصائص تكتيك الامبريالية الحالي حيال حركة التحرر الوطني العربية، إلى أن الامبريالية تسلك طريق إثارة وافتعال النزاعات بين العرب، كما أشار الاجتماع الكامل إلى سبب مهم آخر من أسباب الأزمة اللبنانية، هو بروز تمايزات طبقية داخل البلدان العربية، ونمو الاختلافات الاجتماعية السياسية بينها، وأعتقد أنك توافقني على أن الزمن أظهر صحة ذلك التحليل، فبعد اتفاقية كامب ديفيد التي جسدت سياسة الامبريالية المذكورة، أخذت الأحداث اللبنانية منحى أكثر مأساوية، ولا يجوز أن يغيب عن بالنا أن واشنطن وتل أبيب تستغلان تفاقم التوتر في لبنان الآن، لصرف اهتمام الرأي العام العالمي عن جوهر أزمة الشرق الأوسط أي حل المشكلة الفلسطينية».

«لذلك فبقدر الإسراع في قضية تسوية أزمة الشرق الأوسط، يقترب اليوم الذي تتسنى فيه إزالة الكثير من أسباب الأزمة اللبنانية، وهذا، طبعاً، لا يلغي إمكان اتخاذ مجموعة إجراءات سياسية من أجل تطبيع الوضع في لبنان في الوقت الحاضر».

ما هي برأيكم أفضل الطرق لحل الأزمة اللبنانية؟

ـ «إن الاتحاد السوفياتي يدعو إلى إعادة سيادة واستقلال لبنان ووحدة

أراضيه، وإلى تسوية للأزمة اللبنانية الداخلية على أساس الوفاق الوطني، والشرط الضروري والأساس لمثل هذه التسوية، وتطور لبنان بوصفه بلداً عربياً موحداً ومستقلاً وديمقراطياً، هو سحب القوات الاسرائيلية الغازية من الأراضي اللبنانية فوراً وبلا قيد أو شرط، بموجب القرارين ٥٠٨ و ٥٠٩ لمجلس الأمن الدولي وسحب القوة متعددة الجنسيات التدخلية. أعتقد بأن هذا ينسجم مع ما توصل إليه مؤتمر الوفاق الوطني اللبناني في جنيف، ومن شأنه أن يساعد على وضع أسس للحوار الوطني. لكن الوفاق الوطني الذي يدعو إليه الوطنيون اللبنانيون لا يروق لواشنطن وتل أبيب، فكلما تعمقت الأزمة في لبنان كلما أصبح أسهل عليهما ممارسة سياسة تقسيم البلاد لاحقاً وفرض سياستها الإملائية عليها. ولذا تتدخلان في شؤون لبنان الداخلية وتسعيان إلى إفشال الحوار الوطني»[١٧].

وبالنسبة لموضوع المساعدات السوفياتية إلى لبنان، فقد نقلت جريدة النهار عن لسان مسؤول كبير في الخارجية السوفياتية، قوله رداً على سؤال مراسلها «إن الاتحاد السوفياتي مستعد مبدئياً لمساعدة لبنان إذا طلب لبنان ذلك»[١٨]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن علاقات لبنان الرسمية مع الاتحاد السوفياتي والتي سادها البرود بعد الاجتياح الإسرائيلي، ودخول القوات الأميركية إلى لبنان، عادت لتشهد تحسناً ملحوظاً بعد إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو)، وما سبق هذا الإلغاء وتلاه من تطورات، ومن الإشارات التي دلت على أجواء التحسن والتبدل في موقف لبنان الرسمي حيال الاتحاد السوفياتي مجموعة مؤشرات، كان من أبرزها برقية التهنئة التي بعث بها الرئيس رشيد كرامي إلى وزير الخارجية السوفياتية أندريه غروميكو في مطلع شهر آب (أغسطس) من العام ١٩٨٤ بمناسبة الذكرى الأربعين لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين والتي أعرب فيها عن

حرص لبنان على مواصلة تطوير وتقوية علاقات الصداقة والتفاهم بينه وبين الاتحاد السوفياتي في مختلف المجالات[١٩].

ومما جاء في برقية الرئيس كرامي قوله: «إن جلاء القوات الإسرائيلية عن لبنان هو واجب وطني، كما هو في الوقت ذاته مسؤولية دولية وخدمة للسلم العالمي. ومن هنا نشعر بالامتنان لبلدكم العظيم الذي وقف دائماً إلى جانبنا من أجل استعادة سيادتنا واستقلالنا ووحدة وسلامة أراضينا».

وفي برقية بعثها غروميكو بالمناسبة ذاتها إلى الرئيس رشيد كرامي بصفته وزيراً للخارجية اللبنانية، قال: «إن العلاقات السوفياتية ـ اللبنانية المستندة على مبادىء التكافؤ والاحترام، قد اتخذت خلال هذه السنوات الأربعين طابع الصداقة التقليدية تأكيداً لموقف الاتحاد السوفياتي الثابت في تأييد الاستقلال والسيادة وسلامة الأراضي والوحدة الوطنية للبنان.

نعبر عن ثقتنا في أن العلاقات السوفياتية ـ اللبنانية تتطور بالنمو المطرد لصالح شعبي البلدين، وفي سبيل السلام الوطيد في الشرق الأوسط. نتمنى لشعب لبنان الصديق سلامة ونجاحاً في حلول القضايا القومية وفي تحرير الأراضي اللبنانية من المحتلين الإسرائيليين»[٢٠].

وفي مناسبة أخرى وبعد مرور عام على إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو) وصل إلى موسكو رشيد كرامي رئيس حكومة الوحدة الوطنية اللبنانية، لتقديم التعازي بوفاة الزعيم السوفياتي قسطنطين تشيرنينكو. وكان من المقرر أن يسافر إلى موسكو للغاية نفسها رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ أمين الجميّل. غير أن بعض الأحداث الداخلية الأمنية التي جرت في الشطر الشرقي من بيروت يوم ١٢ آذار (مارس) ١٩٨٥ قد حالت، كما ذُكِرَ في بعض الصحف اللبنانية في حينه، دون قيام الرئيس الجميّل

بزيارته تلك إلى موسكو . وترأس الوفد اللبناني إلى موسكو رئيس الوزراء رشيد كرامي الذي أكد له ميخائيل غورباتشوف الأمين العام الجديد للحزب الشيوعي السوفياتي ، أثناء تقبله منه التعازي ، « أن الاتحاد السوفياتي يشعر بمعاناة الشعب اللبناني ، ويؤيد نضاله لتحرير أرضه من الغزاة الإسرائيليين ، واستعادة السلطة الشرعية على كل الأراضي اللبنانية » . فرد الرئيس كرامي معرباً عن امتنان وشكر الحكومة والشعب في لبنان للاتحاد السوفياتي على مواقفه التي اتخذها لدعم وتأييد لبنان في مختلف المجالات ، خصوصاً في نضاله لتحرير أرضه من الاحتلال الإسرائيلي [٢١] .

وبمناسبة يوم التضامن العالمي مع الشعب اللبناني في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٨٥ ، نشرت وسائل الإعلام السوفياتية سلسلة من المقالات حول الوضع في لبنان ، أظهرت مدى اهتمام الرأي العام السوفياتي بتطور الأحداث في لبنان ، متمنية لشعبه السلام والاستقلال والتطور الديمقراطي في إطار لبنان مستقل موحد . وقالت جريدة البرافدا : « إن السوفياتيين يدركون جيداً أن إحلال سلام وطيد في لبنان لا يمكن إلا في إطار حل شامل لقضية الشرق الأوسط ككل على أساس الوفاق الوطني بين اللبنانيين وبدون تدخل امبريالي » [٢٢] . وقالت صحيفة روسيا السوفياتية : « إن تمزق لبنان ، والوضع الداخلي المستعر بالخلافات ، لا يستفيد منه سوى أعداء الشعب اللبناني . وإذ يخرب حكام تل أبيب وحماتهم وراء المحيط اقتصاد لبنان مهيجين التناقضات السياسية الداخلية لا يمكنهم بطبيعة الحال إلا أن يضعوا في حسابهم أن استفحال الوضع في لبنان يؤثر تأثيراً وبيلاً في مستقبل إزالة الوضع المنذر بالانفجار في الشرق الأوسط عموماً » [٢٣] .
وفي مقالة كتبها في صحيفة « أنباء موسكو » عزا زامياتين ، رئيس قسم الإعلام الدولي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، سبب بقاء

التوتر في لبنان « إلى السياسة الاستفزازية لإسرائيل التي خلقت وضخمت الخلافات اللبنانية الداخلية بشكل مصطنع . وقال إنه لا يمكن تسوية المشاكل اللبنانية الداخلية إلا بالطريق السلمي وعلى أساس الوفاق الوطني للبنانيين أنفسهم » [٢٤] .

وفي أوائل عام ١٩٨٦ ، وصل إلى موسكو مدير عام وزارة الخارجية اللبنانية ، السفير فؤاد الترك لإجراء مشاورات مع المسؤولين في الخارجية السوفياتية ، من أجل تعزيز العلاقات السياسية اللبنانية ـ السوفياتية ، وحول هذه الزيارة وأهميتها في توسيع العلاقات الثنائية بين البلدين وتعميقها في مختلف المجالات ، كتبت وكالة أنباء نوفوستي السوفياتية تقول :

« دفاعاً عن سيادة الدولة اللبنانية واستقلالها ، ووحدة أراضيها أدان الاتحاد السوفياتي بحزم ويدين الأعمال العدوانية والاستفزازات التي تمارسها تل أبيب ضدها .

ويؤيد الاتحاد السوفياتي بقوة مطالب لبنان بشأن الانسحاب الكامل وغير المشروط للقوات الإسرائيلية من أراضيه كافة ، ووقف تدخل تل أبيب في شؤونه الداخلية .

إن تحقيق هذه المطالب يساعد على توفير الظروف اللازمة لحل مشكلة لبنان الداخلية حلاً سياسياً سلمياً ، ولتعزيز الاتجاهات الإيجابية في الشؤون اللبنانية الداخلية ، التي ارتسمت من خلال توقيع اتفاقية « المصالحة الوطنية لتسوية الأزمة اللبنانية » بمساعدة سوريا .

وسيظل الاتحاد السوفياتي الوفي لمبادىء سياسته الخارجية اللينينية ،

يدعم باطراد الجهود الآيلة إلى التحرير الكامل للأراضي اللبنانية من الاحتلال الإسرائيلي، وإشاعة الاستقرار في لبنان على أساس المصالحة الوطنية »[٢٥].

وكان للبنان موقع واهتمام خاص في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، الذي انعقد في أواخر شباط (فبراير) ـ أوائل آذار (مارس) ١٩٨٦، المؤتمر التاريخي الذي أقر الصياغة الجديدة للبرنامج السياسي وخطة التنمية الاقتصادية الاجتماعية للاتحاد السوفياتي حتى العام ٢٠٠٠، والذي كرس خط القيادة السوفياتية بزعامة ميخائيل غورباتشوف، ورفاقه في اللجنة المركزية، والمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، خط إعادة البناء والعلنية والديمقراطية والتجديد والانفتاح.

ففي مؤتمر صحفي عقد على هامش المؤتمر الحزبي في موسكو، وبحضور مئات الصحافيين السوفيات والأجانب، وعبر شاشات التلفزيون، والإذاعة السوفياتية، قال غيورغي كورنينكو، النائب الأول لوزير الخارجية السوفياتية، إن الاتحاد السوفياتي قام بكل ما يمكنه بغية تأمين انسحاب القوات الإسرائيلية بأسرع وقت من لبنان والأراضي العربية الأخرى، ورداً على سؤالي حول موقف الاتحاد السوفياتي من الاتفاق الثلاثي(*) (وقد كنت مشاركاً كصحافي لبناني في تغطية أعمال المؤتمر) قال: « إننا قلباً وروحاً إلى جانب إيقاف الحرب الأهلية في هذا البلد، وإلى جانب بقاء لبنان دولة موحدة وذات سيادة تُحتَرم سلامة أراضيه، وحَسب يقيننا فإن تحديد السبل الملموسة لتحقيق هذا الهدف هو قضية داخلية تخص لبنان وحده »[٢٦].

وفي الذكرى السنوية الحادية عشرة لاندلاع الحرب في لبنان، استعرضت جريدة البرافدا تطورات الأحداث في لبنان منذ نيسان ١٩٧٥، والآثار الإنسانية والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية لهذه الحرب، والمراحل التي مرت بها حتى توقيع الاتفاق الثلاثي في دمشق في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥، منوهة بالموقف السوفياتي الذي أصبح معترفاً به في كل مكان بلبنان، والذي ردده موسكو مراراً، وهو أن العقبة التي تقف على طريق تسوية الأزمة اللبنانية وأزمة الشرق الأوسط، إنما هي سياسة إسرائيل الاغتصابية المعادية للعرب، وحليفها فيما وراء المحيط. وأشارت البرافدا إلى أن سنوات الحرب تركت أثرها أيضاً على موقف اللبنانيين من الاتحاد السوفياتي، وسياسته في الشرق الأوسط. فكل خطوة باتجاه السلام في لبنان تلقى تأييد الشعب السوفياتي الصديق، وليس فقط لأن الشرق الأوسط يقع على مقربة مباشرة من حدود الاتحاد السوفياتي الجنوبية، بل ولأن المواطنين السوفيات الذين يقدرون ثمن السلام حق التقدير، يتعاطفون مع نضال اللبنانيين من أجل وحدة بلدهم، واستعادة سيادة لبنان، وضمان استقلاله، وحرمة أراضيه ويعملون كل ما بوسعهم ليعود السلام إلى أرض أشجار الأرز والزيتون المثخنة بالجراح[٢٧].

وقد تأكد موقف الاتحاد السوفياتي هذا بصورة عملية ومن جديد في الدعم القوي الذي محضه الاتحاد السوفياتي لموقف لبنان في جلسة مجلس الأمن الدولي بتاريخ ١٨ نيسان (إبريل) ١٩٨٦. ففي تلك الجلسة طالب لبنان بتمديد فترة عمل قوات الطوارىء الدولية في الجنوب اللبناني ستة أشهر جديدة. وقبل الجلسة وخلالها عارضت الولايات المتحدة الطلب اللبناني، ومارست ضغطاً قوياً لمنع قوات الطوارىء من القيام بدورها

بشكل فعال، وأعلنت وقف دفع الأموال الأميركية الخاصة بتمويل هذه القوات. وكذلك عارضت فرنسا التمديد لهذه القوات أكثر من شهرين خلافاً لمصلحة لبنان ومطلبه. بينما جاء الموقف السوفياتي داعماً لمطلب لبنان بصورة مطلقة. فلأول مرة منذ قيام الأمم المتحدة اتخذ الاتحاد السوفياتي موقفاً داعماً، بشكل مباشر لعمل قوة طوارىء تابعة للأمم المتحدة، بعد أن كان عارضها باستمرار أو وقف منها موقفاً سلبياً مكتفياً بعدم التصويت على اثر استفادة الولايات المتحدة من أكثرية مطلقة في الجمعية العمومية لشن عدوانها على كوريا باسم الأمم المتحدة. فقد صوّت السفير السوفياتي لدى الأمم المتحدة بالموافقة على عمل قوة الطوارى الدولية في الجنوب اللبناني، وأعلن أن بلاده ستساهم في تمويل هذه القوات. ومعروف أن الولايات المتحدة الأميركية بالتنسيق الكامل مع الموقف الإسرائيلي، أرادت إلغاء مهمة القوات الدولية في الجنوب اللبناني، ليسهل بعد ذلك على إسرائيل أن «تسرح وتمرح» هناك دون حسيب أو رقيب، وترتكب ما يحلو لها من الجرائم ضد سكان الجنوب اللبناني. ولهذه الغاية أوقفت واشنطن تقديم الأموال اللازمة للمساهمة في تمويل قوات الطوارىء الدولية في الجنوب اللبناني. وبخلاف هذا الموقف الأميركي المعادي جاء الموقف السوفياتي الصديق والمناصر معلناً تأييد تجديد مهمتها ومساهمته في تمويلها. وقد أعرب سفير لبنان لدى الأمم المتحدة في كلمته في جلسة مجلس الأمن الدولي، باسم حكومة لبنان وشعبه عن خالص الشكر والامتنان للاتحاد السوفياتي وبلغاريا على موقف بلديهما المؤيد للطلب اللبناني لما لهذا الموقف من أثر إيجابي فعال في دعم «اليونفيل» [٢٨] ومهمتها في الجنوب اللبناني [٢٩]. وكذلك أشاد الرئيس رشيد كرامي، بوصفه وزيراً للخارجية اللبنانية، والأوساط الدبلوماسية اللبنانية بالموقف السوفياتي واعتبرته تحولاً مهماً بالنسبة لمستقبل قوات

الطوارىء في لبنان. وأكد رئيس المجلس النيابي اللبناني حسين الحسيني لزائريه السفير السوفياتي في لبنان ألكسندر سولداتوف، والقائم بالأعمال يوري سوسليكوف خلال زيارتها الوداعية له، ارتياح اللبنانيين كافة إلى الموقف السوفياتي المتميز، والجديد، والداعم لموقف لبنان في مجلس الأمن الدولي. وأكد السفير سولداتوف من جهته استمرار دعم بلاده للبنان من أجل استعادة سيادته في الجنوب وتحقيق وفاقه الوطني [٣٠]. وقبيل مغادرة السفير سولداتوف منهياً مهمته في لبنان، استقبله الرئيس أمين الجميّل في لقاء وداعي بروتوكولي، أشاد خلاله بدوره في تعزيز أواصر الصداقة بين الاتحاد السوفياتي ولبنان، وقلده وسام الأرز الوطني تعبيراً عن تقدير لبنان لدوره وجهوده، وتعبيراً عن اعتزاز لبنان بصداقته مع الاتحاد السوفياتي.

وشملت مواقف الشكر لموقف الاتحاد السوفياتي كل القوى والأوساط السياسية في لبنان، وأعرب المسؤول التنظيمي لحركة أمل في الجنوب السيد محمود الفقيه عن شكر حركة أمل وإشادتها بموقف الاتحاد السوفياتي بقوله: «إن شعب الجنوب الذي يعاني من ممارسات إسرائيل، والتجاهل العربي والدولي لما يحصل على أرض الجنوب، يقدر كل من يقف معه في معركته هذه وخاصة الموقف المشرف الذي اتخذه الاتحاد السوفياتي في دعم شعب لبنان» [٣١].

وفي الذكرى الرابعة للاجتياح الإسرائيلي للبنان، أعلن يوري ميلينتيف وزير الثقافة في جمهورية روسيا الاتحادية، رئيس مجلس إدارة جمعية الصداقة السوفياتية ـ اللبنانية، مجدداً عن موقف الاتحاد السوفياتي حيال الوضع في لبنان بقوله:

« من الواضح تماماً أن التدخل الغاشم من جانب إسرائيل وحاميتها اللتين تثيران الشقاق الطائفي الديني، كان ولا يزال السبب الرئيسي في عدم تسوية النزاع في لبنان. واليوم إذ يدين السوفياتيون بحزم استمرار العدوان الإسرائيلي على لبنان، يعبرون عن تضامنهم مع النضال الوطني الذي يخوضه الشعب اللبناني في سبيل حقوقه المشروعة ونضاله ضد الاحتلال الإسرائيلي.

إلا أن الحياة نفسها تثبت أن خوض نضال ناجح ضد المعتدين الإسرائيليين، وحلفائهم، وحماتهم الامبرياليين غير ممكن إلا بالعمل جبهة واحدة. كما أن مصير لبنان ومستقبله كدولة عربية مستقلة وذات سيادة، مرتهن بتسوية قضايا لبنان الداخلية عن طريق الحوار الوطني بدون التدخل الصهيوني والامبريالي. والسوفياتيون يدعون إلى مثل هذه التسوية بثبات ويعملون بدأب وإصرار من أجل التوصل إلى تسوية لصالح قضية العرب العادلة ولخير السلام في الشرق الأوسط »[٣٢].

ومرة ثانية خلال إحياء « أيام لبنان في الاتحاد السوفياتي » أعرب يوري ميلينتيف، في لقاء جرى في موسكو في دار الصداقة مع شعوب البلدان الأجنبية مع وفد برلماني لبناني ضم النواب السادة البير منصور، ورينيه معوض، وهاشم الحسيني، أعرب عن ثقته بأن الشعب اللبناني الذي يتصدى التصدي اللائق للعدوان الإسرائيلي المتواصل سيذود عن شرفه وكرامته، وسيستعيد وحدة بلاده وسيادتها، ويتغلب على الصعوبات التي تعترض طريق وحدة لبنان. وقال النائب الأول لرئيس هيئة رئاسة اتحاد جمعيات الصداقة السوفياتية يفغيني ايفانوف في كلمته خلال اللقاء المذكور، إن السوفياتيين يكنون أصدق مشاعر الصداقة والتضامن مع شعب لبنان المناضل من أجل انسحاب الغزاة الإسرائيليين انسحاباً تاماً

من أرضه ومن أجل لبنان موحد وسيد[٣٣].

وفي كلمة له خلال الاجتماع الاحتفالي الذي جرى في موسكو افتتاحاً لأيام الصداقة السوفياتية ـ اللبنانية، قال النائب الدكتور البير منصور رئيس جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية، ورئيس الوفد اللبناني إلى احتفالات أيام الصداقة، قال: « إن الاتحاد السوفياتي كان ولا يزال صديقاً وفياً خلوصاً للشعب اللبناني والشعوب العربية الأخرى. وما مساهمته في النضال من أجل إقامة سلام عادل ووطيد في الشرق الأوسط، وطلبه الحازم بانسحاب القوات الإسرائيلية فوراً من جنوب لبنان، وموقفه المبدئي في الأمم المتحدة من قضايا السياسة العالمية الأساسية، سوى تأكيد فعلي على سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية المحبة للسلام، وسياسة الخير والسعادة والازدهار لكل الشعوب »[٣٤].

وهكذا نرى أنه بعد إلغاء اتفاق ١٧ أيار (مايو) اللبناني الإسرائيلي، عادت الحيوية إلى العلاقات بين لبنان والاتحاد السوفياتي، وتنشطت هذه العلاقات سياسياً وثقافياً وفي الميادين الأخرى، بصورة ملحوظة بعد تولي ميخائيل غورباتشوف مهام الأمانة العامة للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٨٥، وبعد إقرار التوجهات الجديدة لسياسة الحزب في مؤتمره السابع والعشرين آذار (مارس) ١٩٨٦، وقد انعكس كل ذلك على دور السفير السوفياتي الجديد فاسيلي كولوتوشا، الذي بدأ ممارسة مهامه كسفير لبلاده في لبنان خلفاً للسفير سولداتوف في ربيع العام ١٩٨٦ وعلى السياسة التي يمارسها في لبنان، مركزاً على إقامة الصلات والحوار مع جميع الأطراف اللبنانية الأساسية، دون تمييز أو استثناء، ماداً جسور الصداقة السوفياتية إلى مختلف الأوساط والهيئات السياسية والثقافية في لبنان وذلك تعبيراً عن موقف الاتحاد السوفياتي الثابت في دعم وحدة

لبنان وسيادته واستقلاله. فكيف يمكن للاتحاد السوفياتي أن يترجم عملياً موقفه هذا، إذا لم تشمل صلاته وعلاقاته كل الأطراف اللبنانية دون استثناء بمعزل عن الخلافات والتناقضات الإيديولوجية والسياسية بين بعضها من جهة وبين إيديولوجية وسياسة الاتحاد السوفياتي من جهة ثانية. فنشط في إطار هذه التوجهات الجديدة دور المركز الثقافي السوفياتي في بيروت، حتى غدا واحداً من ألمع منابر الثقافة في بيروت وأبرزها وشملت نشاطاته استقدام أبرز الفرق الفنية السوفياتية لتقدم عروضها في مختلف مناطق لبنان شمالاً وجنوباً، وفي شطري بيروت الغربي والشرقي. وعرض بمناسبة ذكرى النصر على الفاشية فيلم جوكوف في احتفال خاص أقيم بالمناسبة في أيار (مايو) ١٩٨٦ في قاعة سينما «لاساجيس» في الأشرفية. وكانت هذه المرة الأولى التي يقام فيها مثل هذا الاحتفال في الشطر الشرقي من بيروت منذ منتصف السبعينات. وكذلك نظم المركز المعارض وأسابيع الأفلام السوفياتية في «بيت المستقبل» في إحدى ضواحي بيروت الشرقية. وكانت هذه النشاطات وسواها والتي شملت بيروت وطرابلس، وزغرتا، وصيدا، وبعقلين، وبيت الدين، وبعلبك، من أبرز المظاهر المعبرة عن مدى اتساع أواصر الصداقة بين شعبي لبنان والاتحاد السوفياتي وتعمقها. وهذا ما انعكس في مواقف معظم القوى السياسية والفاعليات اللبنانية التي مدت جسور الصداقة مع بلاد السوفيات بعدما كان البعض منها في السابق يتخذ مواقف العداء حيال الاتحاد السوفياتي.

وفي نطاق سياسة الصداقة والانفتاح، التي دأب على نهجها الاتحاد السوفياتي في لبنان، ارتفعت أعداد منح الدراسة الجامعية التي يقدمها الاتحاد السوفياتي للبنان، وتوسع توزيعها لتشمل معظم قوى وأحزاب

لبنان، وهيئاته الثقافية والمناطق اللبنانية كافة على إختلاف طوائفها.

وكذلك قدمت المساعدات السوفياتية الاستشفائية لمئات اللبنانيين من جرحى الاجتياح الإسرائيلي، والعمليات العدوانية الإسرائيلية الأخرى، والذين نقلوا للمعالجة في مستشفيات الاتحاد السوفياتي أو حملت إليهم الأدوية والعقاقير الطبية من موسكو إلى لبنان. وتكثفت في غضون ذلك النشاطات السوفياتية لدعم المقاومة الوطنية اللبنانية وتقديم شتى أنواع المساعدة والدعم المادي والمعنوي والإعلامي لها. وواصلت الصحافة السوفياتية كشفها لمخططات إسرائيل وحماتها في واشنطن، المعادية للبنان. وفي هذا السياق كتبت صحيفة «روسيا السوفياتية» تقول: «إن إسرائيل وحماتها الامبرياليين يتحملون مسؤولية إشعال الحرب الأهلية في لبنان قبل اثنتي عشرة سنة ويتحملون الآن مسؤولية استمرار هذه الحرب»[٣٥].

وفي تعليق لها على جريمة اغتيال الرئيس رشيد كرامي تساءلت وكالة أنباء نوفوستي: من المستفيد؟ مشيرة إلى أن ردود الفعل الأولى على هذه الحادثة المأساوية تظهر أن هذه الجريمة تفيد إسرائيل ومن يدعمها. وهي قد نفذت بغية زيادة تعقيد الوضع في لبنان[٣٦]. أما وكالة تاس فقد اعتبرت أن جريمة اغتيال رشيد كرامي النكراء هي الحلقة الأخيرة في سلسلة الأعمال التخريبية التي يقوم بها الغزاة الصهاينة وعملاؤهم، في كل مرة تبرز فيها فرص لبلوغ الاتفاق بين الفئات اللبنانية المتنازعة[٣٧].

وأكد نائب وزير الخارجية السوفياتي فلاديمير بتروفسكي أن حل المشاكل الداخلية في لبنان يرتكز على توفر الرغبة السياسية لدى جميع الأطراف عن طريق المباحثات[٣٨].

وفي بيان مشترك سوفياتي - سوري حول نتائج المباحثات التي جرت

في موسكو بين ميخائيل غورباتشوف، الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، والرئيس حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية العربية السورية، وردت الفقرة الآتية الخاصة بلبنان:

«يؤيد الاتحاد السوفياتي وسورية النضال الذي يخوضه شعب لبنان، وقواه الوطنية من أجل تحرير البلد من الاحتلال الإسرائيلي. ومن الضروري حمل إسرائيل على سحب قواتها كلياً ودون أية شروط من جنوب لبنان، كما تقضي بذلك قرارات الأمم المتحدة المعنية. فالمشاكل اللبنانية الداخلية لا يمكن تسويتها إلا على طريق الوفاق الوطني في ظل الحفاظ على وحدة لبنان واستقلاله وسيادته ووحدة أراضيه» [٣٩].

ورداً على سؤال صحافي حول نظرة الاتحاد السوفياتي إلى الوضع الراهن في لبنان صرح في باريس أناتولي أداميشين، نائب وزير الخارجية السوفياتي بقوله:

«إن موقف الاتحاد السوفياتي واضح، نحن مع لبنان واحد موحد شعباً وأرضاً، ومع سيادته، وسلامة أراضيه من دون أي تدخل خارجي في شؤونه، وعلى اللبنانيين أن يقرروا بأنفسهم مصيرهم وقضاياهم.

هل تقصد بوقف التدخل الخارجي الإسرائيليين والسوريين في آن؟

ـ الأمر الأكيد أننا مع الخروج الفوري للإسرائيليين من الأراضي اللبنانية، أما بالنسبة إلى القوات السورية فإن ثمة اتفاقاً معكم في موضوع وجودها، فتدبروا أمركم معها.

ـ ولكن هناك طلب من الحكم اللبناني لمغادرة الجيش السوري لبنان؟

ـ يجب أن تتفقوا مع السوريين... بالنسبة إلينا من المهم أن تتفقوا مع السوريين، إما بالنسبة إلى موقفنا في شكل عام فنحن ضد أي تدخل خارجي» [٤٠].

هذه السياسة المبدئية الثابتة، والمواقف الواضحة للاتحاد السوفياتي حيال لبنان، كان لا بد وأن تنعكس تصلباً وترسخاً لعلاقات الصداقة السوفياتية ـ اللبنانية على المستويين الشعبي والرسمي، وهذا ما نلاحظه بصورة خاصة في حديث للرئيس اللبناني أمين الجميل أدلى به إلى فريد سيف الملوكوف المراقب السياسي للتلفزيون والإذاعة السوفياتيين في شهر أيار (مايو) ١٩٨٧، وقد أجاب الرئيس الجميل رداً على سؤال حول تقويمه للعلاقات بين الجمهورية اللبنانية والاتحاد السوفياتي، أجاب بقوله:

«منذ تسلمي مقدرات الحكم في لبنان سعيت إلى تطوير العلاقات اللبنانية ـ السوفياتية. وقد استقبلنا العديد من المسؤولين السوفيات، وبحثنا معهم الشؤون اللبنانية ـ السوفياتية والعلاقات المشتركة. وكذلك زار للمرة الأولى مسؤول كبير في الخارجية اللبنانية، هو أمين عام وزارة الخارجية، الاتحاد السوفياتي وبحث مع المسؤولين في الاتحاد السوفياتي العلاقات اللبنانية ـ السوفياتية.

وتربطني علاقات قديمة مع الاتحاد السوفياتي، وقد زرت الاتحاد السوفياتي قبل تسلمي مسؤوليات الرئاسة في لبنان. وكان لهذه الزيارة الأثر العميق، وخاصة لجهة المناطق العديدة التي زرتها في الاتحاد السوفياتي، والأبحاث التي جرت بيني وبين العديد من المسؤولين السوفيات. وكذلك كوني انتسبت إلى جمعية الصداقة اللبنانية ـ السوفياتية قبل تسلمي رئاسة الجمهورية. فعلاقاتي مع الاتحاد السوفياتي قديمة، وأقدر هذه الدولة

العظمى، وكانت دائماً رغبتي في تـوطيـد العلاقـات بين لبنـان والاتحاد السوفياتي. وعملت على هذا الأساس منذ تسلمـي الرئـاسـة، لتطـويـر العلاقات من خلال التبادل الدائم للزيارات بين لبنان والاتحاد السوفياتي. فقد زارنا العديد من المسؤولين السوفيات كما زار للمرة الأولى الاتحاد السوفياتي، أمين عام وزارة الخارجية اللبنانية كما ذكرت، وكانت هذه الزيارة موفقة جداً وأتت بالنتائج المرجوة. فإنني أسعى دائماً لتطوير هذه العلاقات. ولا بد أن يكون للاتحاد السوفياتي دور يساعد لبنان لإنهاء هذه المأساة.

ولتطوير العلاقات أوجه عديدة. أولاً من الناحية السياسية. ومن هذه الناحية نأمل أن تتطور أكثر وأكثر العلاقات بين لبنان والاتحاد السوفياتي. وقد عبّر عن ذلك الاتحاد السوفياتي، مشكوراً، في البيان المشترك الذي صدر إثر زيارة الرئيس الأسد إلى موسكو، حيث أكد على مسلمات هي أساسية بالنسبة لنا: استقلال لبنان وسيـادتـه والتحـريـر مـن الاحتلال الإسرائيلي ومنع التوطين إلى ما هنالك. فهي مسلمات بالنسبة للسياسة اللبنانية، وأتى البيان السوفياتي على ذكر هذه المسلمات. وهذه مناسبة لشكر القيادة السوفياتية على هذه اللفتة الكريمة وهي لفتة الأخ. وكذلك يكون التنسيق في المحافل الدولية، وكان الاتحاد السوفياتي دائماً بجانب لبنان في تطبيق القرارات الدولية بما يتعلق بتحـريـر لبنـان وسيـادتـه واستقلاله.

كذلك ننظر إلى تطوير العلاقات على الصعيد الثقافي، حيث تربط لبنان بالاتحاد السوفياتي علاقات قديمة. وهناك العديد من الطلاب من لبنان في العديد من الجامعات السوفياتية من أجل التحصيل العلمي. وقد استقبلهم الاتحاد السوفياتي بالترحاب والاهتمام البالغين. كما هناك تراث

فكري مشترك بين لبنان والاتحاد السوفيـاتي وخـاصـة في نهايـة القـرن الماضي، حيث كانت هناك علاقات ثقافية متطورة وحتى فنية بينهما.

كذلك ننظر إلى تطوير العلاقـات الاقتصـاديـة بين لبنـان والاتحاد السوفياتي. فهناك مجالات واسعة جداً في الاتحاد السوفياتي لمساعدة لبنان في هذه المرحلة، على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ولديه إمكانيات طائلة وخبرة واسعة في المجال الاقتصادي يمكن أن يفيد لبنان من هذه القدرة والإمكانات. وقد بدأنا اتصالات مكثفة مع الاتحاد السوفياتي على مستوى الخبراء من أجل تطوير العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين لبنان والاتحاد السوفياتي، لأن هذه العلاقات تعزز بدورها العلاقات الثقافية والسياسية، لأنها علاقات مرتبطة ببعضها البعض.

إننا ننظـر بكـل ارتيـاح إلى العلاقـات الممتـازة بين لبنـان والاتحاد السوفياتي، الذي وقف دائماً بجانب لبنان، ونتوجه بكلمات الشكر إلى القيادة السوفياتية، والأمين العام السيد غوربـاتشـوف، والرئيس السيـد غروميكو، ونأمل بأن هذه العلاقات وهذا الانسجـام، وهـذا التعـاون سـوف تتـدعـم أكثر وأكثر بما يخدم مصلحـة السلام في لبنـان والشرق الأوسط والعالم، لأن لبنان كما الاتحاد السوفياتي محب للسلام ويعمل لأجله» (٤١).

واضح تماماً أن هذا التوجـه الذي حـدده الرئيس الجميـل بـالنسبة لعلاقات لبنان مع الاتحاد السوفياتي، يفتح آفاقاً رحبة لتطوير وتوسيع هذه العلاقات، إذا ما ترجم بصورة عملية واقعية، وإذا ما تركس في سياسة لبنانية رسميـة جـادة تعكس تمنيـات ومشـاعـر الرئيس الجميل المشار إليهـا أعلاه؛ لأن في ذلـك تحقيقـاً لمصلحـة لبنـان الذي اكتنـز خلال السنوات العشر الأخيرة بالعديد من التجارب والعبر، التي توجب

أن يكون للبنان علاقاته الخارجية الدولية المتوازنة انطلاقاً من موقعه كوطن حر سيد مستقل، وتحقيقاً لمصالحه الحيوية التي لا تتحقق عبر سياسة الانحياز التقليدية للغرب عامة والولايات المتحدة الأميركية بصورة خاصة، بل عبر سياسة لا منحازة تنطلق من مصلحة لبنان ومن المبادىء والقيم التي عنون بها رسالته منذ أن نقل الحرف إلى العالم منذ فجر التاريخ، مبادىء الحرية والعدالة والمساواة ومناصرة الشعوب المظلومة والإنسان المضطهد أينما كان، ومناصرة الشعوب المناضلة ضد التخلف والفقر والاستعباد.

وفي هذا بالذات تنفتح أمام العلاقات اللبنانية ـ السوفياتية الآفاق الرحبة مما يحمل اللبنانيين على التطلع إلى بلاد السوفيات متوسمين أملاً في صداقتها للبنان. والمساعدة التي يمكن أن تقدمها له للخروج من الأزمة ـ المحنة، وما يدفع اللبنانيين إلى ذلك معرفتهم بمدى أهمية الدور الذي يمكن لموسكو أن تلعبه سواء بالنسبة لتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٤٢٥، القاضي بانسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان، أم بالنسبة للصداقات القوية التي تربطها بالقوى المحلية والاقليمية الفاعلة. وفي هذا الإطار كانت زيارة البطريرك الماروني مار نصر الله بطرس صفير مؤخراً إلى موسكو. ولقد كانت إشارة هامة على هذا الصعيد، ما أعلن في موسكو خلال مباحثات وزير الخارجية الأميركية جورج شولتز وبعدها، بأن القمة القادمة بين الزعيمين السوفياتي والأميركي ستبحث بالإضافة إلى معاهدة الصواريخ المتوسطة المدى القضايا الإقليمية الهامة ومنها قضية لبنان. فإذا ما تم التوصل بين الجبارين إلى صيغة تفاهم تخرج إسرائيل قواتها بموجبها من لبنان، فمعنى ذلك أن بداية حلحلة عقد الأزمة اللبنانية أخذت طريقها إلى التنفيذ. ويرتدي في هذا الإطار أهمية خاصة الموقف السوفياتي الداعي إلى عقد مؤتمر خاص لتسوية أزمة الشرق

الأوسط بمشاركة كافة الأطراف المعنية، ليضع صيغة الحل العادل الذي يكفل إنهاء حالة الصراع العربية ـ الإسرائيلية، وحل أزمة لبنان في جوانبها الإقليمية على الأقل المتداخلة مع الجوانب المحلية ومن هنا تأكيد السفير السوفياتي في لبنان في كلمته عشية العيد السبعين لثورة أكتوبر من التلفزيون اللبناني، أن هناك العديد من القضايا التي يتوجب على اللبنانيين أنفسهم معالجتها، وأن الاتحاد السوفياتي لا يعتقد بوجود حواجز وموانع بين اللبنانيين لا يمكن تخطيها وتجاوزها، وتوسم اللبنانيون خيراً في كلام مسؤولي الخارجية السوفياتية الذي نشرته الصحف اللبنانية في حينه لدى استقبالهم البطريرك صفير «بأن لبنان سوف يعود إلى سابق عهده وسيبقى دولة سيدة موحدة مستقلة».

وإذا ما شئت في نهاية هذا القسم أن أعيد تلخيص الموقف السوفياتي إزاء لبنان وأزمته، واقعه ومستقبله، كخاتمة لهذا الكتاب فلن أجد أفضل من العودة إلى كلام سوفياتي ما زال وقعه طرياً في آذان اللبنانيين وحبره لم يجف بعد عن صفحات صحفهم، وهو الكلام الذي قاله في احتفال الذكرى السبعين لثورة أوكتوبر الاشتراكية[٤٢] والذي أقيم في بيروت في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٧، فلاديمير أنيشيف، رئيس الوفد السوفياتي، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، إذ قال في كلمته:

«إننا ننقل إليكم أحر مشاعر وتحيات السوفياتيين المتعاطفين في قلوبهم مع الشعب اللبناني الذي يمر بإحدى أشد مراحل تاريخه مأساة، ويدرك المواطنون في بلادنا حجم المعاناة والمآسي التي يتعرض لها شعب لبنان، لأنهم مروا هم أيضاً قبل اثنتين وأربعين سنة فقط بتجربة قاسية هي عدوان المانيا الفاشية الذي أودى بحياة أكثر من عشرين مليون إنسان

سوفياتي. وقد تركت هذه الحرب أثراً طويلاً وعميقاً في العديد من جوانب حياة المجتمع السوفياتي الاجتماعية والاقتصادية.

لا يسعنا إلا أن نتذكر ونحن على الأرض اللبنانية الظروف التي زعزعت الوضع في بلادكم، وكبدت وتكبد الشعب اللبناني أضراراً جسيمة وتسبب المآسي والحرمان لعشرات ومئات آلاف الناس، وإننا، إذ نشير أولاً إلى الآثار السلبية الناجمة عن العدوان الإسرائيلي بوصفه أحد الأسباب الرئيسية لهذه الأزمة، نؤكد على الضرورة الملحة لتطبيق قرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بلبنان تطبيقاً تاماً، ولا سيما القرار ٤٢٥ (سنة ١٩٧٨) القاضي بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي اللبنانية. إن ممارسات القوى المعادية التي تغذي الأزمة اللبنانية وتعرقل على اللبنانيين حل قضيتهم بالوسائل السياسية بمساعدة أصدقائهم العرب، هي السبب الرئيسي لاستمرار الوضع دون حل في البلاد حتى الآن.

إننا مع السلام في لبنان ومع استقلاله ووحدته أرضاً وشعباً. ومثل هذا الموقف من القضايا اللبنانية يمليه منطق التفكير السياسي الجديد الذي يعتبر أهم عنصر من عناصر عملية إعادة البناء. هذا التفكير الذي يدخل في صلب موقف الاتحاد السوفياتي من القضايا العالمية والاقليمية المعاصرة. ويرحب السوفياتيون بالخطوات الرامية إلى تحقيق الوحدة الوطنية، والوفاق اللبناني الشامل على شؤون مستقبل بلادكم، وإنهاء الصدامات بين الأشقاء حول المخيمات الفلسطينية أو في غيرها من المناطق اللبنانية»(٤٣).

هذا الموقف السوفياتي الذي أعلن في احتفال بيروت بالذكرى السبعين لثورة أكتوبر، أعقبه بعد أيام معدودة موقف سوفياتي مكمل تضمنته برقية التهنئة التي بعثت بها هيئة رئاسة السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي

إلى الرئيس اللبناني أمين الجميل بمناسبة الذكرى الرابعة والأربعين لاستقلال لبنان مهنئة الشعب اللبناني الصديق بعيده الوطني، يوم الاستقلال، وجاء في البرقية:

«إن الاتحاد السوفياتي إذ يرجو للبنان عودة الاستقرار إليه والتوصل إلى وفاق وطني فيه، يقف بثبات إلى جانب بلدكم وسيادته وسلامة أراضيه، كما يؤيد نضاله من أجل وضع حد للاحتلال الإسرائيلي وإحلال السلام العادل في الشرق الأوسط»(٤٤).

وهكذا، ومع الذكرى السبعين لثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا، والذكرى الرابعة والأربعين لاستقلال لبنان، تكتمل الصورة الموضوعية للعلاقات السوفياتية ـ اللبنانية خلال سبعين عاماً من عمر الثورة السوفياتية وأربع وأربعين عاماً من عمر الاستقلال اللبناني وهي العلاقات النموذج في تاريخ العلاقات الدولية المعاصرة، علاقات المساواة والتكافؤ والاحترام بين دولة جبارة كبرى ودولة نامية صغيرة. إنها الصفحة الجديدة التي دشنتها ثورة أكتوبر في ميدان العلاقات الدولية وكرستها خلال سنوات عمرها السبعين حتى غدت أساساً راسخاً وجوهراً ثابتاً لكل العلاقات الدولية بين شعوب العالم الحرة ودوله السيدة المستقلة.

وبين انتصار ثورة أكتوبر وتحقيق استقلال لبنان، علاقة وثيقة ولا شك، وإن بدت غير مباشرة، فلو لم تنتصر ثورة أكتوبر وينهار النظام الاستعماري وتسقط معه كل الاتفاقات، والمعاهدات السرية التي كشفتها السلطة السوفياتية الفتية. ولو لم تصمد بلاد السوفيات في حربها الوطنية العظمى، وتهزم النازية الفاشية في الحرب العالمية الثانية، لولا ذلك، لكانت حتماً صورة العالم مختلفة كلياً عما هي عليه اليوم، ولكان حتماً

واقع لبنان ككيان سياسي، مختلفاً تماماً عن الشكل الذي هو عليه، ولربما كان لبنان ككيان جيوسياسي كما هو اليوم، قد ذاب في زحمة المخططات الامبراطورية الاستعمارية، أو في عهدة السيطرة النازية الفاشية... كلها إمكانيات واحتمالات بددها انتصار ثورة أكتوبر، وقيام الدولة السوفياتية الذي كرس واقعاً جديداً في حياة العالم. وفي أحضان هذا الواقع ولد لبنان الكبير ثم قامت الجمهورية اللبنانية التي سارع الاتحاد السوفياتي إلى الاعتراف بها ودعم استقلالها، وكيانها الدولي وأصرّ على جلاء الجيوش الأجنبية عنها، الفرنسية والبريطانية ثم الأميركية فالإسرائيلية... جلاء كاملاً غير مشروط، تكريساً لسيادتها وصوناً لاستقلالها وكرامتها. واليوم إذ تهتز دعائم ذلك الاستقلال وتلك السيادة ويتهدد التقسيم والتفتت وحدة لبنان، ألا يجدر بنا نحن اللبنانيين أن نتطلع مجدداً نحو تلك البلاد الصديقة ونسعى لتوطيد وتعزيز وتطوير علاقات وطننا معها؟

وإذا شئنا ذلك، وهذا ما تقتضيه مصلحة لبنان وشعبه، ألا ينبغي أن نتعمق في دراسة تاريخ علاقاتنا مع بلاد السوفيات؟

هوامش

(١) ايغور اوساتشيوف: مبادىء السياسة الخارجية السوفياتية، ص٢٨، موسكو، ١٩٨٥، دار نشر وكالة «نوفوستي».

(٢) وكالة أنباء تاس ١٩٨٣/٥/٧.

(٣) نشرة وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٣/٥/١٩.

(٤) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٣/٦/٣٠.

(٥) جريدة النداء: ١٩٨٤/٣/١٣.

(٦) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٤/٣/١٥.

(٧) المرجع السابق.

(٨) المرجع السابق.

(٩) جريدة النداء: ١٩٨٤/٣/٧.

(١٠) جريدة البرافدا: ١٩٨٥/٩/٢٠.

(١١) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٤/٧/٤.

(١٢) المرجع السابق.

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) المرجع السابق.

(١٥) الرفاق - مجموعة كتاب لبنانيين - مرجع سابق. ص ١٦١.

(١٦) الحلف الأطلسي أو منظمة حلف شمالي الأطلسي حلف عسكري قام في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأميركية في الرابع من شهر نيسان (ابريل) ١٩٤٩ من بلجيكا وكندا والدانمارك وفرنسا وبريطانيا العظمى وايسلاندا وايطاليا واللوكسمبورغ وهولندا والنروج والبرتغال والولايات المتحدة الأميركية وانضم إليه اليونان وتركيا عام ١٩٥٢ وألمانيا الاتحادية عام ١٩٥٥ يهدف إلى تنظيم الحرب الباردة وإلى معاداة الاتحاد السوفياتي وسائر الدول الاشتراكية وإلى محاربة حركات التحرر الوطني في المنطقة.

(١٧) جريدة السفير ١٩٨٤/٣/٥.

(١٨) جريدة النهار ١٩٨٦/٢/٢٨.

(١٩) الدكتور رزق رزق: رشيد كرامي السياسي ورجل الدولة، ص ١٧١، بيروت ١٩٨٧، دار مختارات.

(٢٠) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٤/٨/٤.

(٢١) جريدة السفير ١٩٨٥/٣/١٤.

(٢٢) جريدة البرافدا ١٩٨٥/٦/١٦.

(٢٣) وكالة أنباء تاس ١٩٨٥/٨/١٥.

(٢٤) أنباء موسكو ١٩٨٥/٨/١٤.

(٢٥) وكالة أنباء تاس، ١٩٨٦/١/١٤.

(٢٦) جريدة «الحقيقة» اللبنانية ١٩٨٦/٣/١.

(★) : الاتفاق الثلاثي وقع في دمشق في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥ من قبل كل من وليد جنبلاط ونبيه بري وإيلي حبيقة. غير أنه لم ينفذ على أرض الواقع وبات في حكم الملغى عملياً.

(٢٧) جريدة البرافدا ١٩٨٦/٤/١١.
(٢٨) يونفيل: يونايتد نايشونز فورسز إن لبنون هو تسمية قوة الطوارىء التابعة للأمم المتحدة في لبنان.
(٢٩) جريدة النهار ١٩٨٦/٤/٢٠.
(٣٠) جريدة النداء ١٩٨٦/٤/٢٢.
(٣١) جريدة النداء ١٩٨٦/٤/٢٣.
(٣٢) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٦/٦/٥.
(٣٣) وكالة أنباء تاس ١٩٨٦/٦/٢٦.
(٣٤) مجلة أنباء موسكو ١٩٨٦/١٠/١٨.
(٣٥) صحيفة روسيا السوفياتية ١٩٨٧/٤/١٠.
(٣٦) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٧/٦/٣.
(٣٧) جريدة النداء ١٩٨٧/٦/١٦.
(٣٨) جريدة الخليج ١٩٨٧/١٠/٨.
(٣٩) وكالة أنباء نوفوستي ١٩٨٧/٤/٢٧.
(٤٠) جريدة النهار ١٩٨٧/١٠/١٢.
(٤١) نص الحديث من أرشيف المكتب الصحفي السوفياتي في بيروت.
(٤٢) هذا المهرجان الجماهيري الحاشد الذي أقيم في بيروت وتحدث فيه وليد جنبلاط، وجورج حاوي، وعمر كرامي، وسواهم من القادة اللبنانيين، بالإضافة إلى رئيس الوفد السوفياتي ف.أنيشيف شكل خاتمة سلسلة الاحتفالات والنشاطات الفكرية والثقافية والفنية والسياسية التي أقيمت في لبنان، في نطاق البرنامج اللبناني للاحتفال بالذكرى السبعين لثورة أكتوبر، والذي أعدته ونظمته هيئة وطنية لبنانية خاصة، ضمت عشرات الشخصيات اللبنانية السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والصحافية البارزة. وقد نفذ برنامج الاحتفالات على امتداد ثلاثة أشهر وكان الأضخم في العالم العربي.
(٤٣) جريدة النداء ١٩٨٧/١٠/١٤.
(٤٤) جريدة النهار ١٩٨٧/١٠/٢٢.

المصادر

١ - فلاديمير لينين: الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية.
٢ - جبران خليل جبران: المؤلفات الكاملة العربية.
٣ - نداء الحكومة السوفياتية إلى جميع المسلمين والكادحين في روسيا والشرق.
٤ - أرشيف الخارجية السوفياتية.
٥ - عمر فاخوري: الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية.
٦ - يفغيني بريماكوف: الشرق بعد انهيار النظام الاستعماري.
٧ - يفغيني بريماكوف: حكاية صفقة كمب دايفيد.
٨ - الرفاق: مجموعة مؤلفين لبنانيين.
٩ - رسائل أمين الريحاني.
١٠ - الريحاني ومعاصروه: رسائل الأدباء إليه.
١١ - ميخائيل نعيمه: سبعون ـ حكاية عمر.
١٢ - المطران باسيليوس سماحة: عشر سنوات من العلاقات الروحية بين الكنيستين الانطاكية والروسية.
١٣ - المطران جورج خضر: المسيحية والإسلام في لبنان.
١٤ - يوسف إبراهيم يزبك: حكاية أول نوار.
١٥ - محمد دكروب: جذور السنديانة الحمراء.
١٦ - فؤاد الشمالي: أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية ـ اللبنانية.
١٧ - س. أيوب: الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان.

١٨ ـ برنامج الأممية الشيوعية ـ المؤتمر العالمي السادس.
١٩ ـ جاك كولان الحركة النقابية في لبنان.
٢٠ ـ يوسف خطار الحلو: قصة النصر الكبير.
٢١ ـ تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي. جزءان ـ مجموعة مؤلفين سوفيات بإشراف غروميكو وبونوماريوف.
٢٢ ـ مكتبة أرشيف الخارجية اللبنانية.
٢٣ ـ محاضر جلسات المجلس النيابي اللبناني.
٢٤ ـ الدكتور حسين مروة: ثورة أكتوبر في الأدب اللبناني
٢٥ ـ ر. كليوكوفسكي: تطور العلاقات الاقتصادية السوفياتية ـ اللبنانية.
٢٦ ـ محمد أمين دوغان: الرحلة الرائدة.
٢٧ ـ الشيخ طه الولي: صفحات من تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد السوفيات.
٢٨ ـ الدكتور مسعود ضاهر: الاستقلال، الصيغة، الميثاق.
٢٩ ـ الكتاب السنوي لمؤسسة الدراسات الفلسطينية.
٣٠ ـ أنطوان خويري: الحرب في لبنان.
٣١ ـ إيغور أوساتشيوف: مبادىء السياسة الخارجية السوفياتية.
٣٢ ـ الدكتور رزق رزق: رشيد كرامي السياسي ورجل الدولة.
٣٣ ـ الحزب الشيوعي السوفياتي من مؤتمر لآخر.
٣٤ ـ نضال الاتحاد السوفياتي من أجل السلام والأمن: هيئة تحرير العلوم الاجتماعية والعصر. أكاديمية العلوم السوفياتية.
٣٥ ـ ف. لينين: تقرير عن السلام.

٣٦ ـ أندريه بيليايف: نضال الاتحاد السوفياتي في سبيل تسوية نزاع الشرق الأوسط ١٩٧٦ ـ ١٩٨٤.
٣٧ ـ ساناكويف وكابتشنكو: السياسة الخارجية الاشتراكية في النظرية والتطبيق.
٣٨ ـ الكتاب السنوي للجامعة الأميركية.
٣٩ ـ عادل مالك، من رودس إلى جنيف.
٤٠ ـ زئيف شيف ـ حرب إسرائيل في لبنان.
٤١ ـ شيمون شيفر ـ كرة الثلج.
٤٢ ـ أرتين مادويان: حياة وراء المتراس.

المراجع الصحفية

١ ـ جريدة «البرافدا» السوفياتية.
٢ ـ مجلة «المدار» السوفياتية.
٣ ـ مجلة «الحركة» الأرثوذكسية.
٤ ـ جريدة «كل شيء» اللبنانية.
٥ ـ جريدة «الأنوار» اللبنانية.
٦ ـ جريدة «النهار» اللبنانية.
٧ ـ مجلة «نوفيل أوبزرفاتور».

٨ - جريدة « الأحرار » اللبنانية.

٩ - جريدة « السفير » اللبنانية.

١٠ - جريدة « النداء » اللبنانية.

١١ - جريدة « الأهرام » المصرية.

١٢ - مجلة « المراسلات الأممية ».

١٣ - جريدة « الإنسانية » اللبنانية.

١٤ - صحيفة « الصحافي التائه » اللبنانية.

١٥ - جريدة « صوت العمال » اللبنانية.

١٦ - جريدة « الأزفستيا » السوفياتية.

١٧ - جريدة « صوت الشعب » اللبنانية.

١٨ - مجلة « الطريق » اللبنانية.

١٩ - وكالة أنباء « تاس » السوفياتية.

٢٠ - وكالة أنباء « نوفوستي » السوفياتية.

٢١ - مجلة « الأنباء السوفياتية ».

٢٢ - جريدة « السياسة » اللبنانية.

٢٣ - صحيفة « أنباء موسكو ».

٢٤ - جريدة « الشعب » اللبنانية.

٢٥ - جريدة « الثورة » السورية.

٢٦ - جريدة « الدستور » الأردنية.

٢٧ - جريدة « الجمهورية » العراقية.

٢٨ - جريدة « البعث » السورية.

٢٩ - جريدة « الحقيقة » اللبنانية.

٣٠ - صحيفة « روسيا السوفياتية ».

٣١ - جريدة « الخليج » الضبيانية.

الفهرس

ان لبنان الذي دفع غاليا من دم أبنائه وسنوات عمره . خلال سنوات الأزمة التي عانى منها ولا يزال ، لا يسعه الا وأن يخرج من كل ذلك بدروس وعبر ، خاصة فيما يتعلق بجوهر سياسته الخارجية وعلاقاته الدولية لجهة تحقيق التوازن فيها والتخلي عن رجحان كفة علاقاته مع الغرب عامة والولايات المتحدة الاميركية بصورة خاصة على حساب علاقاته مع الدول الصديقة وفي المقدمة منها بلاد السوفيات .

هذا الكتاب دراسة علمية شاملة لعلاقات بلادنا مع بلاد السوفيات خلال سبعين عاما (١٩١٧ - ١٩٨٧) وهو المدخل العلمي الطبيعي لدراسة تلك العلاقات كأساس لتطويرها ودعمها بما يخدم مصلحة لبنان وشعبه ومصلحة بقائه وتطوره كبلد مستقل ذي سيادة .